يغوث

الناشر

١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة
تليفاكس: ٢٣٩١٣٣٥٤ (٠٠٢٠٢)

اسم الكتاب: **يغوث**

المؤلف: **أحمد بكر**

رقم الإيداع: ٢٧٠١١
الترقيم الدولي:
I.S.B.N
978-977-314-476-5

حقوق النشر محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠١٦

المراسلات:
١١٦ شارع محمد فريد ــ القاهرة
جمهورية مصر العربية
التليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩١٣٨٥٩
فــاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩١٣٣٥٤
المحمول: ٠٠٢٠١٢٢٣١٧٧٥١٠
البــريــد الإلكترونـــي:
Hagagbookshop@hotmail.com
الفيس بوك:
HTTP://WWW.FACEBOOK.COM/
ZAHRAAELSHARQ.DARELKAHERA
تويتر:
HTTP://WWW.TWITTER.COM/
ZAHRAAELSHARQ
اليوتيوب:
HTTP://WWW.YOUTUBE.COM/
USER/ZAHRAAELSHARQBOOK

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطى مسبق من الناشر
تدمـــــك: ٥-٤٧٦-٣١٤-٩٧٧-٩٧٨
بكـر، أحمد
يغوث/ تأليف: أحمد بكـر/ ط١ / القاهرة: مكتبة زهراء الشرق للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م.
٢٤٥ ص؛ ١٤×٢٠سم
١- القصص العربية
أ- العنوان

٨١٣

يغوث

أحمد بكر

مكتبة زهراء الشرق للنشر والتوزيع
١١٦ شارع محمد فريد ـ القاهرة
٢٠١٦

تنبيه: هذه السلسلة من الروايات خيالية وأى تشابه بينها وبين الواقع (متاخدش فى بالك) كما لا يجوز الإعتماد عليها كمرجع تاريخى أو علمى (اتأكد من أى مرجع تانى) وتجربة اى شىء ورد فيها قد يكون خطر ويكون على مسؤلية فاعله.

مقدمة

الاسم: أحمد بكر، اسمعكم تقولون أنكم قرأتم ذلك كـمؤلف الرواية وأنكم تودون معرفة من سيصحبكم شاهداً على الأحداث والحقيقة أنه أنا أيضًا.

اعتبروا أنه تشابه اسماء بين شخصية الرواية والراوى أو أنهما شخص واحد بالفعل أو أن المؤلف اتخذ اسم شخصيته اسمًا مستعارًا له، أو أن شخصية الرواية استعارت اسم المؤلف، ربما، فى الحقيقة ليس هناك فارق عندى وأرجو ألا يكون هناك فارق لديكم، أنا شخصية قصصية لم أجد أحدًا يبتكرنى فقررت الكتابة عن نفسى وأعتقد أننى أكثر الناس قدرة على التحدث عنى.

ترى هل هى من الأساس روايـة؟.. كل هذه أسئلة مشروعة ولكن الاجابات السهلة لا أفضلها، اختر ما يحلو لك واصنع معتقداتك بنفسك وعلى مسئوليتك وحدك.

أما بالنسبة للعمر فأثناء حدوث هذه القصة كنت فى الخامسة عشرة من عمرى وأعتقد أن هذا هو المهم الآن.

فى هذه المرحلة من عمرى كنت أسكن فى منطقة ما قضيت بها الثمانية عشر عامًا الاولى من عمرى وتسمى حى (البساتين) منطقة تقع بين (المعادى) و(دار السلام) وعدة مناطق أخرى، وفى هذا الوقت كان بها الكثير من الأماكن الهادئة والعشوائيات، سميت (البساتين) بهذا الاسم نظرا لطبيعتها السابقة حيث كانت تسمى في عصر المماليك (بساتين السلطان) وكانت عبارة عن مساحة ضخمة من الأراضى الزراعية التي تنتج كافة أنواع الخضراوات والفواكه، بمرور الزمن سقط اسم (بساتين السلطان) وتحول الاسم إلى (البساتين) فقط.

من أشهر شوارع (البساتين) التجارية هو شارع (مهران) الذى كنت أسكن أنا فى شارع جانبى منه، المسافة بين منزلى والمقابر بعيدة جدًا ولكن من قال إن الاشباح تبالى بالمسافات.

فى هذه المرحلة مررت بالعديد من المفارقات والحكايات التى تستحق أن أحكيها، بالطبع لم تحدث كلها لى ولكنى تعرضت لبعضها وخالطت من تعرضوا لها ونقبت الأرض عن الكثير من الحكايات التى حدثت بها، وبدورى سأحكيها لكم.

وحكايتى هذه المرة عن نوع رهيب من الشرور التى ربما ننكرها ليس لعدم ظهورها أو لعدم الاقتراب منها ولو قليلا، نحن ننكرها من شدة خوفنا منها، قديما كانت جداتنا تتقى ذكر مرض السرطان وتقول عنه المرض الوحش أو المرض الخبيث وكأن مجرد ذكره قد يستدعيه، وكذلك فعلت

(Rowling)[1] فى روايات (هارى بوتر) عندما جعلت الجميع يلقبون (فولدمورت) بالذى لا يجب ذكر اسمه، إنها قوة الكلمة وقوة الاسم.. إنها قوة الخوف والذى يصنع فينا ثقوبا تستجلب الأذى، وكل ثقب بحسب الشر الذى يستدعيه حديثنا عما نخافه، لذلك لا نحب الحديث عن هذا الشر إلا على سبيل الخيال العابر الذى لا يصح أن يكون موجودا.

حديثنا هذه المرة عن السحر وبالتحديد السحر الأسود وقوى الشر، والشياطين.

هل يوجد ما يسمى بالسحر الأسود؟

من السهل نكران مالا نعرفة، الإنكار راحة عقلية، لو فكرت مثلًا أننا نعيش على كرة عالقة فى السماء تدور بسرعة جنونية فى غابة من الكرات الملتهبة والصخور العملاقة، الفكرة مزعجة لو تأملتها لذا يفضل تجاهلها.

أنا لا ألوم على من ينكر القوى الخفية وأنصحه بعدم القراءة عنها إطلاقًا، و إلا سيدرك كم كان فى غاية السذاجة والتفاؤل.

❐❐❐

(١) اسمها «جوان رولينج» وهي كاتبة إنجليزية من مواليد ١٩٦٥ وحاصلة على وسام الشرف البريطاني، ذكرت مجلة فوربس في عام ٢٠٠٤ أن ثروتها تجاوزت المليار دولار، وبذلك تكون أول مليارديرة في العالم من الكاتبات، هى صاحبة سلسلة (هارى بوتر) الأشهر فى تاريخ الأدب حديثًا والتى كتبت مسودتها الأولى عام ١٩٩٥ وصدرت فى عام ١٩٩٧ أول رواية بعنوان هارى بوتر وحجر الفيلسوف وتوالت السبع روايات حتى عام ٢٠٠٧ وتحولت جميعا الى افلام سينيمائية ناجحة.

ما قبل الفصل الأول

الثلاثاء 21 *فبراير* 1905..

خيم الليل على أحد الأحـراش فى غرب إفريقيا وعكست الأوراق العريضة للشجيرات الصغيرة ضوء القمر مما خلط لون الليل الباهت بلون الأشجار الأخضر اللامع، كان الجو باردًا ولكن كثافة الأشجار هدأت من هياج الرياح ولكن يمكن أن تشتم رائحة العشب الصماء مع النسمات الباردة، وبدأت بعض الطيور المجهولة تنعق من آن إلى آخر وكأنها تخبر بعضها البعض شيئًا وترد على بعضها البعض الكلام، وفى وسط الأحراش غير الآمنة وعلى غير العادة كان هناك كوخ كبير من الخشب والخوص وكان على ما بيدو هناك شيء ما يجرى بالداخل هو ما فرض هيبته على المكان فكانت الأحراش تخلو من أى صوت إلا صوت نعيق الطيور المنتظم، فى داخل الكوخ كان هناك رجل انجليزى فى الثلاثين من عمره يرتدى ملابس أرستقراطية كاملة ومعطفا من الصوف الانجليزى الفاخر وقبعة صغيرة، وكان له شارب كث يكاد يخفى فمه،

ولحية خفيفة ولكنها ذات شعيرات طويلة مما أعطاه مظهرًا اكبر من عمره الحقيقى، وعلى النقيض كان معه رجل زنجي لا تستر الملابس سوى منطقة الحوض لديه وباقى الجسد كان عاريًا الإ من أساور غريبة وكثيفة لم تكن تتدلى فقط من حول أطرافه ولكن كان بعضها يخترق جلده من أول أذنيه وشفتيه إلى سرته، وكان جسده يشبه تمثالًا من الجرانيت اللامع مفتول العضلات ولكن بنحافة، على جوانب الكوخ يمكن أن تلمح أربعة أطياف من الدخان الخفيف وكأن تحتها موقدًا خفيا وتكاد تشكل من لحظة إلى أخرى أجسادًا تشبه البشر فى التكوين بخلاف الرأس الذى يتمدد منه ما يشبه قرون الوعل الملتفة أو يمكن أن نسميها شياطين.

كان الرجل الزنجى أمامه إناء كبير من النحاس يغلى وتحته الحطب المستعر، وكان به منقوع زيتى اللون تتناثر منه الفقاعات اللزجة، وكان على طاولة خشبية بالية فى أحد الجوانب عدة صحون بها أشياء مختلفة وإن كان لنا أن تميز بعضها فيمكن لمح آثار بعض العظام المسحوقة وبعض من الكائنات الصغيرة النافقة المعالجة أيضًا بالسحق غير أن بقايا الأجنحة الجلدية يمكن أن تشير إلى وطاويط، أخذ الرجل الزنجى يضيف المساحيق إلى الإناء المغلى ويقلبه بفرع شجر مكسور باهت، أخذ يتلو بصوت عالٍ بعض الكلمات الإفريقية التى يمكن تخيل ترجمتها كالتالى:

- «إلى المارد الشيطان أمير سحرة الجان وحامل كتاب (ماروت) أستدعيك باسمك (يغوث) فى زمان اللظى الشمسى، حيث تأذن لك الشمس بما تحتاج،

وأمنحك التجسد الذى تبغيه لتهيمن على عالم البشر، ولتكن عبدًا لى وفى خدمتى وبك تدين الناس لعتبتى، وبك تعلو على الرقاب رقبتى، ولتأخذ مما جمعت لك من الدماء مبتغاك وأعطنى المجد إلى يوم الفناء الكبير».

وهنا توجه الرجل إلى أحد الأحبال المربوطة فى أعلى جانب الكوخ وفكها لتحرك من الأعلى إناء آخر أصغر حجمًا لتبدأ الدماء الطازجة تنسكب فى بطء على الإناء النحاسى الرابض على الحطب المشتعل والذى بدأ يخرج منه خيط من الدخان وكأن سكب الدماء على خيط الدخان كما لو كان يسقط على شىء صلب ويعطى شكلًا بشريًا وكأنه خفي ويظهره التجسد الذى يقاوم الدماء المنسكبة. شاركت فى التوهج الأطياف الأربعة التى على جوانب الغرفة حتى كادت تميل من اللون الأبيض إلى لون الاشتعال النارى، تراجع الرجل الإنجليزى إلى الخلف وجلس على أحد المقاعد الخشبية وانكمش وقد اختفى وقاره وهو يراقب ذلك التجسد الرهيب.

بدأ الشكل الذى خرج من القدر يتشكل بشرًا من الدماء المسكوبة بداية من قلب ينبض تلتف حوله الأوردة والشرايين وهيكلًا من العظام الرمادية يحمل كتلًا تنمو من النسيج العضلى ببطء، ثم بدأت الطبقة الجلدية تغطى هذا التكوين وبدأ الوجه القبيح فى رسم معالمه، كان وجها يميل إلى الحمرة كثيف الثنيات عند الحاجبين كثيفي الشعر، وله أنف مدبب مغروس فى وجه يميل إلى الطول كمثلث مقلوب ينتهى بالذقن التى تتزين ببعض الشعيرات الرمادية.

ابتسم الرجل الزنجى فظهرت أسنانه الصفراء التى نخر فيها السوس وصنع مخادعه السوداء، ثم انشطر الإناء النحاسى فانسكب محتواه على أرضية الكوخ الطينية فأطفأ الاشتعال عن الحطب وتشربت الأرض السائل المنسكب، وعندها كان يقف على الحطب ذلك الرجل الذى تشكل من الدماء والدخان والذى يمكن تقدير عمره لو اعتبرناه بشريًا بالخمسين وكان ينظر إلى ما حوله فى شموخ وتكبر، ثم أخذ ينظر إلى يديه و يقلبهما أمام ناظريه ثم تحسس وجهه وأمسك خصلات شعره الطويلة نوعًا والفاحمة اللامعة وقربها من أنفه المدبب يتشمم رائحة الحياة فيها.

أحضر الزنجى عباءة بغطاء للرأس كانت معلقة على أحد الجوانب وألقاها على جسد الكائن العارى فتلحفها الكائن الذى اتخذ شكل البشر ليغطى جسده الأبيض الذى تشبع بالحمرة. انتفش الزنجى فى وقفته قائلًا وهو يشير إلى قدميه:

- «الآن لتسجد عند أقدام سيدك الجديد وتدين لى بالولاء والطاعة».

مد الكائن المدعو (يغوث) يده التى بدا لها أظفار حادة نحو عنق الرجل الزنجى فلامست رقبته محدثة بها جرحًا أخذت الدماء الغزيرة تتدفق منه، تراجع الرجل الزنجى للخلف وهو يمسك عنقه ليكبح تدفق الدماء منها وهو مبهوت من الصدمة والالم فى حين قال (يغوث):

- «(يغوث) سيدًا ولا سيد له، إلا طاووس الشياطين سيدنا جميعًا».

ثم اشار إليه فهبت الأطياف الأربعة نحو جسده الذى ترنح على الأرض

ينازع لحظاته الأخيرة وبدت الأطياف المنتصبة تنحنى كشكل ذئاب من الضباب وأخذت تلعق الدم النازف والرجل يتمتم بكلمات بدت كاللعنة التى يلقيها على المدعو (يغوث) والذى اقشعرت قسمات وجهه كما لو كان للكلمات تاثير عليه لم يدركه فى حينها،

ثم التفت إلى الرجل الإنجليزى الذى كان ما يزال منكمشًا فى كرسيه وقد غطى وجهه بيديه استعدادًا للموت وقال له:

- «ومن الفانى؟».

انتفض الرجل وسجد أمامه يقبل قدميه ويقول:

- «أنا خادمك وبين يديك، أنا الداعى إلى عبادتك الضعيف (كرولي)[1] وجئت إلى هنا كى أشهد تجسدك وأعلن ولائى الكامل لك ولـطاووس الشياطين».

أشار له أن ينهض فنهض فى ترقب وعنقه ينبض من الرعب فهز (يغوث) رأسه بما يشبه القبول قائلًا:

---

(١) يوجد ساحر إنجليزي يدعى أليستر كرولي (١٨٧٥م - ١٩٤٧م) وكان ينادي بعبادة الشيطان ففي عام ١٩٠٤ كتب The Book of the Law الذي احتوى كلمة ثيليما باليونانية وعبارة «افعل ما تشاء»، واكتسبت الثيليما مفهومها الواسع كاسم لنظام ديني وفلسفي غامض طور داخله أفكارا تنبع من التنجيمية، وكرس كراولى نفسه للشر وعبادة الشيطان وأنتهى به الأمر إلى مستشفى الأمراض العقلية لمدة ستة أشهر، وقد مات أولاده وزوجاته أصبحن مختلات عقليا مدمنات الخمر حتى الموت.

- «سنرى مدى نفعك».

ثم أشار للجميع بالخروج من الكوخ فتبخرت الأطياف الاربعة بلا أثر مخلفة جثة الزنجى ملقاة على الأرض ترتعد فى نزعها الأخير والدماء تغرق ما حوله، وعندما خرج هو و(كراولى) من الكوخ التفت أليه وأشار بيديه حيث أشتعلت ألسنة اللهب من حول الكوخ لتلتهمه بما فيه دون أن تطال ما حوله من العشب ثم ابتعد (يغوث) وكان خلفه (كرولي) الذى استرق النظر إلى الكوخ المشتعل وابتلع ريقه وخفض رأسه سائرًا خلف سيده الجديد.

❐❐❐

الفصل الأول

حلم إجازة صيف

When you touch me like this، and you hold me like that
I just have to admit that it's all coming back to me
When I touch you like this، and I hold you like that
It's so hard to believe but it's all coming back to me
It's all coming back; it's all coming back to me now[1]

كنت أضطجع على سرير الصغير علي يمين الحجرة الواسعة وتقع على اليسار مكتبتى التى أخذت وضعها المريح على الحائط مكتظة بالكتب التى تخطت الثلاثة آلاف كتاب وأمامى التلفاز على المنضدة الحديدية موصلًا به الفيديو ويعرض بعض الأغنيات التى قمت بتسجيلها من التلفاز واسمعها للاسترخاء والاستجمام، وكانت هذه الأغنيه من اقربهم إلى قلبى حيث ان (سيلين ديون)، كانت مطربتى الأولى فى هذه الفترة

(١) أغنية للمطربة سيلين ديون وهي مغنية بوب كندية حائزة على جائزة غرامي وجائزة جونو، متزوجة من الملياردير الكندي سوري الأصل رينيه انجيليل بدأت الغناء في عقد الثمانينيات بفرنسا، واشتهرت عالميًا في التسعينيات ومن أشهر أغانيها أغنية «My Heart Will Go On» التي سجلتها لفيلم تيتانك في عام ١٩٩٧.

وخاصة بعد الهزة الفنية التى سببها لى فيلم تيتانيك[1] الذى كان أول فيلم سينيمائى أدخله فى السينما وأتذوق سحرها من المؤثرات الصوتية والبصرية وروعة الإنتاج والقصة، كان للفيلم ضجة يستحقها، لولا الإحراج الشبابى الذى سببته وسامة الممثل ليوناردوا دى كابريو[2] لفتيان هذا الجيل فصارت بوستراته تحتل حوائط كل حجرات الفتيات وقتها وسبب لهن حالة من التعالى على جيلنا، وبدأ كل فتى يتحسس خصلات شعره ليكتشف إن كانت تصلح للإطالة لعله يفى بالغر، كنت على أى حال أقوم بشحن بطارياتى المعنوية لاستئناف رحلتى مع الكتابة حيث كنت فى العطلة الصيفية للصف الثانى الثانوى وكنت فى حالة نفسية سيئة حيث حصلت على مجموع ٥٩٪ فى الصف الثانى الثانوى وكان نظام الثانوية العامة بنظام متوسط مجموع العامين الثانى والثالث، وقد كانت هزة عنيفة لى ولأسرتى خاصة أبى الذى كان يضع على عاتقى

(١) تيتانيك (بالإنجليزية: Titanic)، هو فيلم درامي ورومانسي كتبه وأخرجه وشارك بإنتاجه جيمز كاميرون، تناول كارثة غرق السفينة العملاقة تيتانيك في أولى رحلاتها عبر المحيط الأطلنطي، أبطال الفيلم هم ليوناردو ديكابريو وكيت وينسليت، ممثلين شخصيتي جاك دوسن وروز ديويت بوكاتر، وهما من طبقات اجتماعية مختلفة وقعوا في الحب على متن الرحلة الأولى لعام ١٩١٢ لسفينة آر إم إس تايتانك.

(٢) ليوناردو دي كابريو من مواليد (١١ نوفمبر ١٩٧٤)، ممثل أمريكي. والده إيطالي الأصل ومن القادة البارزين في جماعات الهيبيز التي علت سطح المجتمع الأمريكي منتصف الستينات، ووالدته ألمانية وهي من اختارت اسم ليوناردو بعد أن رفس طفلها وهي تشاهد لوحة للفنان الإيطالي ليوناردو دا فينشي. وبعد حملها بفترة قصيرة تم طلاقها من زوجها وعاش ليوناردو مع أمه.

آمالًا عريضة فى تحقيق حلمه بالحصول على شهادة كبرى رغم أنه أفنى عمرة كى يحقق هذه الأمنية، كانت هزة عنيفة لى أيضًا لأننى اعتدت على النجاح بدون مجهود حيث كان شبقى للمعرفة يتعدى المقررات الدراسية ويستخف بها فكان معدل قراءاتى الخارجية أضعافا لا تقارن بالمعرفة التى أتلقاها من المدرسة ولكن تلك هى الحياة، فالأرقام هى التى تصنف الناس وتحدد مصائرهم، وقد كان هذا المجموع لا يبشر لى بخير، حيث يتوجب على الحصول على ١٠٠٪ فى الصف الثالث ليكون مجموع الصفين ٨٠٪ وكان هذا خيالا، وحتى هذا لن يجعلنى التحق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية التى كنت أتمنى دخولها.

أفقت من شرودى وفسدت خلوتى على الباب يطرق، كان أبى الذى صعد للمنزل كى يتحدث معى حديثا اعتدته منه منذ علمت بنتيجتى، حيث كان يذكرنى دائمًا أنى فقدت ٨٢ درجة سأظل أذكرها طول حياتى مالم أصنع المعجزة وأتدارك نفسى فى العام القادم.

دخل أبى إلى حجرتى وكانت هى الحجرة الوحيدة فى المنزل ذات الاثاث.. نسيت أن أخبركم أن هناك الكثير من التحسن فى حياتى قد حدث، فقد قمنا باستجار شقة فى نفس الشارع فى الدور الثانى حيث خرج أبى معاشا مبكرا وقام أيضًا بشراء تاكسى لتسلية تقاعده حيث لم يفتر عن العمل طيلة حياته وكان يرى دائمًا أن التقاعد عن العمل يعجل بنهاية الحياة.

ولأن الأثاث والمعيشة لم يبرحا الشقة القديمة بعد، فقد قمت خلسة بنقل

سريرى ومكتبتى وبعض الأغراض من المنور[1] وأعددت حجرة من الحجرتين الكبيرتين لتكون بديلًا عن المنور كمكان خاص لى، كان أبى قد استأجر الشقة للتوسعة علينا لكن الحنين الحقيقى كان للشقة القديمة التى لم نتركها رغم أنها ليست متسعة وفى الدور الأرضى، كان لشقة الطفولة رائحتها الخاصة فى كل شىء، لا أذكر أننا كنا بحاجة إلى مراوح لا تفتر أو مدفأة من البرد فقد كان هواؤها لطيفا صيفا دافئا شتاء وكانت فى أوقات من طفولتى بابًا لا يغلق وتعج بالجيران والزوار من أقاربنا فى الفيوم، ناهيك عن استيعاب عددنا الكبير ورغم كل ذلك كنا نجد فيها سعة ورحابة.

كان الانتقال للشقة الأخرى صعبا على، وكان مفارقة حجرتى الصغيرة التى تعبت فى بنائها حتى صارت ما صارت عليه ليس باليسير، ولكن التطلع والترقى له الغلبة فى وجدانى، كان الانتقال للحجرة الكبيرة ووجود سريرى بجوار مكتبتى له مذاق جيد، لعل القدر قد بدأ فى الابتسام، لولا نكسة المجموع القليل.

جلس أبى على السرير بجوارى يداعب شاربه الكث الذى زحف اليه المشيب ويتطلع إلى المكتبة الكبيرة ويقول:

- «ماذا تفعل.. لا أخالنى أراك تقرأ فى مكتبتك.. ستضيع أيام الإجازة

(١) كانت حجرتى السابقة عبارة عن منور متر فى متر ونصف قمت بتجهيزه كمكتبة صغيرة لى.

بلا جدوى، أنت لديك مكتبة ليست لدى أحد فى عمرك، تلك المكتبة هى الإرث الذى سأخلفه لك ولأولادك إن شاء الله وانت من المفترض أن تتفرغ للدراسة عند بداية العام الدراسى ولن تجد لها متسعًا من الوقت، لقد خسرت ٨٢ درجة.. لا مناص من تعويضها».

قلت فى محاولة للإلهاء وصرف الانتباه:

- «إن شاء الله أنا لدى نوايا طيبة للعام الدراسى، كنت فقط أقوم بإفراغ ذهنى عله يسعفنى فى مشروع تأليف قصة للأطفال لجائزة أدب الطفل[١] لهذا العام».

هنا تحمس والدى وأفصح عما كان يريد أن يقوله فقال:

- «سبحان الله، لقد كنت أوصل بالتاكسى اليوم فتى لمكتبة البحر الأعظم فى (الجيزة) حيث نزلت وسألت عن التفاصيل وفكرت أن اسجل لك اشتراكا بها، هى تتبع جمعية الرعاية المتكاملة راعية جائزة أدب الطفل».

تحمست للفكرة كثيرًا وقلت:

- «ممتاز ولكن سيكون الطريق طويلا إلى (الجيزة)».

قال متحمسًا:

- «ساقوم بإيصالك بالتاكسى صباحًا ثم أعاود لاصطحابك الساعة الخامسة

(١) جائزة سنوية للكتابة والرسم للاطفال كانت تقام بجمعية الرعاية المتكاملة وبرعاية زوجة الرئيس وقتها (سوزان مبارك)

مساء لنعود معًا، حاول أن تقرأ قدر المستطاع وأن تشارك فى أى أنشطة تقام هناك، أصنع دائرة معارف من حولك ودعك من داء الخجل».

ابتسمت وقد أعجبتنى الفكرة فنهض أبى ليتركنى مع أنشطتى الحالية فقلت له كى لا يظننى نسيت:

- «ان شاء الله سأقوم بالتعويض العام القادم، لا تحزن بسببى أعلم أنك تضع على عاتقى آمالًا كبيرة».

ابتسم ابتسامة مريحة حملتنى المسئولية وقال:

- «إن شاء الله أنا أثق بك».

نزل أبى من الشقة فعاودت الاضطجاع على السرير أستأنف سماع الأغنيات المسجلة وأتخيل نفسى وأنا يتم تكريمى بالفوز بالخمسة الاف جنيه قيمة الجائزة وأبدأ فى مسار حياتى الذى طالما حلمت به كأديب مشهور فى سن صغيرة، ترى ماذا سأشترى بالجائزة؟... بالطبع كمبيوتر وطابعة ملونة أطبع من خلالها الروايات.. سأشترى عدة أطقم من التوكيلات الرياضية الشهيرة لأبدو فاتنًا امامها، من هى؟

إنها فتاة أخرى كانت تركب معى الميكروباص صباحًا إلى مدرستها التى بجوار مدرستى فكنا نسكن فى نفس المكان ومدرستنا فى نفس المكان.. كانت تلاحظنى ولم أكن أنتبه لها فى الحقيقة، إلا فى اليوم الوحيد الذى تحدثت إليها ففتنت بها وكانت أول وآخر مرة أتحدث إليها.

كان يوماً كئيباً عقب امتحان علم النفس الذى كان صدمة بالنسبة لى

وهو سبب قسم ظهرى فى المجموع حيث أننى كنت متميزاً جدًا فى الصف بحسب معلوماتى العامة عنه ورغبتى فى استعراض فهمى السريع لموضوعاته، و إذا بى أجد الامتحان بعيدًا عن أى شىء سمعته فى الصف أو فى الكتاب المدرسى ولم أكن أحضر أى درس خصوصى. كانت الصدمة فى الامتحان الذى نجحت فيه بالمعلومات العامة ولكن بدرجة النجاح بالضبط وكان نظام التحسين قد ألغى على حظى فى هذا العام لتبقى الصدمة بلا تصحيح. حين خرجت من الامتحان لأركب الميكروباص للمنزل وأنا فى حالة ذهول وصدمة، أنتزعنى من الشرود التفاتة فاتنة من فتاة تجلس على المقعد الذى أمامى ولم يكن بالميكروباص سوانا بعد.

كانت هى الفتاة التى اعتدت أن تركب معى مصادفة معظم الأيام إلى المدرسة ولم أكن أنتبه إليها فى الزى المدرسى الذى يجعلنا كالجنود لا تمييز بينهم إلا قليلًا، فإذ بها ترتدى بنطال چينس ثلجى ضيق وتيشيرت أبيض وقد أطلقت العنان لضفائرها فصارت ذات الملامح البريئة كالجواد الجامح.

قالت وهى ترفع ورقة الامتحان:

- «أنت تدرس علم نفس أليس كذلك؟».

قلت بلهجة متفاجئة:

- «أنا.. نعم نعم علم نفس».

ثم صعقتنى بسؤال لن يكون هناك سبب وجيه لعدم الجواب عليه الا النفور أو اللا مبالاة فى حين أنها هى التى تتجاذبنى إلى الحوار:

- «أليس السؤال الثالث الاختيار الصحيح نظرية لومبروزو؟».

كان أسهل وأشهر سؤال بالمنهج وأعتقد أننى كنت طالب الثانوية العامة الوحيد الذى لا يعرف إجابة هذا السؤال ولا أعرف كيف خدعت فى هذه المادة إلى هذا الحد المزرى فقلت لها بصدق:

- «صراحة لست متأكدًا».

طعنت حياءها الذى تحاملت عليه لتحدثنى ولا أظنها ستتوقع أننى لا أعرف بالفعل إجابة السؤال، اعتدلت فى جلستها شاكرة ومحرجة ثم ما لبث الميكروباص أن امتلأ بالركاب.

ظللت طيلة الطريق فى أسوأ حال حتى نزلنا وودعتها بعيونى فى ندم، ثم لم أرها بعد ذلك وظللت فترة طويلة على أمل لقائها مرة أخرى.

أخذت ورقة وقلما وشرعت أكتب لها لعلى أقابلها يومًا فأعطيها إياها قائلا:

الشمس بالنسبة لقرص عينيكِ ظلمة حالكة

الورد بالنسبة لنعومة وجهكِ سلوك شائكة

الندى بالنسبة لرقة همسكِ عواصف مهلكة

ألا تحملين شهادة تقول «تعامل معاملة ملائكة»؟

❐❐❐

استيقظت على صوت أبى مرة أخرى مبكرًا وكان يوقظنى لأجل الذهاب إلى المكتبة، كانت استجابة سريعة للغاية، أستسلمت للصباح الباكر وأبدلت ملابسى سريعًا وركبت معه التاكسى الذى اشتراه حديثًا كى يقضى به فترة تقاعده وكان نوعه (فيات١٣١)، دلفت إليه وتوجهت إلى الكاسيت حيث كان هناك شريط واحد فى السيارة لعبد الحليم حافظ وكنت أحب الاستماع إليه خاصة أغنية (ضى القناديل) وارتبطت فى مخيلتى بالطريق إلى الأمل الذى يحوطه الصعوبات وضعف اليقين.

وصلنا إلى المكتبة التى بعث منظرها الجديد الفاخر إلى نفسى الكثير من التفاؤل والتمنى وانتهيت أنا وأبى من تسجيل العضوية وتركنى مودعًا على أن يعود إلى فى الخامسة مساء.

دخلت إلى الرواق الكبير حيث غابات الكتب والمعرفة تنادينى مثل النداهة فى الحقول المظلمة.

تحيرت مكاناً مريحاً وجانباً وقضيت الكثير من الوقت مستغرقًا فى القراءة وتدوين الملاحظات ثم تنبهت أننى أصبحت أجلس منفردًا حيث كان كل من فى القاعة مجتمعين على مائدة واحدة يناقشهم شاب أكبر سنًا فى موضوع ما.

وبما أننى كنت كائنا ينفر من الاجتماعيات التى تحتاج إلى جرأة وقدرة على الثرثرة فقد انزويت فى مكانى على المنضده أقرأ وحيدًا بصحبة كتابى، كنت فى غاية الحرج فمنظرى كان ملفتا جدًا، كما طلب منى

الشاب الذى يتوسط المائدة أن أشاركهم فأبيت مما جعل الجميع ينظرون لى شذراً وكأننى أتعالى عليهم.

دوت فى أذنى كلمات أبى عندما طلب منى المشاركة فى أى نشاط اجتماعى لعلنى أصنع شبكة معارف جيدة ربما تقربنى من حلمى فى الكتابة، فشعرت بغصة فى نفسى لمخالفة تعليماته، ثم لم تكد تمر نصف ساعة حتى لم أصبح أنا الوحيد الذى تخلف عن المائدة، فها هو شاب ربما تجاوز الثلاثين من عمره بقليل قد اقترب نحوى وجلس بنفس منضدتى، لم أهتم سوى أننى لم أعد الوحيد الذى أنزوى بعيدًا، غير أنه لم يلبث أن نظر إلى كتابى وابتسم، رفعت بصرى عن الكتاب وتطلعت له مبتسمًا.. كان شابًا يافعًا فاتح اللون له شعر بنى غامق يقف لأعلى مثل اليابانيين حليق الوجه ومريح المنظر ويبدو من بيئة مرفهة ويرتدى ملابس كلاسيكية تبدو غالية وتفوح منه رائحة عطرية قاتمة، قال لى وهو يتأمل الكتاب الذى بيدى:

- «ما شاء الله لديك المقدرة وأنت فى هذا العمر أن تقرأ كتابًا بهذا الحجم؟.. ترى أى كتاب هذا؟».

قلت له وقد حاولت التخلص من خجلى وفى محاولة منى لأكون شخصاً اجتماعياً حتى لا يغضب منى طيف أبى لمخالفة توصياته:

- «حول العالم فى ٢٠٠ يوم.. إنه من أوسع الكتب العربية انتشارًا.. أنا لا أقرأ الكتب الضخمة على سبيل التحذلق غير أننى متيم بكتابات (أنيس منصور) ولا أشعر معها بحجم الكتاب مطلقًا».

قال فى إعجاب:

- «تبدو ماهرًا ماشاء الله.. أنا بالكاد أحاول قراءة بضعة أسطر، ما أزال مبتدئا».

قلت له وقد أغلقت الكتاب بعد ما أثنيت الصفحة أستعدادًا لاستمرار الحديث:

- «القراءة مثل القهوة تؤدى إلى الإدمان، جرعة بعد جرعة وسيزداد شغفك وتعطشك».

قال وهو ينظر للمائدة بحرج:

- «أنا بينى وبينك أتيت إلى هنا بنصيحة من طبيب.. لدى بعض من الشوائب النفسية أحاول الخروج منها بمواجهة عالم الكتب.. لست مجنونًا بالمناسبة».

قلت له مبتسمًا:

- «بعد الشر، أنا أفهم الفرق طبعًا.. جميعنا نعب بالمشاكل النفسية وليس جميعنا يطلب العلاج، عفا الله عنا جميعًا.. ولكن خيرًا؟ الكتب مالها بك؟».

ابتسم ابتسامة حزينة وقال:

- «مشكلتى فى تجربة سيئة سببها لى كتاب».

ثم أطرق ببصره فى الفراغ وعاود يقول:

- «لا تشغل بالك.. آسف يبدو أننى قد عطلتك عن الاطلاع بما فيه الكفاية».

هم أن يهرب من الحديث معى ولكن هيهات.. أبعدما أثار فضولى لهذا الحد يريد الهرب دون أن يكمل حكايته لى، قلت له وأنا أحاول جذب عينيه إلى مرة أخرى:

- «لا عطلة، أنا هنا من الصباح الباكر ولم يحن موعد انصرافى بعد.. غريب أن يسبب كتاب ذكرى سيئة، بإمكانك أن تعتبرنى مستمعاً جيداً يمكن الفضفضة معه».

قال معاودًا الهروب:

- «لا تشغل بالك حكاية وذهبت إلى حال سبيلها ولا أظنها ستكون واقعية أو مستساغة، كثير من الناس لا تصدق فى مثل هذه الأمور، وليس طيبًا أن تسمع عن هذه الأشياء فى هذه السن، وهى حكاية طويلة أيضًا».

أستبد بى الفضول أكثر.. ما هى الأشياء التى لا يصدقها الناس وغير المناسبة لسنى؟ إنها ضالتى، لم يعد هناك مفر سيحكى يعنى سيحكى، استخدمت أسلوب المشاركة الوجدانية قائلًا:

- «بالمناسبة أنا أيضًا عندى حكايات لا يصدقها أحد.. أنا مثلًا قابلت مصاص دماء العام الماضى وتقريبًا تصادقنا، لو حكيت لى سأحكى لك بدورى».

ثم قلت وأنا أشير للكتاب الضخم أمامى:

- «وكما ترى لا أمل من الحكايات الطويلة»

ابتسم ابتسامة عريضة ظنًا منه أننى أمزح وقال:

- «ألم أقل لك إنك ماهر ما شاء الله.. لم تخبرنى ما اسمك؟».

قلت وأنا أمد يدى للمصافحة فالتقطها:

- «أنا (أحمد بكر)».

- «تشرفنا يا أبو حميد، وأنا (وليد مكرم)، أين تسكن؟».

قلت مسارعاً حتى لا يهرب:

- «أنا أسكن فى (البساتين)، هيا أخبرنى ماذا حدث لك؟».

- «(البساتين) مرة أخرى».

- «خيرًا، بالطبع لا تعرف عنها غير أنها مدفن الفنان عبد الحليم».

- «لا لم أقصد، أنا فقط كنت بالقرب منها فى حدث لا أحب تذكره».

قلت بشىء من الخجل:

- «افهم الأمر، ربما ودعت بمقابرها عزيزًا».

لم يجب وترقرقت عينه بدمعة خفيفة فعاودت ألاحقه.

- «لتحك لى، التحدث والبوح عن ذكريات تضايقنا يخفف من أثرها ويخرجها من اللاوعى الذى يتحكم فى سلوكنا العفوى إلى رحاب العقل الواعى ومن ثم نتحكم فى تأثيرها على سلوكيتنا».

ابتسم ابتسامة تخالطها قهقهة بسيطة ومال إلى الخلف قائلًا:

«ما هذا الكلام الكبير، أنت لديك إصرار ولباقة تعجبنى ولديك تصميم أن تعرف.. ما رأيك أننى سأحكى لك على أن تعدنى أنك إذا لم تصدق شيئًا فلا تجادلنى فيه واعتبره أمرًا قصصيًا فحسب».

قلت منتشيًا:

«يا سلام... احك وجربنى».

كنت أعلم أن الحكايات ترقد فى الحلق بحثًا عن أقل إثارة للخروج وأن الحديث من الغرائز التى تولد مع الإنسان متمثلة فى البداية على شكل بكاء، ثم ثرثرة لا تنتهى لنهاية العمر، لذا فقد انحنى إلى الأمام يحدق فى الفراغ على المائدة وبدأ يحكى بأسى قائلًا:

«... بدأ الأمر فى أواخر سبتمبر ١٩٨٢ وكنت أسكن فى الحلمية الجديدة فى القاهرة».

❐❐❐

الفصل الثانى

كتاب ولعنة

اقتربت السحابه السوداء من القمر الذى كان بدر منقوصًا مما يعطى شعوراً كريهاً بالنقصان - بعكس الهلال والبدر حيث يشكلان شكلاً كاملًا ومحددًا - وما إن أخفته السحابة حتى أكتسى الليل بسواد كئيب وبرودة شديدة تعرف طريقها مباشرة إلى العظام فصارت ليلة باهتة وكئيبة.

بدأت الكائنات الليلية تنشط والكائنات النهارية تختفى، ولأن الإنسان من الكائنات النهارية ففى هذه الساعة من الليل كان السكون يعم أرجاء المنطقة الهادئة، دقت الساعة لتعلن أنها تمام الثالثة بعد منتصف الليل والمنازل كلها مظلمة أو خافتة الأنوار، عدا منزل واحد يتكون من طابقين يلتف حوله سور قصير ليمنحه بعضاً من الخصوصية جعلته أشبه بفيلا صغيرة، كان منزل الأستاذ (سعيد) مدير وصاحب مدرسة (المنارة الخاصة)، بالداخل كان المنزل خالياً إلا من زوجته (علياء) ما تزال مستيقظة فى انتظار عودته، كانت أربعينية نحيفة شعرها أسود

قصير منسدل على ملامح دقيقة يعتريها الوهن، وترتدى روبا أبيض مزركشا فوق ملابس النوم وكانت تجلس على الأريكة فى ردهة المنزل فى الطابق السفلى منكمشة فى ركنها وقبضتها تساند وجنتها المتعبة كى تمنع رأسها من السقوط حتى لتبدو ككومة من الستائر الحريرية من بعيد، وكان أمامها كاسيت علا صوته بعرض سيموفونى لموتسارت لمقطوعة voi che sapete، لم تكن للمتابعة ولكن كنوع من الإلهاء وقتل الوقت كى لا يعصف بها القلق والوحدة، حيث إن الساعه تتجاوز الثالثة شيئًا فشيئًا وزوجها لم يعد بعد.

وساءت حالتها أكثر بعدما أتصلت بأصدقائه دون أن تعرف عنه أى خبر، إن الصباح هو أول أيام العام الدراسى ولا يمكنه أن يتغيب إلى هذه الساعة فى هذا الفجر بالتحديد وهو مدير وصاحب المدرسة، راودها شعور بالرهبة والعجز، ترى هل تبدأ مرحلة الخروج للبحث عنه؟.. ولكن فى هذه الساعة صعب طبعًا خاصة وأنها من الممكن أن تخرج هى فيعود ولا يجدها وتدور دائرة مفزعة من القلق المتبادل .... هل تتصل بأصدقائه مرة أخرى؟.. لو وصل إلى أحدهم خبرًا لكان طمأنها وربما معاودة اتصالها فى هذه الساعة سيثير القلق حقًا.. المستشفيات والأقسام؟.. لا لا هذا خيار أخير فلا يصح أن تصنع زوبعة قد تكون بلا سبب وتسبب الحرج وفقط، كما أن التفكير فى هذا الاتجاه سيكون له أثر سئ.. الصبر فهو على وصول إن شاء الله.

لم يكن لـ (سعيد) أصدقاء تقريبًا فكل علاقاته سطحية ومن الصعب

أن تجده يشرك أحدًا فى أموره حتى يصل به الأمر للمكوث لهذه الساعة المتأخرة مع أحدهم، فهو شخص محافظ ومنظم جدًا يمكن توقع جدوله ومساراته بسهولة، ترى ما الذى أخره إلى هذه الساعة، بالإضافة إلى خروجه المفاجئ دون توضيح للسبب أو المكان. نهضت من على الأريكة وصعدت إلى حجرة مكتبه بالدور العلوى وأخذت تفتش فى جميع أغراضه بحثًا عن اى شىء ربما يهديها إلى مكان وجوده، تلقفت مفكرة الهاتف خاصته، فتحتها وأخذت تطالع الأرقام المكتوبة والاسماء التى لم تكن قد اتصلت بها بعد، اقتربت من الهاتف الذى فوق مكتبه ممسكة بسماعته متناسية أن الوقت يقترب من الفجر وبدأت تطلب أول رقم لشخص لا تعرفه، ثم عاودت سماعة الهاتف إلى مكانها ونظرت بقلق نحو الباب، لقد سمعت صوت محرك سياره يقترب، اندفعت متلهفة إلى النافذه ولكن محرك السيارة صمت ولا توجد سيارة قد اقتربت من المنزل، يبدو أنها سيارة أحد الجيران .... هل تخرج لتستنجد به؟ إنها سيدة وحيدة وليس لها أحد وولدها الوحيد مسافر ومؤكد سيلتمس لها العذر كما أن (سعيد) معروف فى الحى، ولكن ماذا عساها تقول؟ أن زوجها تائه، عادت آسفة إلى محاولتها الفاشلة مع التليفون ثم سمعت أصواتاً بسيطة لكن يمكن تمييزها فى هذا السكون الرهيب وتضخيمها وسط هذا القلق الفظيع، صوت تأوه شق سمعها، صوت تعرفه تمام المعرفة صوت (سعيد) زوجها، اقتربت من نافذة المكتب التى كانت مغلقا زجاجها ولكن مفتوح الشيش، فلمحت شبحًا يمشى زحفًا من بعيد يعرج بقدمه نفس

عرجة زوجها التى سببها له حادث قديم، انطلقت بلا هوادة إلى الباب تجرى ثم إلى الشارع. على امتداد بصرها كان هناك، كان (سعيد) يجر نفسه من جانب السيارة التى تركها بعيدًا عن المنزل وهو يتأوه والدماء الطازجة تلمع على شعره القصير ووجنته الخمرية المنحوتة وقميصه الزهرى ممزق وملطخ بالدماء والطين والخمشات تنتشر فى كل أجزاء جسده على نحو فظيع.

صرخت باسمه غير أن أحدًا لم يكن مستيقظًا ليسمع صوتها الضعيف الذى بح مع الصرخة اندفعت إليه لتضع كتفها تحت ذراعه لتسانده وهى تبكى حتى أدخلته المنزل وأغلقت الباب، أرقدته على الأريكه وهى منهارة من البكاء ولا تدرى ماذا هى فاعله، ثم نهضت منطلقة إلى المطبخ لتحضر له شيئا لتضمد له جراحه الرهيبة والتى تنم عن أن حيواناً بشعاً قد افترسه إلا قليلًا، توقفت فى منتصف المسافة عائدة إليه مرة أخرى عندما تمتم باسمها بصعوبه، انكفأت بجواره على الأريكة وقد أفعمها البكاء، تمالك نفسه وقال لها:

«ليس لدينا متسع من الوقت... يوجد كتاب قديم وكأنه من الجلد بلغة كاللاتينية وبه رموزكثيرة .... كح كح ..ستجدينه فى دولاب خفى داخل الدولاب الصغير فى مكتبى بالمدرسة، من الآن أنا أمنحه لكِ و يرثه من بعدك ولدنا... أخفيه حيث لا يصل له أحد ولن يقدر أن ينتزعه منك أحد، ثم اتركى البلاد فورًا وسافرى إلى (عماد) ولدنا، دعيه يعتنى بك وبنفسه وسامحونى أن ورثتكم هذا الإرث الذى حملته دون رغبتى».

ثم لفظ أنفاسه الأخيرة على صدرها، ضمت رأسه إلى صدرها بقوة حتى تلطخت ملابسها بدمائه وهى تبكى بكاء يخالطه صراخ مبحوح، مضت حوالى ربع ساعه تقريبًا وهى تبكى وتضمه إلى صدرها حتى أفاقت على صوت ساعة الحائط لتعلن أنها الرابعة.. ثم تذكرت آخر كلماته ترى، هل هو وقت الاتصال بالشرطة والأهل أم أن هناك خطراً كبيراً يجب أن تسمع فيه لكلمات زوجها؟.. يجب أن تغادر المنزل على أى حال، أسندت رأسه على وساده الأريكة وأخذت مفتاح السيارة من جيبه... ارتدت ملابس سريعة للخروج وخرجت دون أن ترد الباب مسرعة إلى السيارة تتلفت يمينًا ويسارًا.

لفحها الهواء الشديد وسرت فى جسدها قشعريرة باردة... اتجهت نحو السيارة وفتحتها وجلست ثم أغلقت النوافذ كلها، كل هذا وهى تبكى بكاء خفيضا ثم بدأت تسترجع كيف كان زوجها يقود السيارة التى لم تحاول تعلمها، وعلى حين كانت تتلفت يمينًا ويسارًا فإذا بها تلمح فى الظلام رجلا قبيح الهيئه لا يظهر من ملامحه إلا السواد والظلال، وبجانبه حيوان يشبه الذئب محنى الظهر حيث تطول قائمتا الخلفيتان كثيرًا عن الأماميتين، خرجت صرختها مكتومة من زجاج السياره المغلق حينما أطلقه الرجل باتجاهها، أخذت تحاول تشغيل محرك السيارة بيدها المرتعشة دون جدوى والذئب ينطلق نحوها ثم قفز على الأرض حينما كانت السيارة قد انطلقت مسرعة. وعلى حين انطلق الذئب العملاق فى أثرها بسرعة خرافية والشدق يسيل من فمه الفاغر تقدم الرجل

المتشح بالسواد من باب الشقة الذى كان مفتوحًا... ثم دخل المنزل، تقدم من جسد (سعيد) الملقى على الأريكه فى سبات أبدى وعرف أنه فارق الحياه عندما تلمس عنقة الملطخ بالدماء، نظر لجسده نظرة حقد ثم غادر الشقة. انطلق يعدو بسرعة لا تناسب سنه الكبير إلى أن وصل إلى السيارة والتى كانت منقلبة على جانبها وكان الذئب العملاق يقف فوقها باحثًا عن فتحة كى يلتهم الجسد الموجود بالداخل، عاد الذئب إلى سيده فى وداعة بمجرد أن أشار له ثم مد الرجل وجهه إلى الأمام على جانبى الطريق فرأى مدرسة (المنار الخاصة) ابتسم ابتسامة كريهة ثم عاد إلى المنزل مرة أخرى، حمل جسد (سعيد) على كتفه وأشار بأصابعه فتبخرت الدماء التى كانت قد لطخت الأريكة. أغلق الباب ثم توجه به نحو السيارة التى لم تبعد كثيرًا عن المنزل وأخرج من طيات ملابسه قضيبا من المعدن يشبه الصولجان الملكى وكسر به زجاج السيارة التى كانت بداخلها (علياء) غارقه فى الدماء وفتح الباب الذى كان بأتجاه الأعلى ووضع جثة (سعيد) ليبدو الأمر كما لو كان حادث سير وأغلق الباب ثم غاب عن السيارة وأبتلعه الظلام يتبعه الذئب العملاق.

❐❐❐

أشرقت شمس الصباح الدافئة على صيحات آلاف المنبهات بشكل يفوق أى يوم، فهذا هو أول أيام العام الدراسى الجديد. دنت (فريدة) والدة (وليد) من سريره لتوقظه ليلحق بجحافل الطلبة النازحين فى أول أيام العام الدراسى وقد كان نشيطًا ومستعدًا لهذا اليوم، كان فى بدايه العام للصف

الثانى الثانوى فى المدرسة التى كان بها منذ مهده فى المرحلة الابتدائية، لقد أصبح على أعتاب الرجولة أخيرًا، وقف أمام المرآه يحاول تصفيف شعره للخلف كى يكسبه مظهرًا شابًا، وشعره معاند، كان يريد أن يودع مرحلة الطفولة تمامًا وكان يستفزه أن لايستجيب شعره وأخذ يغرقه فى كريمات ويربت عليه، أخذ يتأمل شاربه الذى بدأ يخط لونًا داكنًا غير محبب، فلا هو شارب ليترك ولا يجوز له فى هذه السن أن يحلقه، دائمًا ما تكون هذه المرحلة العمرية جائرة على الفتيان فتنتفخ أنوفهم بشكل مفاجئ وترتع البثور فى وجوههم تمرح من رقعة إلى أخرى على الوجنات والجبهة، ويزينها هذا الشارب الباهت لتكتمل المعزوفة، وبقدر ما تقسو الطبيعة وهرموناتها على الفتيان على قدر ما تحنو على الفتيات فتكتمل وتنضج الأنوثة بمقوماتها وفتنتها، قطع على (وليد) شروده صوت أبيه يعجل من أمره كى يأخذه معه فى طريقه إلى العمل - بالرغم من أن المدرسة لا تبعد عن المنزل سوى مسافة بسيطة يمكن قطعها مشيًا- إلا أنها كانت زهوة اليوم الاول، أتم ملابسه وذهب بصحبة والده إلى المدرسة (مدرسة المنار الخاصة)، نزل من سيارة والده إلى رواق المدرسة، إزدادت ضربات قلبه وتباطأت خطوات قدمه كلما اقترب من الفناء استعدادًا لطابور الصباح ...لم يكن خفقان القلب لأنه يكره المدرسة على العكس فهو ذكى ومجتهد ويحظى بحب واحترام كل أساتذته ولكنه سيقابل (ألين)، وهى كما يصفها (وليد) ريحانة من فلسطين، هى فتاه تعرف عليها فى العام السابق تكبره بعام أو أقل لكنها معه فى نفس الصف، تقيم مع

والدتها وأخيها الصغير بمصر ووالدها يعمل بالتجارة فى سوريا وكانت تسكن بالقرب من منزل (وليد) لكنه لايراها فى عطلة نهاية العام إلا مصادفة فلا يحدث بينهما إلا ابتسامه متبادلة، فترة الدراسة هى المكان الوحيد الذى يجدان فيه متسعًا للقاء والكلام... لقد كان يعشق لهجتها وكان يدعى فهمه للقضايا التى تتحدث عنها - برغم عدم فهمه لها- حيث كان والدها من شهور محاصرًا فى (سوريا) التى كانت تعانى اضطرابا لم يكن يستوعبه فى بلدة (حماة)[1]، كانت منفعلة جدًا للصراع العربى الإسرائيلى فى حين لم يكن (وليد) يعرف سوى أننا أنتصرنا على إسرائيل وأن الأمر انتهى تماماً فى ابريل الماضى بانسحاب آخر جندى إسرائيلى من سيناء، كانت (ألين) رقيقة الملامح ومرسومة الحاجبين، منحوته الوجنتين اللتين تشوبهما حمرة وردية، كانت أعقد من أن تحفظ ملامحها بسهولة وأبسط من أن تنسى ابتسامتها، باختصار كانت قصيده تمشى على

(١) أحداث مجزرة حماة ٢ فبراير عام ١٩٨٢ دامت المجزرة ٢٧ يومًا بدءًا من ٢ شباط/ فبراير هي أوسع حملة عسكرية شنها النظام السوري ضد الإخوان المسلمين في حينه, وسقط ضحية هذه العملية الأمنية العسكرية وفق مختلف التقديرات ما بين ألف قتيل حسب التقارير الدبلوماسية في حينها الى ٤٠ ألف قتيل وفق تقديرات اللجنة السورية لحقوق الإنسان. وهدمت أحياء بكاملها على رؤوس أصحابها كما هدم ٨٨ مسجدًا وثلاث كنائس، فيما هاجر عشرات الآلاف من سكّان المدينة هربًا من القتل والذّبح والتنكيل حيث قام النظام السوري بتطويق مدينة حماة وقصفها بالمدفعية ومن ثم اجتياحها عسكريًا, وارتكاب مجزرة مروعة كان ضحيتها عشرات الآلاف من المدنيين من أهالي المدينة وكان قائد تلك الحملة العقيد رفعت الأسد شقيق الرئيس حافظ الأسد

الأرض. وصل (وليد) إلى فناء المدرسة بالفعل فى انتظار الطابور، ترى كيف غيرت الأشهر الماضية فى ملامحها، أخذ يترقب وصولها وهو يضع يديه من حين لآخر ليتأكد أن شعره مازال مصففا للخلف وأن ملابسه فى أتم حال و يصافح من حين لآخر أحد أصدقائه.. بدأت أعمال طابور الصباح و(وليد) فى واد آخر، حتى لفت انتباهه أن صمتاً عجيباً قد عم أرجاء المدرسة، انتفض من شروده وسأل زميله عما يجرى بصوت أحمق مسموع فوكزه زميله، وقال بصوت خافت:

«دقيقه حدادًا، أستاذ (سعيد) المدير مات فجر اليوم».

نظر له المدرس الواقف أمام الطابور بغضب فطأطأ (وليد) وزميله رأسيهما، انتهى الحداد... ووصلت (ألين)، كانت قد تغيرت بحق فبرغم قصة شعرها البنى الذى ينسدل على جانبى وجهها بكثافة وتناسق كما كان، وبرغم ملامحها الدقيقة النقية التى لم تتغير، إلا أن بياضها شابه حمرة العنفوان وصارت ناضجة برغم قامتها القصيرة.

صافحها (وليد) مبتسمًا بانفعال قابلته (ألين) بابتسامة هادئة يشوبها الحزن وهزة رأس رقيقة رقص على أثرها جانبا شعرها بخفة، استكملا معًا طابور الصباح وتدفق الطلبة على الفصول، صعد (وليد) الفصل قبلها وجلس فى مقعده ينتظر قدومها و يؤكد على ما أعده من كلمات وظهرت (ألين) وجلست فى صف الفتيات الذى كان قريبا من صف الفتيان والذى جلس على طرفه (وليد) ليكون بقربها ثم مال عليها، وقال هامساً:

- «صباح الخير».

ردت بفتور وتجهم لم يتوقعه:

- «صباح النور».

رد فى توجس:

- «خيرًا، مالى أراكِ وقد تملك التجهم أمركِ؟».

قالت باندفاع يخالطة نحيب:

- «لقد توفى والدى الأسبوع الماضى».

صدم (وليد) من الخبر السئ والبدايات الصعبة التى استهل بها العام الجديد فقال معاجلًا:

- «رحمة الله عليه وألهمكم الصبر والثبات».

قالت معقبة:

- «قتله معدومو الإنسانية والخونة».

صدم (وليد) مجددًا وجحظت عيناه:

- «قتل، لا حول ولا قوة الا بالله، كيف هذا؟».

بدأت ترقرق عيونها بالدمع وقالت:

- «كان قد تمكن من الهرب من سوريا بعدما قام (رفعت الأسد) فى شباط الماضى بدك بلدة (حماة) وأسقط آلاف الشهداء ودمر البلد على من فيها، نزح

مع الآلاف من الجحيم واستقر إلى (لبنان) وكانت الأخرى على موعد مع الحرب والحصار الإسرائيلي[1] في (حزيران)، والذى نجا من نيران الاجتياح الإسرائيلي، يلقى الله مذبوحًا في مخيم (صابرا وشاتيلا)[2] بيد عربية.

انتفض عنق (وليد) من هول ما يحدث في العالم العربي القريب ولا يدرى عنه شيئاً ومن المأساة التى يسمعها ثم سحبه من شروده حينما باغتته يد وضعت على كتفه وكانت يد أستاذ (عصام) وكيل المدرسة، وهو أكثر من في المدرسة ودًا مع (وليد) وبينهما علاقة طيبة متبادلة، كان يجره من ذراعة غير مكترث لحوار كان فيما يبدو بينه وبين زميلته، وهو يقول:

(١) في ١٣ يونيو قامت القوات الإسرائيلية ومليشيا بشير الجميل بمحاصرة بيروت، واستمر هذا الحصار إلى ٢٨ أغسطس. طوال فترة الحصار قامت القوات الإسرائيلية بقصف بيروت من البر باستعمال المدفعية ومن الجو والبحر. تم تسوية معظم المدينة بالأرض، قتل أكثر من ٣٠,٠٠٠ مدني لبناني وأصيب أكثر من ٤٠,٠٠٠ شخص، أكثر من نصف مليون شخص نزحوا عن بيروت وفي فترة الستة وسبعين يوما استمرت إسرائيل بمنع المعونات الدولية والإنسانية عن المدينة.

(٢) في مساء ١٦ سبتمبر، قامت القوات الإسرائيلية بمحاصرة مخيمات صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين، وسمحت بدخول حوالي ٣٥٠ عنصراً من المجموعات الانعزالية المتمثلة بحزب الكتائب اللبناني وجيش لبنان الجنوبي إلى المخيمات تحت ذريعة البحث عن مقاتلين فلسطينيين. تم ذبح ما يقارب ٣٠٠٠ مدني أعزل بالرغم من التعهدات الأمريكية بحماية المدنيين الفلسطينيين بعد خروج المقاتلين الفلسطينيين من لبنان، كانت رد فعل على اغتيال الرئيس المنتخب بشير الجميل وقامت القوات الانعزالية بالدخول إلى المخيم وبدأت بدم بارد تنفيذ المجزرة التي هزت العالم ودونما رحمة وبعيداً عن الإعلام وكانت قد استخدمت الأسلحة البيضاء وغيرها في عمليات التصفية لسكان المخيم العزل وكانت مهمة الجيش الإسرائيلي محاصرة المخيم و إنارته ليلا بالقنابل المضيئة.

- «(وليد) أريدك فى مكتبى لأمر مهم».

كان (وليد) راسخًا فى مكانه ينظر إلى دموع (ألين) بجحوظ وأغلق عينيه حينما تبخرت الكلمات التى من الممكن إن يرد أو يواسى بها ثم استسلم له ذهابًا إلى مكتبه القريب من الفصل.

فى مكتب الوكيل وبعد حديث سريع عن تحمل المسؤلية والنضوج طلب من (وليد) أن يكون أمين المكتبة، انعقد حاجبا (وليد)... إنه منذ دخل هذه المدرسة لم يكن بها مكتبة، أدرك (عصام) الحيرة التى ارتسمت على وجه (وليد) فأردف قائلًا:

- «لقد فكرت كصدقة على روح أستاذ (سعيد) رحمة الله عليه أن أجعل مكتبته الخاصة التى فى مكتبه فى المدرسة مكتبة عامة للطلبة واستأذنت من أخت الأستاذ (سعيد) رحمه الله ووافقت، وفكرت أن أفضل من يمكن أن يكون أمين المكتبة هو أنت».

❐❐❐

ظل (وليد) وبعض زملائه يحملون الكتب من مكتب المدير بالمبنى القديم إلى حجرة جديدة فى المبنى الآخر.

كان الطلاب يسعلون بشدة من الأدخنه أو الأتربة الكثيفه التى تتصاعد من الكتب القديمة العملاقة وكان (وليد) يحدث نفسه.. من من الطلاب سيمسك كتاباً بهذه السماكة والتعقيد ليطالعه.. ليست فكرة جيدة على الإطلاق.

وبعد عناء شديد وبعد ما انتهى كل شيء دخل الطلاب يغسلون أيديهم بسرعة وهربوا إلى فصولهم.

كان (وليد) يمشى مترنحًا من شدة الأتربة واستعد ليذهب إلى دورة المياه ليغسل يديه ويدرك ما تبقى من اليوم الدراسى حتى قطع عليه (عصام) الطريق، نظر إليه (وليد) بعين أجهدتها الأتربة لم تميز سوى ابتسامته العريضة الباهتة والذى بادره قائلًا وهو يناوله مجموعة من المفاتيح:

- «هذه مجموعة المفاتيح الاحتياطية، جربها لفتح الدولاب الصغير وأخرج آخر مجموعة من الكتب موجودة فيه، جهد طيب يا (وليد)».

تناول (وليد) المفتاح من المشرف ورد عليه الابتسامة بأكثر منها بهوتًا وهو يتأمل ملابسه الجديدة التى أفسد رونقها الأتربة ووضع يده على شعره الذى عاود الأنسدال للأمام فمسح عليه للأمام بعنف وصعد للمبنى مرة أخرى، كان الدولاب بواجهة زجاجية به بعض الكتب فتناول المفاتيح وأخذ يجرب واحدًا تلو الآخر وهو يفكر فى اليوم الذى كان ينتظره بآمال عريضة والذى بدأ فجره بوفاة مدير المدرسه وبدأ حديثه مع (ألين) بوفاة والدها ثم ختامه سحب الغبار وعتالة الكتب. عندما انتهى من تجربة ما يربو على خمسة عشر مفتاحاً لم يوفق فى أحدها وكان عليه للتأكد أن يعيد الكرة مرة أخرى، ثم سقطت منه سلسلة المفاتيح على الأرض وبرد فعل غاضب عفوى ركلها بقدمه فتدحرجت إلى أسفل الدولاب، نزل على ركبته ومد يده أسفله كى يحاول الوصول لها دون

جدوى، ثم قرر أن يقوم بزحزحة الدولاب ليحصل على المفاتيح، كان الدولاب ثقيلاً للغاية ولكن بعد جهد استطاع تحريكه قليلًا وقد بدا أن شيئاً ما كان يلصقه بالحائط ويبدو أنه تحطم بفعل التحريك.

نظر (وليد) إلى القطعة الخشبية التى كانت بين الدولاب والحائط والتى أنفسخت وغطى وجهه من البؤس ثم تبين له أن ما خلف القطعة الخشبية فتحة فى الجدار وكأنه رف سحرى خلف الدولاب.

تقدم منه بحذر ومد يده وكان فى الرف كيس بلاستيك أسود يبدو أنه يحوى كتاباً، استطاع بالفعل إخراجه ومسح الأتربة من عليه ونظر فى الكيس فكان كتابًا قديمًا وكأن أوراقه من الجلد، وشعر بخدر غريب عندما لمس أوراقه وفتحه ليجده ممتلئا برسوم لا تخطئها العين تشبه رسوم السحرة حتى إنه شعر أن الكتابة ظهرت بعدما فتح بلحظات وبدت كنقش بارز، سمع وقع أقدام فدس الكتاب فى طيات قميصه وألتقط المفاتيح ثم أزاح الدولاب إلى وضعه السابق وكان المشرف بالفعل هو من بالباب، توجه (وليد) إلى معطفه الذى كان قد خلعه ووضعه على أحد المقاعد ليلبسه كى يخفى بروز الكتاب فى قميصه.

قال له المشرف عندما رآه يرتدى معطفه:

- «وكأنك انتهيت، ما الأخبار؟».

قال له (وليد) وهو يناوله المفاتيح ويبدو عليه الاضطراب:

- «أظن أن المفاتيح غير مناسبة، وأرجو أن تأذن لى بالانصراف للمنزل لأننى بدأت أشعر بالاضطراب والتعب».

ربت الوكيل على كتفه وقال:

- «لا بأس عليك وأعذرنى لو كنت أتعبتك، إنها صدقة طيبة وعمل من أفضل الأعمال أن تسهم فى نشر المعرفة وأنا أحببت أن أشاركك فيه».

ابتسم له (وليد) وبدا أنه بالفعل بدأ يصاب بالدوار فقال له (عصام):

- «هل تحب أن يراك طبيب المدرسه؟ حسنًا سأصطحبك إلى العيادة للاطمئنان عليك، لا تبدو على ما يرام بالفعل».

انتفض (وليد) منتصبًا كأنه لا يعانى شيئاً وقائلاً:

- «أنا بخير، ربما أحتاج للعودة إلى المنزل فقد تملكنى الإرهاق فحسب، أتأذن لى بالعودة؟».

قال (عصام) بود:

- «لو كنت تثق أنك لا تحتاج مساعدة، حسنًا يمكنك العودة».

خرج (وليد) من المدرسة يعدو إلى المنزل ليراجع غنيمته.

❐❐❐

وصل (وليد) للمنزل وفتح الباب بالمفتاح الذى معه وتوجه إلى حجرته

مباشره ثم جلس على مكتبه وأخرج الكتاب وبدأ يتفحصه، كان الكتاب ملئاً بالرموز والكتابات الغريبة وكأنها رموز الأحجبة والسحرة، وكان مصنوعاً من أوراق غريبة تشبه الجلود والكتابة فيها وكأنها حفر أو لسع بالنار على جلد حى، هل كان أستاذ (سعيد) يعمل بالسحر؟ ترى هل من التصرف السليم أن يأخذ الكتاب هكذا دون أن يعرف أحد؟ وبينما هو فى شروده سمع أحدًا يعبث فى رتاج الباب فوضع الكتاب داخل الكيس الأسود مسرعًا وكان أمامه والدته.

ابتلع ريقه وهو ينظر إلى والدته فى توجس قائلًا:

- «أمى... ألم تذهبى للعمل اليوم؟».

قالت الام مستنكرة:

- «ومنذ متى وأنا أذهب للعمل فى أول أيامك فى العام الدراسى؟ ولكن لما حضرت مبكرًا؟ وما هذا الذى تحمله فى الكيس الأسود؟».

❐❐❐

فى مكتب مدير المدرسة كانت (صفية) شقيقه (سعيد) هى التى تدير المدرسه فى أول يوم لغياب الزوجين، وكانت سيدة أربعينية ترتدى ملابس فضفاضة وتغطى رأسها بحجاب قصير وملامح ممتلئة قليلًا، بها مسحة من الطيبة، وكان يجلس أمامها رجل أربعينى انحسر الشعر الأسود عن مقدمة رأسه بملامح غليظة، ولغد منتفخ وشارب مهمل وجسد تغلفه

السمنة بشكل كروى فى البطن ويرتدى حلة رمادية اللون تبدو غير متناسقة عليه ويجلس متصنعاً الأسى قائلًا:

- «أنا صديق عزيز جدًا للمرحوم وزوجته عليهما رحمة الله».

قالت السيده(صفية) مستنكرة:

«عليهما.. (علياء) فى المستشفى شفاها الله».

تغيرت ملامح الرجل فجأة ومسح على شاربه بإصبعه ثم عاود يتصنع الأسى قائلًا:

- «الحمد لله لنجاتها.. أنا آسف هذا ما سمعته.. من فضلك اكتبى لى عنوان المستشفى لأزورها هذا واجب لا يمكن تفويته».

كتبت (صفية) عنوان المستشفى له فى ورقة فالتقتها وعاود يقول:

- «أنا (عبد المريد) زميل أستاذ (سعيد) رحمه الله منذ كان أستاذًا بالجامعه وكنت قد أعرته بعض الكتب كانت موضوع بحث خاص بى لتحقيق التراث وأردت أن أستشيره بشأنها.. أنا الأن أحتاجها بشدة وأعتذر لطلبى هذا فى مثل هذه الظروف لأنى مسافر خلال هذا الأسبوع».

قالت (صفية) وهى تقلب بصرها فى الرجل الذى لا يبدو عليه أنه شخص أكاديمى:

- «أنا لا أدرى حقًا ولا أستطيع التصرف فى أمر كهذا ولكن ولده (عماد) سيصل مصر غدًا ربما أمكنه مساعدتك».

امتقع وجه الرجل عندما قالت له ذلك ثم قال فى سره:

- «إن غدًا لناظره لقريب، وما دام الوريث سيحضر غدًا فيجب أن يمنح بنفسه، أستأذن بالانصراف».

انصرف الرجل وهو يراجع أفكاره ويجز على شفتيه.

❐❐❐

اكتسى وجه (وليد) بحمرة شديدة حينما شاهدت والدته الكتاب، فغلفه بالكيس بإحكام، وقال بتلعثم:

- «إنه كتاب أعطاه لى أستاذ (عصام) وكيل المدرسة حتى لا يختلط بكتب المدرسة لأنه يخص الأستاذ (سعيد)، إلى أن يطلبه مرة أخرى فهو كتاب عتيق ومهم».

مطت الأم شفتيها من الرواية غير المنطقية وقالت:

- «حسنًا ما دمت تخشى على الكتاب هكذا فمن الأفضل أن أضعه لك عندى فى دولابى حتى تعيده لأستاذ (عصام)».

ثم مدت الأم يدها لتتناول الكتاب فابتلع (وليد) ريقه ثم فتح أحد الأدراج وأخرج بكرة لاصقة وأخذ يلف بها حول الكيس بسرعة حتى أصبح يشبه الطرد المغلق مجهول المحتوى وهو يبتسم لوالدته قائلًا:

- «حتى لا يفسد لأى سبب، انها مسؤلية كما تعرفين».

قالت الأم وهى تأخذ الكتاب المهيب داخل لفافته:

- «طبعًا وأرجو أن تكون على قدر المسئولية».

❐❐❐

جن الليل وأرخى سدوله على القبور فى منطقة مقابر الإمام الشافعى فى مستهل حى (البساتين) ورسمت الأرض ظلالًا متوازية لشواهد القبور على الأرض فبدت كما لو كانت تقف فى صفوف منتظمة للتعبد فى صمت.

كانت المنطقة تسمى القرافة، بالنطق العامى (الأرافة) كانت تسمى أيضًا قرافة الفسطاط، وهى منطقة مدافن إسلامية تاريخية فى جنوب القاهرة تحت جبل المقطم تضم مقابر وأضرحة وقباباً أثرية تعتبر تحفاً فنية فريدة، تقول إحدى الروايات إن المقوقس قال لعمرو بن العاص بعد ما غزا مصر إن المنطقه ما بين جبل المقطم والفسطاط يخرج فيها شجر من الجنة، فلما نقل ذلك للخليفة عمر بن الخطاب قال له أن يحولها إلى مدافن للمسلمين، فدفن فيها عدد من المسلمين، ويقال إن أول من دفن فيها كان رجلا اسمه (عامر) ويقول المقريزى إن المدافن سميت قرافة نسبه لقبيله يمنية من المغافر اسمها بنو قرافة ثم تحولت المنطقة لمساكن يسكن فيها الناس وحوت سوق الجمعة الشهير للأشياء المستعملة أو ربما المسروقة، وتحدث بها أنشطة اجتماعية ومزارات خاصة فى الأعياد والمواسم حيث يحرص أهل الموتى على قضاء العيد مع أحبائهم الذين رحلوا حتى قيل فى ذلك شعرًا:

- «إن القرافة قد حوت ضدين من .:. دنيا وأخرى فهى نعم المنزل».

فى تخوم المقابر الأسرية توجد أحواش كبيرة لمقابر عائلات ثرية ومشاهير حولها الخفراء مع الزمن لمساكن خاصة ولكن بعضها بقى دون سكان رغم أن المكان مستباح لمن يريد، والسبب مجهول، ولكن يمكن أن تعرف الأحواش المسكونة فى بعض الليالى المحددة عندما تجد طبقاً من الصفيح أمام الحوش به رغيف من الخبز العفن.

فى جنح الظلام هل ثلاثة أشباح لرجل بدين يرتدى قميصاً وبنطالاً واثنين نحيفين طويلي القامة يرتدون الجلباب والعمامة وسرعان ما كشف الضوء اليسير عن وجه المدعو (عبد المريد) يهمس إلى الرجلين، ثم لمح من بعيد ولدين عليهما إمارات التشرد فى حوالى الثامنة من العمر يتنازعان فيما بينهما كيسًا به بعض الكعك والفطائر واليوسفى التى توزع رحمة على الأموات من ذويهم، ارتجف الطفلان عندما لمحا الرجال وهما بالهرب فأشار (عبد المريد) لأحد الرجال فاندفع يمسك بالطفلين من مجمع ملابسهما البالية. بدأ الطفلان على حافة الصراخ والبكاء يحاولان التملص فطمأنهما قائلًا:

- «لا تخافا يا صغيرىّ، لا بأس هل ترغبان فى مزيد من الفطائر واليوسفى؟ لدينا الكثير نريد توزيعه، من أى عائلة أنتما من الجوار؟».

رد أحد الاطفال قائلًا:

- «نحن لسنا من هنا، نحن من منطقة بئر أم سلطان، وجئنا هنا لنأخذ الرحمات ولم نسرق شيئاً».

ابتسم (عبد المريد) ابتسامه خبيثة وقال للرجلين:

- «استفتاح مبشر، خذ يا (قناوى) الولدين وأعطهما ما يريدان من حوش سيدى حسن بن الجاتى».

أرخى الرجل الذى كان يقبض على مجامع ثياب الطفلين قبضته ثم احكمها على معصمى الطفلين اللذين استسلما رغبة فى الفطائر واليوسفى. جرهما إلى حيث حوش قريب فأخرج الآخر مفتاحًا من جلبابه وفتح القفل الذى على الباب الحديدى، بالداخل كان يشبه البيت الصغير الذى أمامه حديقة صغيرة كانت مزينًا بالطوب الأحمر والأبيض وبه الكثير من الزرع ويتوسطة شاهدان لمقبرتين ويوجد فى منطقة الاستقبال مصطبة من الرخام الفاخر يجلس عليها الزوار ويوجد على أحد الجوانب حجر من الجرانيت المستطيل يشبه غطاء ربما لجبانة تحت الأرض، وعلى الجانب الآخر كانت حجرة مسقوفة مغلقة، توجه إليها أحد الرجال ليفتحها ودخلها الرجل الثانى يجر الولدين ثم أغلق الباب خلفه، وقف بالخارج الرجل الآخر مع (عبد المريد) يشعلان سيجارة وبداخل الحجرة تعالت صرخات الولدين بشكل هستيرى ثم انقطعت فجأة وظهر من عقب الباب نافورة من الدم المتدفق، نظر لها (عبد المريد) بتقزز وقال:

- «ادخل لمساعدة (قناوى) يا (شعلان) نحن فى بداية الأمر ولا يجب أن نهدر الدماء على الأرض هكذا، ولا تنس أن تخلط الدماء بالسائل الذى أعطيتكما إياه كى لا يتجلط».

توجه (عبد المريد) إلى خارج الحوش يكمل سيجارته وترك مساعديه يتعاملان بالداخل. ألقى السيجارة فجأة على الأرض وضم يديه واقفًا فى خشوع. على مقدمة الطريق من بعيد كان هناك شبح لرجل متشح بالسواد يتقدم نحو حوش المقبرة بتؤدة ويمشى وكأنما الأرض تحمله، وعلى جانبي الطريق كانت الأطباق التى تحتوى على الخبز العفن تزداد تعفنًا حتى لتكاد تتحول إلى رماد عندما يقترب بجوارها، حتى إذا ما وقف أمام (عبد المريد) الذى كان ينظر للأرض فى خشوع وبدأت يده كما لو كانت ترتعش، كشف المتوشح عن غطاء رأسه فإذا هو (ياغوث) بنفس الملامح التى بدا عليها مما يقرب من حوالى ثمانين عامًا وكأن الوقت لم يمض عليه ثم قال له باللغة العربية بصوت مبحوح.

- «إلى أين وصلت يا (مريد)؟».

قال (عبد المريد) بخشوع وهو لا يرفع بصره:

- «المكان جاهز للقداس والدماء المطلوبة يتم تحضيرها، والدم البرئ لن نغلب فى توفيره».

قاطعه بصوت مبحوح غاضب:

- «الكتاب ما أخبار الكتاب؟»

قرب (عبد المريد) يده من وجهه وكأنه سيحميه من صفعة مباغتة وقال:

- «غدًا سأطلبه من ولده وهو وريث الكتاب وسيعطيه لى طواعية ثم أعيده إلى جنابك طواعية وهو كما تحرينا لا يعلم أى شىء عن قصة الكتاب».

عقد (يغوث) يده أمام صدره وقال كإنما يفكر:

- «الكتاب يورث للزوج قبل الأبن، طالما الزوجة حية فهو لها، يجب أن تموت قبل أن يعطيه لك الابن».

هز (عبد المريد) رأسه بوجل فتابع (يغوث) قائلًا وهو يعطى ظهره منصرفًا:

- «بالمناسبة دماء أولاد الشوارع ليست دماء نقية، تعرف أنهم يفقدون براءتهم مبكرًا، على كل حال هى تصلح لرى الأرض العطشى، ربما فى الأسواق والموالد قد ينسى الأمهات متابعة أطفالهم، ستجد مزيدًا من الدماء البريئة».

انصرف (يغوث) مثلما جاء ولكن لم تنصرف علامات الهول من على وجه (عبد المريد) حتى غاب عن بصره فى جنبات المقابر.

□□□

فى ساعات الفجر الأولى كانت (علياء) زوجة (سعيد) فى حجرتها فى المستشفى ورأسها ونصفها العلوى ملفوف بالشاش وآثار سحجات وتورم فى وجهها، وكان ذراعها ممددًا بجوارها على السرير تنغرس به إبرة

المحاليل التى يتدفق منها السوائل إلى جسدها النحيل، وكان هناك ضوء خافت من مصباح فوق سريرها يلقى بظلاله على كيس المحلول الذى يقطر الماء إليه بانتظام، وينبعث الضوء من الجانب الآخر من جهاز رسم القلب الذى يبعث بدوره نبضات منتظمة ضوئاً خافتاً متراقصاً. أمام باب الحجرة كان هناك ثلاثة مقاعد للانتظار وكان يجلس على أحدها رجل يرتدى عباءته السوداء التى تغطى رأسه، كان (يغوث)، ويبدو أن الممرضة التى كانت تدفع عربة يدوية بها محاليل ومحاقن وكأنها لا تراه، وعندما اقتربت بالعربة بجواره استعدادًا لدخول الغرفة، وعلى حين كانت العربة فى متناول يده، وقفت الممرضة وأخرجت مرآة صغيرة من جيبها وأخذت تطالع فى وجهها وتضبط خصلات شعرها تحت غطاء الرأس الأبيض، وفى هذه الثوانى كان (يغوث) قد أبدل أحد المحاقن بأخرى أخرجها من طيات ملابسه، دخلت الممرضة الحجرة فى هدوء وقامت بتبديل كيس المحلول الذى أوشك على النفاد بأخر جديد، ثم غرست الحقنة فى الكيس وأفرغت محتواها ثم خرجت وأغلقت الباب بهدوء. فى الخارج لم يكن لـ (يغوث) أى أثر ولكن كانت الحقنة الصحيحة فى سلة المهملات.

❐❐❐

بدأت أعمال الطابور فى مدرسة (المنار) فى حوالى الثامنة صباحًا فى موعدها، وكان (وليد) فى الصف ينتظر إشراقة (ألين) كى يشركها فيما حدث، لعله يسرق شغفها ويلهيها عما ألم بها، ظهرت بملامحها الحزينة

وأخذت مكانها فى الطابور. عندما صعدوا إلى الفصول جلس كالعادة بجوارها فى طرف صفوف البنين وقال لها:

- «أنا آسف لم أستكمل حوارى معكِ بالأمس، وآسف لكِ جدًا لفقد أبيكِ احتسبيه شهيدًا عند الله فهى خير المنازل فى الآخرة».

ابتسمت ابتسامة مجاملة يشوبها الحزن فصنعت ثغرين فى وجنتيها وعاودت الوجوم فبادرها قائلًا:

- «لقد إنتهينا أمس من نقل مكتبة أستاذ (سعيد) رحمه الله، إن بها كتباً ضخمة وعتيقة، حزرى أى نوع من الكتب وجدت بها؟».

هزت رأسها ورفعت حاجبيها تعبيرًا عن عدم العلم فاقترب (وليد) من أذنها وقال:

- « كتاب عن السحر، هل تؤمنين بمثل هذه الأشياء؟».

قالت بلكنتها الشامية:

- «أنا لا أعتقد فى مثل هذه الخرافات، ولكن كيف سيقرأ الطلبة كتباً مثل هذه؟».

همس (وليد) مرة أخرى عندما زاد عدد الطلبة فى الفصل:

- «هو معى وكان الأستاذ (سعيد) يخفيه فى مكان سري».

وضعت (ألين) يدها على فمها ثم ما لبث ان امتلأ الفصل بالطلاب ودخل

المدرس لتبدأ الحصة الأولى، ولكن ما أن بدأت الحصة حتى دخل وكيل المدرسة (عصام) واستأذن مدرس الفصل وطلب (وليد) الذى امتقع وجهه بشدة ونظر إلى (ألين) فى حرج. خرج إلى رواق الفصول مع (عصام) الذى بادره قائلًا وهو يصحبه إلى مكتبه.

- «(وليد) أنت الذى كنت تشرف على عملية نقل الكتب، سأحتاج منك بعض الاستفسارات».

وصلا معًا إلى المكتب الذى كان ينتظر به (عماد) ابن (سعيد) وهو شاب لم يكمل العشرين من عمره أنيق الملبس، حسن الملامح، شعره فاحم طويل وكثيف ولامع يصففه للخلف وعلى الوجه بقايا لحية تنم عن عدم الحلق لأيام، وتشوب ملامحه مسحة من حزن واضحة ورغبة مصطنعة فى الظهور بمظهر غير متأثر، وكان ينتظر بجواره أيضًا (عبد المريد).

شعر (وليد) أنه على مشارف ورطة وشعر بانقباض كبير من شخص (عبد المريد)، صافح (عماد) وعزاه فى والده وصافح (عبد المريد) الذى كان يتفحصه بشكل مريب فقال (عماد) موجهًا كلامه مباشرة لـ (وليد):

- «(وليد) بما أنك كنت المسؤل عن نقل المكتبة من مكتب أبى إلى الغرفة الجديدة أريدك أن تساعد الأستاذ (عبد المريد) فى العثور على كتاب كان يخصه فى مكتبة أبى، تعلم يا (وليد) أن الدين واجب أن يتم يرد عن المتوفى».

كان الاضطراب على ملامح (وليد) فاضحًا وخاصة بالنسبة لـ (عبد المريد) الذى وجه كلامه له مباشرةً قائلًا:

- «(وليد) تعلم أننا فى الجامعات نحضر الرسائل العلمية عن المخطوطات القديمة، والكتاب هو موضوع البحث الخاص بى وبدونه فرسالة الدكتوراة تكون بلا جدوى، لو ساعدتنى فى العثور عليه لك منى مكافأة لا تتخيلها».

توجه الجميع إلى حجرة المكتبة الجديدة وتصنع (وليد) أنه يرشح أماكن بها كتب عتيقة كأنها هى وكان (عبد المريد) يعرف أن الكتاب ليس فى الحجرة ولكنه يراقب تصرفات (وليد) المصطنعة ثم قال:

- «حسنًا ربما يكون (وليد) فاقد التركيز الآن، ربما نمهله حتى الغد ليتذكر، غدًا سأمر عليه، تذكر يا (وليد) لك منى هدية قيمة جدًا».

❐❐❐

وصل (عماد) إلى المستشفى التى ترقد فيها والدته وجلس فى الاستقبال ينتظر الإذن بالزيارة، فى الوقت الذى وصل فيه أيضًا اثنان من الشرطة فى ملابس مدنية، صافحه الضابط وقال له:

- «أستاذ (عماد) أليس كذلك؟».

هز رأسه فى تعجب فتابع الضابط قائلًا:

- «أنا ملازم (على) من مباحث قسم الدرب الأحمر وكنت أستفسر منك بخصوص الحادث الذى حدث فجر أمس لوالديك».

قال (عماد) متعجبًا:

- «وما علاقة المباحث بحادث والدى؟ لا أظن أنهما أتلفا شيئاً من المال العام فى الحادث».

تناول الضابط بعض الأوراق من دوسيه كان يحمله الشخص الآخر وقال له:

- «تقرير الطبيب بخصوص والـدك للتصريح بالدفن يقول إن والدك كان مصابا بخمشات فى أماكن قاتلة سببها أداة منتظمة قد تكون شوكة حادة أو أنامل حيوان مفترس، رغم أنه وجد فى السيارة مع والدتك، والغريب أن والدتك هى من كان على عجلة القيادة رغم أنها لا تحمل رخصة قيادة، لو أن فى الأمر شبهة جنائية فسيتم تشريح جثة والدك للوقوف على سبب الحادث».

ارتعب (عماد) من فكرة تشريح والده ومن فكرة الشبهة الجنائية فقال:

- «أبى رجل مسالم ومحبوب، ولا عداوات له، والمنزل لم يسرق منه شىء، فكرة الشبهة الجنائية مستبعدة تماماً».

خرج الطبيب من الرواق فأسرع إليه (عماد) يسأله عن والدته كذلك اقترب الضابط فقال لهم الطبيب:

- «برجاء الهدوء، السيدة (علياء) مصابة بتهشم فى أضلع الصدر وتهتك بسيط فى الرئة اليمنى وكدمة فى الرأس وكدمات متفرقة فى الوجه، الحالة مستقرة من الأمس بعد إجراء جراحة بسيطة».

أسرع الضابط متسائلًا:

- «هل يوجد أى خمشات أو جروح حادة، أم أنها جميعًا إصابات الارتطام؟».

فى حين غطى (عماد) وجهه من الألم على والدته أجاب الطبيب بالنفى قائلًا:

- «الإصابة نتيجة الارتطام العنيف بعجلة القيادة والزجاج الأمامى».

قال الضابط:

- «هل من الممكن أن نأخذ أقوالها؟».

قال الطبيب مشيرًا بإصبعه:

- «لا أظن أن التحدث معها سيكون ممكنًا قبل يومين على الأقل».

قال الضابط:

- «ولكن لماذا تختلف نوعية إصابات السيدة (علياء) عن إصابات أستاذ (سعيد)؟ ما السيناريو المفترض لحادث مثل هذا؟».

قال الطبيب:

- «أظن أن الأستاذ (سعيد) تعرض للعض من حيوان مسعور فى عنقه، ونزف حتى الموت، وربما كانت زوجته تسارع به إلى المستشفى، قبل أن تتعرض لحادث السيارة».

أعاد الضابط الورق إلى الملف وهو يمط شفتيه لينصرف فى حين فجأة

خرجت الممرضة مسرعة تنادى على الطبيب الذى أنطلق يجرى إلى الحجرة مسرعًا وخلفه (عماد). فى حجرة والدته حيث كان جهاز رسم القلب يعطى صفارة ثابتة وخط الحياة أصبح مستقيمًا، حاول أن يصعقها بمنشط القلب عدة مرات ثم نحى الجهاز جانبًا وغطى وجهها بالملاءة.

انطلق (عماد) يجثو على ركبته امام جسد والدته وأخذ يبكى بحرقة.

□□□

فى أحد الشوارع الجانبية للمدرسة كان (وليد) يمشى بصحبة (ألين) وفى يده اللفافة السوداء التى تحوى الكتاب وكان يقول لها:

- «أرجوكِ أن تخرجى من حالة الحزن هذه، الحياة يجب أن تستمر، والدك ما كان ليرضى لو شاهدكِ هكذا، إنه فى منزلة طيبة الآن ولا خوف عليه ولا حزن بعد الآن إن شاء الله».

بدأت عيونها ترقرق مرة أخرى وقالت:

- «وكيف للحياة أن تستمر، نحن فى ورطة كبيرة على كافة الأصعدة ومهددون بالتشرد».

قال (وليد) متعجبًا:

- «أى تهديد تقصدين؟ الحرب بعيدة عنا ومصر فى حالة سلام مع إسرائيل».

طاطأت رأسها فى أسى فانسدل شعرها على وجهها ثم رفعته فى حركة رقيقة وقالت:

- «أنا وأخى وأمى نحمل تصاريح لاجئين فلسطينيين وهى تصاريح منتهية، كانت سياسات الرئيس عبد الناصر تساعد في إدماجنا في مصر، ولكن تجنيسنا لم يكن يومًا من الخيارات المطروحة بدعوى الحفاظ على الهوية الفلسطينية واستعادة الحقوق الأساسية فكانت تؤجل جهود التوطين لدعوى الأمم المتحدة لتنفيذ القرارات المتعلقة بعودة اللاجئين إلى ديارهم وتعويضهم، وكنا نعامل من وقتها كالمصريين ولعبت مصر دورًا مهما في ميلاد منظمة التحرير الفلسطينية، ولكن بعد توقيع اتفاق كامب ديفيد للسلام بين مصر و إسرائيل واغتيال وزير الثقافة المصري (يوسف السباعي) في نيقوسيا فى شباط/فبراير ١٩٧٨ على يد منظمة أبو نضال المتمردة، عانينا تراجعاً فى كافة الحقوق التي تمتعنا بها من قبل، حتى إنه فى جنازة (السباعي)، أعلن رئيس الوزارء المصري (مصطفى رياض) بأنْ «لا فلسطين بعد اليوم» وما لبثت أن بدّلت مصر قوانينها وأنظمتها وأمسينا كالأجانب، ولكي يضمن المسافرون أو المقيمون في الخارج الحاملون لوثيقة السفر المصرية الدخول مرةً أخرى إلى مصر، كان يتعين عليهم إما العودة إلى مصر كلِّ ستة أشهر أو تزويد السلطات المصرية مقدمًا بما يُثبت عملهم أو التحاقهم بمؤسسة تعليمية. وفي تلك الحالات، كان يتسنى الحصول على تأشيرةٍ للعودة مدتها عام واحد، كما جُرِّدنا من حقوق الإقامة باستثناء مَن كان متزوجًا من مواطن

مصري[1]، أو ملتحقًا بمدرسة أو جامعة ودافعًا لرسومها، أو متعاقدًا مع القطاع الخاص، أو مَن كانت لديه مصلحةٌ تجارية أو استثماراتٌ داخل البلد وهذا لا ينطبق على أخى الصغير وأمى الآن، حتى إن آخر دفعة من المال أرسلها لنا أبى رحمه الله لن تصمد كثيرًا».

شعر (وليد) باليأس من القضايا التى تفوق قدراته واستيعابه وقال بابتسامة تلميحية:

- «لو كان جائزًا فى هذه السن لشاركتك جنسيتى المصرية».

ابتسمت بتنهد وخجل وقالت:

- «مازلنا فتياناً يا (وليد)».

قال فى يأس وهو ينظر إلى لفافته:

- «نحتاج إلى معجزات لحل بعض المشكلات».

- «بل نحتاج ألا نصنع لبعضنا البعض مشكلات».

عاد (وليد) ينظر إلى اللفافة التى تحوى الكتاب وقال:

- «ماذا تعتقدين اننا فاعلون بهذا الشيء؟».

---

(١) بمقتضى تعديل حديث في قانون الجنسية (رقم ١٥٤/ لسنة ٢٠٠٤) فقد أصبح لأبناء المصريات المتزوجات من أجانب حق المطالبة بالدخول في الجنسية المصرية إلا أن تطبيق وزارة الداخلية للقانون استثنى ابناء الفلسطينيين وهذا الاستثناء تم الطعن عليه وألغى التطبيق وبذلك اصبح يحق لأبناء المصريات التجنس بالجنسية المصرية (حكم المحكمة الإدارية العليا الوارد بجريدة الأخبار في ٢٠٠٦/١٠/١٧).

تناولت (ألين) الكتاب فى لفافته السوداء وشعرت بنفس الرهبة عندما أمسكته فأعدته له مرة أخرى وقالت:

- «هل تظن فعلًا أنه كتاب سحر؟ ولكن ما يميزه عن أى كتاب رخيص به وصفات يدعى أن لها تأثيراً سحرياً؟».

انتشى (وليد) لأنه أخيرًا سيتحدث فيما يفهم وقال:

- «الكتاب له مجال يشعر به من يلمسه ومصنوع من جلد غريب وقديم لدرجة قد تكون مئات الأعوام، كما أن أستاذ (سعيد) رحمه الله كان يخفيه فى مكان سرى، وهذا الرجل غريب الأطوار الذى يسعى وراء الكتاب بحجج كاذبة، أنا أشك أصلًا أن وفاة أستاذ (سعيد) ربما تكون لها علاقة بالكتاب».

تقمصت (ألين) لهجة جدية وقالت:

- «لو كان أى مما تقول صحيحاً فهذا معناه أنك ورطت نفسك فى مشكلة كبيرة، أرى أن تعيده إلى المكتبة وتخرج نفسك من الأمر قبل أن يكتشفوا أمرك، لو كان هناك أناس يتعاملون فى هذا النوع من الشرور فمعناه أن الاستهانة بالروح البشرية متأصلًا فى طباعهم».

بدأ (وليد) يشعر بالارتباك وقال:

- «ولكن هل يجب أن أمكن هذا الرجل من كتاب شر كهذا كى أتفادى المشاكل؟».

طاطأت رأسها وأزاحت شعرها المنسدل وقالت:

- «أو ربما يتعين عليك إخفاء الكتاب بحيث لا يتمكن منه أحد أيًا كان».

وعلى حين كان (وليد) و(ألين) يودعان بعضهما عند منزلها كان على جانب الطريق رجل نحيف يتابعهما يلقى سيجارته على الأرض و ينصرف.

كان (شعلان) مساعد (عبد المريد).

❐❐❐

الفصل الثالث

عبث شيطانى

عاد (وليد) إلى المنزل وهو مازال يحمل نشوى من عبير لقائه بـ (ألين)، لم يكن والده عاد من العمل بعد وكانت والدته منشغلة فى المطبخ فدلف كالعادة إلى غرفته يبدل ملابسه وما لبث أن دلف المفتاح فى الباب ودخل والده الذى أشار إلى والدته لوجود ضيوف بصحبته، ورحب بضيفيه للدخول، أطل (وليد) من باب غرفته وانتفض عندما تبين هوية الرجلين، كان الأول هو وكيل المدرسة الأستاذ (عصام) والثانى هو (عبد المريد)، كان يراقبهما من زاوية صغيرة من الباب وكان الأب يبدو عليه الضيق مما يحكيه كلاهما، وما كان الأمر يحتاج إلى تخمين لمعرفة محتوى الحوار، أخذت نبضات (وليد) تتسارع وهو ينتظر أن ينادى عليه والده فى أية لحظة حتى خرجت الأم من المطبخ تحمل بعض المشروبات للضيوف، وما لبثت أن انخرطت فى الحوار، ولطم (وليد) على خديه وأغلق الباب وسقط جالسًا على الأرض خلف الباب حيث إن والدته وبعد محادثة قصيرة دخلت إلى حجرتها وخرجت تحمل اللفافة التى بداخلها الكتاب، لم تمر

ثوان حتى أنتفض من جلسته أثر صوت أبيه ينادى عليه بعصبية، ابتلع ريقه وخرج يواجه موقفاً ستكون كل حساباته ذات عواقب وخيمة.

وقف أمام الجميع كالفرخ الذى بلله الماء فقال أبيه:

- «بالطبع أنت تفهم الآن ما يدور الأمر بشأنه، الأستاذ (عبد المريد) أوصانى ألا أسبب لك الأذى ولكن بعد أن تستشعر فداحة فعلتك وتسلمه الكتاب بنفسك، وسأفترض أن الفضول هو ما دفعك لاستعارة الكتاب».

كانت الأم تناول لفافة الكتاب له فتناولها ثم نظر فى عينى (عبد المريد) التى كانت تحوى سعادة تؤكد كافة شكوكه حول الكتاب، لم يجد مناصًا سوى أن يحول يديه ليناول الكتاب له، تناول الرجل الكتاب فى ظفر وغزت الابتسامة فمه الذى كان يخفيه الشارب المنسدل فظهرت الأسنان الصفراء التى أضفت على الابتسامة كراهة شديدة وانصرف الرجل على الفور شاكراً وتاركاً (وليد) لتلقي اللطمات الكلامية من أبيه وأمه وأستاذ (عصام)، كان بالكاد يستمع لما يقال من فرط شروده وما إن بدا له أن الجميع انتهى من الكلام وتم الإذن له بالانصراف حتى دخل إلى حجرته، حيث كان يعلم أن الأمر لم ينته عند ذلك الحد، هى فقط البداية..

بداية المتاعب.

❐❐❐

فى جنح الليل وفى المنطقة التى لا يجرؤ عاقل على التجول فيها ليلًا بين القبور، وقف (عبد المريد) أمام باب حوش المقبرة نفسها يحتضن اللفافة السوداء التى تحوى الكتاب ويرتجف رغم أن البرد لم يكن لدرجة تدعو إلى الارتجاف، كان ينظر يمينًا ويساراً كل دقيقة يتوقع ضيفًا ما، دقائق وكان الضيف الذى بدا على ملامحه الغضب قد وصل، اعتدل فى وقفته وطأطأ رأسه وهو يقول مادًا يده بالكتاب لـ (يغوث):

- «كما طلبت لقد حصلت على الكتاب ممن وجده كـ يد عارضه وقد سلمه لى بنفسه دون إجبار، وها أنا أعيد الحق لصاحبه وأمنحك الكتاب بإرادة حرة لتكمل مسيرتك المقدسة».

تناول (يغوث) اللفافة بعصبية وغضب لا يناسب حصوله على مبتغاه مما جعل (عبد المريد) يرفع وجهه لاإراديًا، أمسك (يغوث) باللفافة وخمش اللفافة التى كانت عبارة عن كيس اسود يحوطه الشريط اللاصق ومن ثم تمزقت اللفافة بخمشته وظهر الكتاب تحتها والذى تأثر بالخمشة ايضًا وكان العنوان واضحًا باللغة الفرنسية للكتاب القديم الذى كان عبارة عن قاموس فرنسى - انجليزى ضخم:

تضاعف حجم حدقة (عبد المريد) عندما اقترب (يغوث) من وجهه وعيونه ككتلة من اللهب الباهت وقال:

- «أنا لا أعمل مع الأغبياء، أعمالنا لا تحتمل الخطأ».

ثم بغتة وعلى حين كان (عبد المريد) يضع كلتا يديه أمام وجهه فى رعب

ضربه بأظفاره الحادة على إبهام يده اليسرى فسقط مقطوعًا على الأرض وتصاعد البخار من مكان القطع.

أمسك (عبد المريد) يده وأخذ يصرخ من الألم فى صوت مكتوم فى صمت المقابر الكئيب، فى حين انصرف (يغوث) غائبًا بين جدران الأحواش الصامتة ويتمتم قائلًا وهو ينظر للكتاب المزيف فى غضب:

- «لا يجب على عاقل أن يعبث مع شياطين».

❐❐❐

بدل (مكرم) ملابسه وارتدى ملابس النوم واندس تحت الغطاء بجوار زوجته (فريدة) التى كانت تبدو نائمة ولكن عندما نام بجوارها يتطلع إلى سقف الحجرة قال لها:

- «هل مازلتِ مستيقظة؟».

فتحت الأم عينيها وقالت:

- «بالطبع وكيف يواتينى النوم».

- «وماذا تعتقدين؟ ترى هل هى مسألة فضول لا أكثر أم أن (وليد) سرق بالفعل ما ليس له بحق؟ إذا سرق اليوم كتابًا فمن يدرى ماذا يفعل غدًا؟».

قالت الأم نافية:

- «أعوذ بالله، لقد ربينا ابننا جيدًا، ربما هو الفضول لا أكثر، وهل قصرنا فى حقه بشىء كى يمد يده؟».

وعلى حين كانا يتحدثان إذا بصوت فى الردهة يشبه صوت جدى صغير تنقر حوافره على الأرض فقالت (فريدة) وهى تنتفض من رقدتها:

- «هل سمعت ذلك؟»

انتفض الأب بإيقاع أبطأ وقال:

- «هل هذا فى شقتنا أم عند الجيران؟».

خرج (مكرم) مسرعًا إلى ردهة المنزل وأخذ يدور ببصره فى كل مكان ثم عاد إلى رقدته وطمأن زوجته.

لم تمر ثوان حتى عاد الصوت مرة أخرى ولكن تجاهلاه هذه المرة، رغم أنه بدا كما لو كان أمام الباب مباشرة، كان فى أعلى الباب المغلق للحجرة جزء زجاجى يظهر منه نور خفيض لردهة المنزل ثم ظهر وهج من الضوء من الزجاج يشبه حريقًا مندلعًا، انتفض كلاهما من السرير مرة أخرى يفتحان الباب ظنًا أن حريقًا قد نشب ولكن عندما فتح الباب كان كل شىء على ما يرام، نظر (مكرم) إلى زوجته فى ريبة ثم سمعا صراخًا من حجرة (وليد) فتوجها نحوها فورًا وكان (وليد) يخرج من حجرته مسرعًا نحو حمام المنزل وينفض شيئا من فمه فانطلقت والدته تحتضنه وتصرخ:

- «ماذا جرى ماذا فى فمك؟».

كان (وليد) يفرغ معدته فى الحوض ثم غسل وجهه وقال لوالديه:

- «شعرت كما لو أن عنكبوتا ضخما بفراء كثيف يمشى على وجهى وأنا نائم ثم وكأنه دخل فى فمى».

ضمته الأم تهدئ من روعه وهى تنظر إلى الأب فى ريبة ثم قالت له:

- «تعال نم معنا فى الحجرة».

قال (مكرم) رغم قلقه:

- «(فريده) أنه رجل ناضج الآن، لم يعد طفلًا، أنتِ تزيدين قلقه».

ثم قال موجهًا كلامه لـ (وليد):

- «ربما كنت تحلم، بعض الأحلام يكون لها تأثير بعد الاستيقاظ منها كما لو كنت تشرب شيئًا فى الحلم وتشعر بمرارته فى الصباح أو تسقط فى الحلم وتشعر بألم السقطة عند اليقظة، عد إلى حجرتك يا (وليد)».

عاد (وليد) إلى حجرته وأغلق الباب والتف بالغطاء وهو يرتجف خوفًا من ألا يكون مجرد حلم، وأن يكون مقدمة لما سيحدث له من جراء ما عبث معه من أشياء لا يجوز العبث معها.

❐❐❐

كانت (ألين) ترقد على جنبها فى الحجرة التى تحتوى على سريرها وسرير أخيها الصغير (إياد) وقد أرقتها هموم أسرتها الصغيرة المهددة بالتشتت والضياع وربما الفقر الذى يصعب دفعه، فلا هى فى عمر يسهل أن تجد فيه عملًا، ولا مؤهلات والدتها التى بالكاد تقرأ وتكتب يمكنها من إيجاد

عمل كريم، وأخوها لم يكمل عامه السادس بعد، هل يمكن أن تجد هذه الأسرة فجأة ما بين طفل مشرد وسيدة تخدم فى المنازل، وربما زوجة تحت السن لتاجر مسن فى أى بلد عربى يرضى باستضافتهم.

نزلت دمعة ساخنة على وجنتها الرقيقة جعلت الرؤية تبهت أمام ناظريها ثم مسحت عينيها عندما لمحت شيئا ربما خيل إليها فى الدب الذى يعلو الكومود القصير عند سرير أخيها، كان الدب البنى الأشعث ذو الأنف البارز يبدو وكأنما يبتسم ويظهر تحت الخط الذى يرسم فمه كما لو كان صف أسنان صفراء بغيضة، نهضت من على سريرها مفزوعة وتوجهت نحو الدب فلم تجد شيئًا، فعادت إلى رقدتها تحك رأسها مما يمكن أن يكون سببه لها القلق من هلاوس، كانت تثبت نظرها على الدب ثم فجأة وكأن عينيه العسليتين قد عكستا وهجًا أحمر قاني أضاء بشكل لافت فى الحجرة التى كانت شبه مظلمة إلا من ضوء ناعس يأتى عبر مصباح فى الردهة تخلل زجاج الباب العلوى الموارب، أغمضت عينيها وهزت رأسها ثم فتحت فكان للدب نفس الأسنان الصفراء والعيون المتوهجة وكان بالقرب من سرير (إياد) فنهضت مفزوعة وأضاءت نور الحجرة فكان كل شىء على ما يرام، توجهت نحو الدب فى بطء وبدأ أخوها يتململ من الضوء الذى فى الحجرة، تناولت الدب بحذر ثم فتحت النافذة فهب الهواء البارد والبخار فى وجهها، ثم أطاحت بالدب على امتداد يدها من النافذة.

أغلقت الضوء والنافذة وعادت إلى سريرها ورقدت وهى تعصر عيونها ثم بدأ الباب يصدر صريره المعهود ببطء وبصوت ضخمه الصمت، ابتلعت

ريقها وتجاهلت ما ربما كان الهواء هو سببه ولكن الصرير كان مستمرًا بحيث لو كان يعكس فعلًا حقيقيًا لكان الباب مفتوحًا على مصراعيه، غير أن فتحة الباب لم تزد، نهضت (ألين) مرة أخرى نحو الباب بعصبية ترسف فى روب النوم المخملى وأغلقت الباب وما إن استدارت حتى كان الدب فى نفس المكان على الكومود، صرخت وأضاءت النور فاستيقظ أخوها الصغير مفزوعًا وفتحت الأم حجرتها وجاءت مفزوعة، قالت الأم عندما دخلت الحجرة.

- «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ما الأمر يا حبيبتى؟».

ارتمت (ألين) فى حضن والدتها وهى تبكى ولا تقوى على الكلام وتشير ناحية الدب، كانت الأم قد ترجمت أنه ربما يكون كابوساً فأخذت تربت على ظهرها بحنو ثم وضعت يدها على رأسها، وأخذت تتلو بعض الآيات.

❐❐❐

فى اليوم التالي وبعد انتهاء اليوم الدراسى كان (وليد) يمشى بجوار (ألين) التى كانت تقول:

- «وظللت طوال الليل مستيقظة فى حضن والدتى أنا وأخى وعندما طلع النهار أشعلت النار فى الدب أمام البيت».

قال (وليد) بخوف:

- «أنا أيضًا لم أذق النوم وبعد ما حدث أصبحت أشعر أننى كطفل

مزعج فى البيت وجالب للمشاكل، ربما بعد كابوس أمس لم يشأ والداى أن يثقلا على اللوم ولكنى أعلم كم هما غاضبان منى، وأشعر إذا تم الربط بين كوابيسنا معًا أن يكون لذلك علاقة بالكتاب».

ظهرت الريبة على وجه (ألين) التى لم تكن ربطت بعد بين الحدثين وقالت:

- «ماذا تقصد؟ هل تعنى أن الكتاب يسبب لنا الكوابيس؟».

انتبه (وليد) أنه يزيد من قلقها فقال:

- «لا لا، ربما هى هلوسة سببها كثرة ما تحدثنا مؤخرًا عن السحر والشعوذة، كما ترين لم يمسسنا أذى مادى، هى مجرد أوهام، نحن بخير، إن شاء الله بخير».

ثم تمتم وكأنه يريد أن يسرها:

- «جل ما أخشاه هو ماذا سيفعل الرجل البغيض عندما يدرك أننى بدلت الكتاب فى دولاب والدتى وأعطيته كتاباً مزيفاً».

□□□

فتح (عماد) مكتب والده الفخم فى المنزل وأضاء المصابيح الصفراء التى تزين الجدران مما أضفى على المكان المفعم بالخشب فى الأرضيات ونصف الحوائط جوًا ملهمًا، ثم جلس على مكتب والده وأخذ يتحسس الأماكن التى ربما تكون لمستها يد والده وتناول بروازًا على المكتب به

صورة تجمعه صغيرًا مع والده ووالدته فقربها من فمه وقبلها ثم أعادها إلى مكانها ثانيةً، دخلت سيدة ريفية يبدو أنها كانت تنظف المنزل وأخبرته أن هناك شخصاً بالباب يريد مقابلته، فطلب منها أن ترشده إلى المكتب.

كان الأستاذ (حافظ) محامى العائلة، نهض (عماد) ليصافحه فى حين جلس هو على أحد الكرسيين المواجهين للمكتب، وضع حقيبته الجلدية على المنضدة الصغيرة وقال وهو يخرج الدوسيهات منها:

- «البقاء لله، اعلم أنه مصاب كبير أن تفقد كلا والديك فى وقت واحد ولكن كلنا على هذه الأرض بموعد، أسأل الله لهما المغفرة وأسأله لك الصبر والسلوان».

ابتسم (عماد) بأسى فتابع المحامى قائلًا:

- «أنا آسف لأنى جئت مبكرًا بعد الوفاة ولكن وصية والدك كانت من توصياتها السرعة، بالنسبة للأملاك الأمر سهل حيث لا وريث له سواك وهذا يشمل البيت والمدرسة والرصيد فى البنك وليس هذا هو ما يدعو إلى السرعة ولكن والدك أعطانى طردًا أظنه يحتوى على كتاب وخطاب مغلق لتفتحه وحدك، وقد كان موجهًا لوالدتك ثم لك فى حالة عدم وجودها».

تناول (عماد) الطرد والمظروف وشكر المحامى الذى لملم أوراقه وانصرف قائلًا:

- «إذا احتجتنى فى أى شىء فلا تتأخر فى الطلب، أظن أنك تعرف عنوان مكتبى».

ودعه (عماد) حتى باب المكتب ثم عاد يجلس عليه وفتح الطرد وكان عبارة عن أجندة فتحها فكان عنوانها (مذكرات سعيد جمال)، أغلق المذكرات وابتسم متذكراً وجه والده قبل أن يسافر لتكملة تعليمه بالخارج ووضع المذكرات فى درج المكتب ثم فتح المظروف فكان وصية والده وكان نصها كالتالى:

«زوجتى الغالية (علياء).

تحية طيبة وبعد

إذا كنتِ تطالعين خطابى هذا فمعناه أنه قد وارانى الثرى وانتقلت إلى ربى، أرجوكِ ألا تستسلمى للحزن ودعى الحياة تمضى، وسامحينى إذا ما خلفت لك إرثى هذا، ولكنها الأقدار التى ورطتنى وها هى تفعل معك المثل وبعدك ابننا العزيز أعانكم الله، لقد تورطت فى رحلة ملعونة لم أحك عنها لأحد وكان نتاجها أن صرت حاملًا لكتاب يسمى كتاب (ماروت)، وهو كتاب عن السحر يمتد إلى عهد النبى سليمان، هذا الكتاب يستخدم لكثير من الشرور من وقتها، وكان يحمله جنى شيطان يدعى (يغوث) -رجاء عدم الهمس بالاسم بصوت مرتفع- وقد كان هذا الجنى يتوارثه بقانون بحيث لا يتمكنون من مخالفته وهو أنه لا ينتزع إلا رضاء، وما خلا ذلك يمحى الكتاب، لو حصل هذا الجنى على الكتاب وأقام ما يسمى بالقداس الأعظم فسيصبح جنسنا مستباحًا لهم، الحمد لله أن هذا

لم يحدث حتى الآن، ولأنه مرتبط بظاهرة فلكية تسمى الكلف الشمسى ففرصته تكون مرة كل أحد عشر عامًا، هى الفترة التى يجب أن تستشعرى فيها الخطر- موعدها القادم ١٩٨٢- ولكن طالما لم تمنحى الكتاب برضاكِ فلن يستطيع أحد أن ينتزعه منكِ، عندما تقرأين مذكراتى ستجدين معلومات أكثر عن الظروف التى حصلت عليه فيها، وأرجو ألا تتضايقى منى لشئ فيها، كان ذلك قبل أن تدخلى حياتى، عليك الآن أن تكتبى وصية مشابهة لأن ما هو موجه لك الآن سيكون موجهاً لـ (عماد) بعد عمر مديد إن شاء الله، الأمر الثانى هو مكان الكتاب، وستجدينه فى قلب قلب قلب أعز مكان إلى قلبى.

المخلص:

سعيد محمد جمال»

أغلق (عماد) الورقة وتملكه الوجوم وعدم الاستيعاب.

❐❐❐

عاد (وليد) إلى منزله فكانت والدته ترفع صوت الكاسيت بالقرآن وترش الملح فى أركان البيت ورائحة البخور تملأ المكان، دخل إلى حجرته مباشرة فدخلت والدته خلفه وقالت له:

- «(وليد) لماذا لست مواظبًا على الصلاة؟».

كانت والدته تحافظ على الصلوات فى وقتها ولكنها نادرًا ما طلبت منه ذلك، فتلعثم قائلًا:

- «إن شاء الله، ولكن لماذا تقولين لى ذلك الآن؟ أنا لم أسرق الكتاب، الأمر ليس كما تتصورين».

قالت الأم معاجلة:

- «أنا لا أقصد ذلك أنا فقط أخشى عليك من الكوابيس».

لم يكن (وليد) يعلم بما رآه والدياه وظن أن والدته تريد ألا تجرح مشاعره فطأطأ رأسه موافقًا فابتسمت مودعة وتركته بحجرته ليستذكر دروسه.

❐❐❐

وصل (عماد) إلى المدرسة مسرعًا وكان باب المدرسة مغلقًا فطرق على الباب الحديدى حتى رآه الخفير وفتح له الباب، طلب من الحارس مفاتيح مكتب والده لأنه يحتاج شيء منه، تناول المفاتيح من الحارس وانطلق إلى مكتب والده فى قلب المدرسة وهى كما يعرف كانت أحب الأماكن إلى قلب والده، فى المكتب أخذ يجول ببصره حيث كان مكتب والده على يمين الغرفة وخلفه الأرفف الضخمة للمكتبة الفارغة، التى تحتل الحائط بالكامل وعلى يسار الغرفة لا يوجد سوى دولاب صغير على اليسار قليلًا يقبع وحيدًا، توجه إليه وحاول أن يفتحه وكان مغلقا بمفتاح، وحيث

كانت واجهته زجاجية، التقط من على المكتب تمثال صغير من البرونز وحطم به الواجهة الزجاجية للدولاب ومد يده يزيح بعض الكتب، ثم لاحظ ذلك التجويف الخشبى الذى يشبه القلب فدفعه بيديه فانفتح رف خشبى كان مخفيًا عن تجويف مربع فى الحائط، أخذ يمد يده بحثًا عما فى هذا التجويف الذى كان فارغًا، وهنا تذكر الرجل الذى كان يريد الكتاب بشغف وكاد أن يسلمه ما يريد ببساطة، وتذكر كلام الضابط فى المستشفى عن الشبهة الجنائية، وتذكر (وليد) الذى طلب الرجل الغريب رؤيته ليسأله عن الكتاب عندما لم يجده، ضغط على قبضته فى غيظ وهو لا يعرف موقفه الآن بعدما فقد الكتاب، تناول التليفون واتصل بوكيل المدرسة (عصام) وأخبره أنه فى المدرسة بحثًا عن شىء ما تركه له والده، وأنه يرغب فى معرفة ما حدث بالضبط عند نقل المكتبة من مكتب أبيه، وماذا حدث مع (وليد) والرجل الذى يبحث عن الكتاب، وبعدما استمع من (عصام) كل شىء أغلق الخط، وأخذ يستجمع الأحداث، لابد أن (وليد) وجد الكتاب بطريقة ما، ولابد أن المدعو (عبد المريد) عرف أن الكتاب معه لأنه لم يبحث بين الكتب كما ينبغى، وكان تركيزه فقط على (وليد)، ولابد أن هذا الرجل له علاقة بالسحر و إلا فلم يطلب الكتاب، ولابد أيضًا أن يكون رجلاً معدوم الإنسانية والدين، ولن يتوانى عن إتيان أحقر الأشياء للوصول إلى مبتغاه، أفاق من شروده ثم خرج من المكتب وأغلقه بالمفتاح ونزل مغادرًا المدرسة بعدما أعاد المفاتيح للحارس الذى كان واجمًا لا يستوعب شىء، وبينما هو يعبر الطريق

إلى الجهة المقابلة أنشقت الأرض عن تاكسى مسرعًا، ارتطم به فأطاح به لينزل على الرصيف غارقًا فى دمائه.

❐❐❐

حل الليل وتوجهت (ألين) إلى سريرها فى ترقب وقلق وهى فى غاية التعب من عدم النوم فى اليوم السابق، وظلت من القلق مستيقظة أيضًا فى سريرها حتى دقت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، وما إن بدأت جفونها تثقل من التعب لتغفو حتى أنتبهت إلى صرير الباب الذى كان مواربًا كالعادة. تعمدت أن تغلق عيونها لتتجاهل ما يحدث ثم انتفضت أثر سماعها لصوت ضحكات صغيرة، نهضت من السرير وتقدمت ببطء من سرير أخيها الصغير الذى كان نائمًا على جنبه ووجهه ناحية الحائط لتتاكد أن صوت الضحكات ليس منه، ثم لم تستطع أن تكتم صرختها عندما وجدته يحتضن الدب نفسه. أقبلت الأم مرة أخرى مفزوعة على صوت الصرخة وأوقدت مصباح الغرفة وكانت (ألين) تشير إلى أخيها كالعادة، فزعت الأم إلى طفلها لتطمئن عليه وعندما قلبته على بطنه - وكان لم يستيقظ بعد - لم يكن للدب أثر. قالت الأم لابنتها وهى تعاود احتضانها.

- «حبيبتى ما حكاية الكوابيس حفظك الله».

وفى حين كانت الأم تحتضن ابنتها وقعت عيون (ألين) على (إياد) الذى بدا ينصب عرقًا وكان ما يزال نائمًا اقتربت الأم وابنتها من الصغير الذى

انتفخ عنقه فجأة كأن بالونًا قد انتفخ بداخله ثم عاد إلى وضعه الطبيعى، أخذت الأم تضرب وجنتيه برفق كى يستيقظ فانتفخ عنقه مرة أخرى وعاد يخبو، وكان يصدر خوارًا غير واضح، ولمحت (ألين) وكأن زغبًا من الفراء فى قعر فمه المفتوح، كما لو كان الدب قد انحشر فى حلقه ثم دققت النظر فلم تجد شئيا، انطلقت إلى المطبخ وأحضرت دورقًا من الماء وسكبته على وجه أخيها فانتفض من نومه كما لو كان ميتًا عادت إليه الحياة، احتضنته أمه بقوة وأخذت ترقيه وكان الصغير ينظر لما حوله غير مدرك لشئ، فذهبت الأم مسرعة تحضر له غيارًا غير الذى أغرقه الماء وبدلت سترته، طلبت والدته من (ألين) أن تحضر صحنًا من الماء وفوطة صغيرة لأن حرارته مرتفعة، أحضرت (ألين) ما طلبته أمها وجلست على سريرها تراقب والدتها وهى تخفض حرارة الصغير بالفوطة المبللة وتفكر فى الشر الذى جلبته إلى البيت عبر الكتاب الملعون الذى تدفنه بمكان ما بالقرب من المنزل.

❐❐❐

كان (وليد) يرقد على سريره لم يدركه النوم بعد وكان ينبعث من خارج حجرته صوت خفيض للكاسيت على تلاوة آيات من القرآن، وعندما انتصف الليل وأصدرت الساعة صوتها المميز، بدأ صوت الكاسيت كما لو كان الشريط قد سف وتوقف صوته، جحظت عيون (وليد) وأخذت دقات قلبه تتسارع، ثم سمع كما لو كان أحدهم يدق هونًا بشكل منتظم، ثم سمع صوت حجرة والديه تفتح، من عقب الباب، حيث يتسرب ضوء

بسيط، لمح ظل والدته يقترب من الباب، يبدو أنها تطمئن عليه والتوى رتاج الباب فأغمض عينيه كى لا تراه مستيقظًا فيزيد قلقها، ولكن عندما فتح عينيه رويدًا، كان الظل قد اختفى ولم يفتح الباب، بعد قليل انطفأ النور البسيط الذى كان موقدًا فى الردهة، فعم المكان ظلام حالك جعل (وليد) ينتفض من سريره، ثم عاد الضوء فجأة ولكن فى عودته المفاجئة أظهر من الجزء الزجاجى العلوى فى الباب ما يشبه ظل رأس كبش أقرن، نهض (وليد) مسرعًا وفتح الباب، فكانت الردهة هادئة لا شيء فيها، اقترب من حجرة والديه وطرق الباب فنهضت والدته وفتحت له الباب، وعلى عينيها آثار النوم، قال لها برعب:

- «أمى هل كنتِ منذ قليل بالخارج؟».

تلاشت ملامح النوم من على وجهها وقالت:

- «لا لم أفعل.. ماذا حدث ومن أطفأ صوت الكاسيت على القرآن؟».

ابتلع (وليد) ريقه وقال:

- «يبدو أن الشريط قد تلف، لا بأس عودى للنوم لم يحدث شيء».

أفاق الأب ونهض من سريره وقال:

- «خيرًا يا (وليد)؟».

قال وهو يتراجع إلى غرفته:

- «لا شيء عودا للنوم رجاء، أنا آسف على الإزعاج».

انصرف عائدًا إلى حجرته ترتعد فرائسه وأغلق الباب وجلس على سريره مترقبًا بعد أن أوقد المصباح الخافت الذى بجوار سريره مما ألقى على الحجرة ظلالًا كثيرة، ظل يدور بعينيه فى أرجاء الغرفة فى ترقب وخوف ثم فجأة اهتزت كل الظلال فنظر فى رعب إلى المصباح فسكنت الظلال، وعندما لم تتحمل أعصابه اضطر إلى إغلاق المصباح اعتمادًا على الضوء الخافت المتسرب من زجاج الباب العلوى وعقب الباب وركز نظره عليهما، استمر الأمر لدقائق ولكن بدت كساعات طويلة حتى اضطر إلى العودة للرقود، وما إن سلم جسده للسرير حتى سمع صوت طقطقة بسيطة، ولكنه نهض على أثرها مفزوعًا، وكان الصوت يبدو صادرًا من المرآة التى قبالة سريره. اقترب منها ببطء ثم فجأة تكسرت صورته فى المرآة أثر تحطمها، وبدت صورته مقسمة إلى مئات الانعكاسات، لمح فى بعضها كما لو كان وجه أحمر بقرون ملتف يقف خلفه، فنظر خلفه فى رعب ولم يجد شيئاً، ثم فتح باب غرفته وتوجه إلى غرفة والديه مسرعًا، فتحت والدته الباب وقالت:

- «حبيبى إذا كنت تجد مشاكل فى الرقود وحدك يمكن أن أضع لك الألحفة بجوار سريرنا لتنام بجوارنا».

بدا (وليد) على هيئة طفل رعديد فقال محاولًا نفى الفكرة:

- «أنا فقط سمعت تحطم الزجاج فى مرآة غرفتى، وجئت أسأل عن مكان المقشة، كى لا تجرحنى أو تجرح أحداً».

ذهبت والدته إلى المطبخ وتناولت المقشة، حاول أن يتلقاها منها فرفضت إلا أن تقوم باختصاصاتها كأم ما تزال تخشى على ابنها من عدم الحرص فى الكنس فتبقى شظية وتجرحه.

دخلا سويًا الحجرة وعندما نظر إلى الزجاج كان سليمًا بلا خدش واحد، تلفتت الأم يمينًا ويسارًا وقالت وهو ينظر لها مبهوتًا:

- «أى مرآة تقصد؟».

لم يجد ما يقول سوى أن تراجع ليجلس على سريره عاقدًا يديه أمام وجهه ولا يخفى ارتعادهما فقالت الأم:

- «سأجهز لك الألحفة وتعال لتنام بجوارنا، ربما الجو بارد هنا وحجرتنا دافئة».

وفى حين كانت الأم تمشى إلى حجرتها حافية القدمين إذا بها تصرخ وتمسك قدمها التى انغرس فيها شظية صغيرة من بقايا كسر مرآة، نهض (مكرم) من سريره أثر صراخ زوجته التى جلست على الأريكة تتفحص قدمها وبجوارها (وليد) وكان الجرح صغيرا جدًا ولكنه ينزف بغزارة، انطلق الأب إلى الدولاب وأحضر لفافة من الشاش وبدأ يلف على الجرح الصغير فى قدم زوجته، فكانت بقعة الدم كلما دار باللفافة على القدم تبرز متدفقة باللون الأحمر القانى، وهنا قالت (فريدة) موجهة كلامها إلى زوجها وهى تعتصر ألمًا:

- «البيت به شيء ما خطأ يا (مكرم) يجب استشارة أحد يفهم فى مثل هذه الأمور».

هز الأب رأسه فى وجل وقلق حتى انتهت لفافة الشاش على قدم زوجته.

❐❐❐

فى المستشفى، وفى أحدى الحجرات، كانت تقف الممرضة إلى جانب الطبيب بجوار السرير الذى يرقد به (عماد) حيث كان يلف رأسه وتحيط بذراعه اليسرى جبيرة من الجص وآثار تورم فى وجنته، قام الطبيب بتفقد الأجهزة الموصلة به وقام بتفقد التقرير الطبى المعلق بجوار سريره ثم خرج من الغرفة. كان بالخارج عمته (صفية) وابنها الأكبر (سليم) متلهفين لمعرفة رأى الطبيب فقال لهما:

- «كسر بالذراع اليسرى واشتباه فى ارتجاج فى المخ، أرجو ألا يؤثر على قدرته على التذكر، يمكنكما الانصراف فالوقت متأخر جدًا الآن، والمفترض عدم وجود زيارات الآن، ولا أظن أنه سيكون هناك حاجة لوجودكما، غدًا يمكن التأكيد بشأن مسألة الذاكرة».

قالت (صفية) للطبيب وهى تربت على كتف ولدها:

- «رجاء يا دكتور سيبقى ابن عمته معه، على الأقل هذه الليلة كى يطمئن قلبنا».

قال الطبيب:

- «سيدتى أنا أقدر القلق، ولكن صدقينى لا جدوى من مبيت أحد، المستشفى بها كل ما يلزم».

انصرفت (صفية) على مضض وهى تقول لابنها:

- «(سليم) أرجو أن تكون عنده من الفجر، ابن خالك ليس له أحد الآن إلا أنت».

قال (سليم) بحزن:

- «بالطبع يا أمى، أنا مشفق جدًا على عائلة خالى التى أصابتها كل هذه المصائب مرة واحدة، أرجو أن يلطف الله بـ (عماد) ويفرج عنه ما به».

❐❐❐

بعد انتهاء اليوم الدراسى كان (وليد) و(ألين) يمشيان بصحبة بعضهما البعض كالعادة، وكان الوجوم على وجهيهما لا يمكن إخفاؤه ويبدو آثار التعب والإرهاق من قلة النوم، ويبدو أنه بعد صمت طويل قالت (ألين):

- «هل علمت ما حدث لـ (عماد) ابن أستاذ (سعيد) رحمه الله أمس؟».

طأطأ (وليد) رأسه فى أسى وقال:

- «نعم علمت، شفاه الله».

عادت تنظر إلى ملامحه التى لا تجدها على قدر الحدث:

- «هل تظن أن هذا الحادث مصادفة؟».

قال (وليد) بوجوم وبلهجة خاوية:

- «لا أظن».

قالت بأسى:

- «هل تعلم أننى لم أتذوق طعم النوم أمس، وأن الأذى بدأ يتعدى ليطال أخى الصغير».

قال بلهفة وقلق:

- «خيرًا، (إياد) به مكروه؟».

- «لقد أصابه ما يشبه الحمى وجلسنا أنا ووالدتى نطببه حتى الصباح، ناهيك عن الرعب الذى أعيشه يوميًا بعد منتصف الليل».

قال (وليد) بوجل:

- «أنا أيضًا طال الأذى والدتى، وجرحت أمس جرحًا غريبًا، لم يكن يستجيب للتجلط، ونزف كثيرًا».

عادت تنظر له وقالت:

- «وماذا نحن فاعلون؟ يبدو أنك أخطأت فى الانخراط فى هذه الحلقة الملعونة، ويبدو أننى أخطأت عندما أخذت منك الكتاب كى أخفيه».

قال (وليد) بحرج:

- «أنا آسف يا (ألين) لأنى ورطتك فى مثل هذا الأمر، لقد كان الأمر فى بدايته يشبه اللعبة، وصدقينى أول ما فكرت فيه - عندما وجدت كتاباً عتيقاً مثل هذا عن السحر - هو ما سمعناه فى الحكايات عن علاء الدين والمصباح السحرى[1] وتخيلت نفسى وأنا أحل مشاكلك ومشاكل الناس بالقدرات الخارقة، أنا أعلم أننى أحمق وعبثت فيما لا يجوز العبث معه، ودخلت فى حلقة ملعونة لا أعرف أبعادها، والأسوأ هو أننى -وبدلًا من حل مشكلاتك- جعلتك تتورطين معى فى مشكلات جديدة».

حاولت (ألين) أن تخفف من حدة الشعور بالذنب لديه فقالت:

- «أنا لا أقصد تحميلك أى مسئولية، هى مشكلتنا معًا وسقطنا فيها معًا قدرًا، والآن يتعين أن نحاول حلها دون إلقاء اللوم على أحد».

تهللت أسارير وقال:

- «قولى لى ما أفعل ولن أجادلك، ومبدئيًا أحضرى لى الكتاب غدًا

(١) القصة الخيالية الشهيرة التى تدور حول المصباح السحرى الذى يخرج منه جني يحقق طلبات علاء الدين والتى وردت فى كتاب ألف ليلة وليلة حيث أضيفت أليه دون أصل فى النسخة العربية، ففى القرن الثامن عشر قام المستشرق الفرنسى أنطوان جالان بترجم حكايات ألف ليلة وليلة ثم أضاف لها حكاية علاء الدين التى سمعها فى حلب، وعلى الرغم من كون الحكاية شرق أوسطية واشخاصها معظمهم مسلمون فإن أحداثها تقع فى الصين و يعتقد أن أحداثها من الممكن أن تكون وقعت فى تركستان.

لعل ذلك يخرجك من هذه الحلقة ولألقى وحدى ما كان مقدرًا لى أن ألقى».

قالت برقة و إشفاق:

- «لا يا (وليد) نحن معًا، ويجب أن ننهى هذا الأمر معًا، ولكن ربما يتعين علينا الاستعانة بأحد لديه فهم بطبيعة هذه الأمور، ويجب أن يكون مصدر ثقة، وهذا أهم شيء».

تهللت أساريره مرة أخرى لرغبتها فى مشاركته حتى لو كانت لعنة وقال:

- «لقد أخبرنى أبى أنه سيحضر لنا اليوم شيخاً جليلاً لرقية المنزل، ربما استطعت أن أحظى منه بأجوبة ولو بشكل غير مباشر، ولكن رجاء سأقابلك عند المنزل بعد المغرب لأخذ الكتاب منك، ربما يتعين إعادته حيث كان ولننظر ماذا سيحدث».

❐❐❐

كان (وليد) فى حجرته عندما عاد والده من العمل ومعه ضيف متوقع، فتح غرفته برفق فتبين أن الذى مع والده رجل كبير فى السن شعره بالكامل غطاه الشيب ولكنه لم ينقص كثيرًا، فبقى على نعومته وشئ من الكثافة، وله لحية بيضاء ناعمة مما منحه مظهرًا مريحًا، خاصة وهو يرتدى القفطان الأزهرى، جلس الرجل على الأريكة وقدمت له والدته

الشاى وهى تعرج على قدمها المربوطة، ثم نادى عليه والده فخرج وصافح الشيخ، فقدمه والده له وقال:

- «الشيخ (عدنان) من مشايخنا الأجلاء، وشيخ جامع الفردوس، ويريد أن يتحدث إليك يا (وليد)».

قرب الشيخ (وليد) منه وأجلسه بجواره وقال:

- «ماشاء الله، بارك الله فيه، إنه شاب يافع ويبدو عليه الصلاح، احك لى يا (وليد) ما الذى تراه فى كوابيسك أو فى يقظتك».

ابتلع وليد ريقه وقال:

- «أرى عناكب وكباشاً ويخيل لى أن أشياء تتحطم وهى سليمة كالمرآيا».

قال الشيخ ولم تكن ابتسامته الودودة فارقته:

- «هل تواظب على الصلوات فى موعدها؟».

قال (وليد) كاذبًا:

- «نعم، ولكن الأمر لا علاقة له بذلك، إنه أمر طارئ».

قال الشيخ مبتسمًا:

- «هل تحب الغناء فى الحمام أو أمام المرآة؟ أو ربما دخلت أنت وزملاؤك مكاناً مهجوراً وفزعت من شيء هناك».

قال (وليد) لينهى هذا النوع من الاستفسارات:

- «يا مولانا الأمر أكبر من مجرد هلاوس، لقد جرحت والدتى من شظايا الزجاج التى رأيتها تتحطم ثم وجدت الزجاج بعد ذلك سليماً، كما أن شريط القرآن تمزق فى الكاسيت مع تمام منتصف الليل».

هنا تدخلت الأم وقالت ما لم يكن (وليد) يعرفه بعد:

- «يا مولانا نحن أيضًا رأينا ما يشبه النار فى الردهة ثم لم نجد لها أثراً، وأصوات حوافر نسمعها جيدًا بعد منتصف الليل».

تلاشت ابتسامة الشيخ (عدنان) وقال:

- «حسنًا أريد بعض البخور والملح وسأقوم برقية البيت».

أشعل الشيخ البخور وأخذ يجول فى أرجاء البيت ويرش الملح فى الأركان وهو يتلو بعض الآيات على بعض من الدعاء بصوت رخيم، ثم عاد يجلس على الأريكة وقال:

- «أشعر والعياذ بالله أن هناك رصدًا فى المكان، وهذا أكبر من مجرد مداعبة قرين من الجن».

ثم توجه بالسؤال إلى (وليد) وقال:

- «هل أنت متأكد أنك لا تريد أن تشاركنى بشىء قمت به جلب على عقبيه هذا الشر؟».

نظر (وليد) إلى والديه مرتابًا ثم قال:

- «لا شيء».

تنهد الشيخ وقال لوالدته:

- «وأنتِ يا سيدتى هل لكم معارف أو أقرباء يحقدون عليكم ويتعاملون فى مثل أمور الشعوزة والأعمال والسحر؟».

قالت الأم عاقدة حاجبيها:

- «والعياذ بالله، لا نعرف أحداً يتعامل فى مثل هذه الأشياء، ولا أظن أننا هدف لأحد يكرهنا ليجلب علينا شرًا كهذا».

قال الشيخ الذى تبددت إبتسامته تمامًا:

- «هذه الأمور لا تحدث فجأة أو من تلقاء نفسها، حسنًا برجاء المواظبة على تشغيل وقراءة سورة البقرة والأذكار التى سأكتبها الآن بعد كل صلاة، كما يجب الحرص على تهوية المنزل وبدر الملح فى الأركان، ويجب أن يمر علي (وليد) غدًا فى المسجد بعد صلاة العشاء، سوف أتأكد من شيء، وأرجو أن تكون هذه الأعراض اختفت».

❐❐❐

الفصل الرابع

فى عمق اللعنات

بعد أذان المغرب كان (وليد) يقف تحت نافذة (ألين) فى الدور الأول يصفر صفارة معينة، خرجت على أثرها وفى يدها اللفافة السوداء، اشرأب (وليد) بيده والتقط اللفافة السوداء التى تحتوى على الكتاب الذى كان على ما يبدو مدفونًا فمسح من عليه أثار الطين فقالت له:

- «ما ستقوم به مخاطرة كبيرة أرجو أن تكون عالمًا بما تفعل».

ابتسم لها وقال:

- «إنها مدرستى منذ الطفولة وأعرف كيف أدخل وأخرج بسهولة».

- «بالتوفيق ان شاء الله».

ابتسم لها ابتسامة الأبطال وانصرف وهو يحمل لفافته فى يد وفى اليد الأخرى كان يتحسس فى معطفه مطواة صغيرة كان قد اشتراها خلسة من أحد أصدقائه فى المدرسة، لم يكن من تلك الطائفة التى يمكن أن تتشاجر بالمطواة ولكن كان شكلها وزخرفتها يعجبه، كما أن الحصول

على واحدة كان ينتشر خبره بين الطلاب بما يصنع شكلاً من اشكال الهيبة للطالب الذى يمتلك واحدة، حتى و إن لم يستعملها أو حتى يحملها معه، وها هى قد حلت فائدتها، كان يتلفت يمينًا و يسارًا كاللصوص قاطعًا طريقه إلى المدرسة حتى وصل. كانت المدرسة مغلقة والخفير بالداخل فى حجرته بجوار الباب يحرق أكواب الشاى فى وصلات لا تنقطع ليسهر ما قدر له أن يسهر، اقترب (وليد) من السور الخلفى الذى كان عبارة عن جدران من الخرسانة يتخللها أعمدة رفيعة من الحديد الذى تحوطه الشجيرات، توجه إلى رقعة يعرفها كانت الحديدة فيها منفصلة مما يعطى مساحة تمكن من المرور بشكل جانبى بين أعمدة السور، نجح بالفعل فى الولوج إلى حوش المدرسة الصامت، ألقى من بعيد نظرة على حجرة الحارس التى كانت تضئ بنور ناعس، ثم توجه إلى المنطقة الخلفية من المبنى الذى به حجرة المدير، كان هناك ماسورة كبيرة تمتد بجوار النافذة التى فى الحجرة و بها حلقات حديدية تسهل التسلق، وكان المكتب فى الدور الثانى مباشرة، وضع (وليد) الكتاب فى طيات ملابسه و بدأ يتسلق الماسورة حتى وصل للنافذة فأخرج مطواته من جيبه وفتحها بصعوبة فصارت ضعف حجمها، ثم بدأ يدسها من بين فرجات شيش النافذة ورفعها لأعلى فانفتح المزلاج، دفع الشيش برفق ثم انزلق بخفة فأصبح داخل المكتب، أوقد المصباح وتوجه إلى الدولاب الذى فى وسط الحائط المقابل للمكتبة وفوجئ أن زجاجه محطم، تقدم منه بحذر ووجد الخزانة السرية مفتوحة، انتفض قلبه وظن أن المدعو (عبد المريد) هو الذى فعل

ذلك بحثًا عن الكتاب، هم أن يتراجع عن إعادة الكتاب ثم فكر قليلًا، لو كان هذا الرجل بحث هنا ولم يجد الكتاب فمن المستحيل أنه سيعاود البحث فى نفس المكان، من الجيد أنه لم يكن الكتاب موجوداً عندما وصلت يده إلى هنا، أخرج الكتاب من طيات ملابسه فى لفافته السوداء ومد يده فى الرف السرى ودسه كما كان وأغلق الرف وحاول توضيب بعض الكتب أمام الرف المخفى كى لا يلحظه أحد إذا ما حاولوا تغيير الزجاج المتحطم.

❐❐❐

انتبه حارس المدرسة إلى نقرات على الباب الصغير فتوجه إليه وكان على الباب الأستاذ (عصام) وكيل المدرسة، فتح له الحارس الباب الجانبي فدلف إلى الداخل قائلًا:

- «سامحنى يا عم (عويس) للازعاج ولكن لأنه كان معى بعض الأمور يتعين الانتهاء منها صباحًا فلم آت إلى المدرسة اليوم، وبالطبع بعدما سمعت بخبر حادث (عماد) أمس كان يجب أن آتى لأتفقد أشياء كان قد سألنى عنها أمس مفقودة فى حجرة المكتب، وذلك قبيل الحادث بدقائق».

قال الحارس بلهجته الريفية:

- «تفضل يا أستاذ (عصام) إنه مكانك».

أحضر الحارس المفاتيح الخاصة بأبواب المكاتب وتقدم معه حيث المبنى الذى به مكتب المدير. مد يده فى سلسلة المفاتيح وأخرج مفتاح المكتب وفتح الباب. تدلى فكاهما من الدهشة حيث كان بالداخل يقف (وليد) على أعتاب النافذة يهم بالنزول وأمامه الدولاب محطم الواجهة الزجاجية.

❐❐❐

نهض (مكرم) ليفتح الباب الذى كان يطرق،فكان قبالته (وليد) و(عصام) الذى كان يعرفه معرفة جيدة، رحب به الأب ونظر مرتابًا إلى (وليد) الذى كان منكس الرأس وكان متعجبًا من عودة ابنه بصحبة وكيل المدرسه وقد كان فى الخارج لأداء صلاة المغرب فى المسجد.

سأل (عصام) عن ما يريد كمشروب فقال له:

- «لا داعى سأنصرف على الفور، أستاذ (مكرم) أنا لا أعرف كيف سأبدأ ولولا أننى أعرفك معرفة جيدة والمفترض أننى أعرف (وليد) منذ كان طفلًا لكان لى شأن آخر».

ابتأس (مكرم) ونظر إلى (وليد) الذى انعقد لسانه وقال:

- «خيرًا يا أستاذ (عصام)؟».

توجه بوجهه ناحية (وليد) وأشار قائلًا:

- «هل تدرى أين كان (وليد) منذ قليل؟».

قال الأب بتعجب:

- «كان يصلى المغرب فى المسجد».

قال وهو يهز رأسه فى أسى:

- «(وليد) كان يصلى المغرب فى حجرة مدير المدرسة، تسلل عبر السور وتسلق المواسير وكسر الدولاب الذى فى حجرة المدير ليفتحه».

نطق (وليد) بعفوية:

- «أنا لم أكسر الدولاب».

نظر له والده نظرة نارية ألجمته الصمت فعاد (عصام) يقول:

- «لقد كنت أتخيل أن حادث الكتاب به سوء فهم أو فضول، غير أن الأمر تعدى كل الحدود، وأرجو ألا يكون هناك أشياء أخرى لا نعرفها عنه كالتدخين أو المخدرات، أستاذ (مكرم) يجب أن تصنع معه جسرًا للحوار ومراقبة جيدة حتى لا يتفاقم الأمر أكثر من ذلك، هذا هو العمر الذى تتحدد فيه أخلاق الشاب، وأرجو ألا يكون الأوان قد فات».

نهض (عصام) منصرفًا وهو يقول:

- «أرجو المعذرة لأنى غدًا سأكون بصدد تحضير جواب فصل لمدة أسبوع لـ (وليد)».

❐❐❐

كانت (ألين) تنتظر فى حجرتها سماع صفارة (وليد) بعد إنجاز مهمته وتغدو وتروح على النافذة كثيرًا ولكن مر الوقت دون استجابة، واعتراها القلق، لأن (وليد) لو كان أنجز مهمته لعاد يبشرها، لم يكن فى شقتهم هاتف لتتصل به ولا يسعها سوى الانتظار للغد فى المدرسة لتعرف، ترى هل كان من الصواب إعادة الكتاب إلى مكانه؟ وماذا لو تمكن منه أناس أشرار لا يعلم إلا الله ماذا سيفعلون به؟ أو أن (وليد) كذب عليها لمجرد أن يأخذ الكتاب منها و يبعد عنها الأذى دون أن يعيده؟

اقتربت الساعة من العاشرة ولم تسمع الصفارة، كان أخوها الصغير يدخل فراشه للنوم فاضطرت إلى إغلاق النافذة وذهبت للنوم، كانت متعبة للغاية فغلبها النعاس، حتى دقت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، تنبهت قليلًا على دقات الساعة وكانت عيونها يخمرها النعاس وعندما تقلبت على جنبها فى مواجهة سرير أخيها الصغير ووجدت فراشه خاليًا، انتفضت من نومها مفزوعة فوجدت الهواء قد دفع الشباك الذى لم يكن محكم الإغلاق فأنفتح على مصراعيه. توجهت إليه وعندما نظرت إلى الشارع وجدت (إياد) أمام المنزل حيث كان يوجد أحواض من الزرع أمام سلم لبناية كانت قد أخفت الكتاب فيها، كان أخوها يحفر بالمثل فى نفس المكان، انطلقت من غرفتها ونزلت ببيجامة النوم إلى الشارع، فى الشارع الخالى الذى نعس الضوء فيه، أخذت تتلفت يمينًا و يسارًا ولم يكن لأخيها أثر فى الشارع، تقدمت من نهر الطريق تنظر على امتداده، ثم ضوى كشاف ذلك التاكسى الذى اقترب منها ونزل منه

فجأة رجلان ملثمان وكمما فمها بمنديل. فقدت الوعى فدفعاها إلى داخل التاكسى الذى انطلق و يقبع على عجلة قيادته يد تفتقد أصبعًا، يد (عبد المريد).

❐❐❐

كان (وليد) يرقد على سريره لم يخالطه النوم يفكر فى مدى ما وصلت إليه الأمور من سوء، وكيف عنفه والده ووالدته، وكيف أصبحت صورته أمام أستاذ (عصام)، والتى ربما تتسرب إلى المدرسة كلها، وكيف هى صورته أمام (ألين) كجالب للمشاكل واللعنات، وعندما دقت الساعة لتعلن منتصف الليل، تنامى إلى سمعه ما يشبه بكاء طفل يأتى من مكان عميق، لم يكن فى العمارة أحد لديه مولود ومعظم الشقق إما كبار فى السن أو مغلقة لسفر أهلها، حاول أن يضع الوسادة على أذنيه لتجنب الصراخ ولكن لم يكن لتغطية الأذن أى أثر وكأن الصوت ينبع من رأسه هو. يبدو أن الألعاب الليلية قد بدأت، تجاهل الصوت وأغمض عينيه فخفت الصوت وتلاشى، ولكن ما هى إلا ثوان وشعر وكأن شيئًا ما يعبث بسلة المهملات تحت مكتبه فى الغرفة كما لو كان فأرا أو قطة، نهض من رقدته يتفقد بعينيه تحت مكتبه وهو ما يزال جالسًا على سريره، وفى ضوء الحجرة الخافت لمح ما يشبه القزم الصغير النحيف محنى الظهر بشكل يظهر فقرات عموده الفقرى وعارى الجسد وكأنما يأكل شيئًا ما تحت مكتبه، انتفض يضئ نور الحجرة وهو يصرخ بالتكبير والتسبيح، ولكن عندما أضاء النور لم يكن تحت المكتب شىء، أخرج من تحت الوسادة

الورقة التى كتبها له الشيخ (عدنان) وبها بعض التسابيح وأخذ يتلوها بصوت مرتفع، ثم طواها وأعادها تحت وسادته، وعاود الرقود ولكن ترك النور مضاء، أغمض عينيه متجاهلًا ثم فتحها فى رعب عندما كان المصباح قد انطفأ من تلقاء نفسه، أنتفض من مكانه وخرج من حجرته ثم جلس فى الردهة على الأريكة التى كانت من القطيفة الحمراء، على حين كان يسند يده عليها شعر بشيء من البلل وعندما تفقد يده كانت الدماء تقطر منها وكأن يد الأريكة مخضبة بالدماء، أخذ يستعيذ بالله من الشيطان بصوت مرتفع خرج على أثره والداه من حجرتهما، كان يمسك يده يتفقد إذا ما كانت مجروحة، فبادره والده قائلًا:

- «ما بك، هل هى الكوابيس مرة أخرى؟».

رفع يديه التى كانت تقطر دمًا أمامهما فكانت نظيفة تمامًا، فأغمض عينيه فى غيظ وحرج، تقدمت والدته منه بفزع لترقده على الأريكة وترجع رأسه إلى الخلف حيث كانت أنفه تنزف، أحضر والده فوطة صغيرة ووضعها على أنفه ليستوعب الدم النازف. شعر (وليد) بالغثيان فسانده والده إلى الحمام فأخذ يحاول إفراغ معدته ولكن دون جدوى، غسل أنفه وسانده والده إلى سريره وظل هو ووالدته بجواره على سريره حتى ساعات الفجر عندما أطمأنا أنه غلبه النعاس.

❐❐❐

تسلل الضوء اليسير للصباح إلى النافذة التى بحجرة (عماد) فى المستشفى

وكان موعد مرور الطبيب بصحبة الممرضة لتفقد حالته، قرب الطبيب أذنه إلى فمه وقال:

- «صباح الخير، هل يمكنك سماعى».

أصدر (عماد) غمغمة غير مفهومة، ثم فتح عينيه ببطء، فقال له الطبيب:

- «هل تعرف فى أى شهر نحن؟».

قال بصوت مبحوح:

- «تسعة».

تشجع الطبيب وقال:

- «هل تستطيع العد من واحد إلى عشرة بالمقلوب».

قال بصوت مجهد:

- «تسعة، سبعة، ستة.. (وليد) أريد (وليد)».

عاود الطبيب يقول:

- «أريدك أن تلمس بيدك اليمنى أذنك اليسرى».

حرك (عماد) ذراعه السليم ناحية أذنه وأعادها فى أجهاد وهو يقول:

- «(وليد)، مدرسة».

خرج الطبيب من الحجرة وكان بالخارج ابن عمته، أقبل على الطبيب متلهفًا ليسأله عن الأخبار فقال له الطبيب:

- «هو يبدى استجابة إلى حد ما برغم الغياب الجزئى للادراك وأظنه سيستعيد حالته الطبيعية مع الوقت مع مراعاة عدم إجهاده بأى شىء حتى لو كان بالقراءة، وبالطبع أى ضغوط حياتية، أنت (وليد) أليس كذلك؟».

رد قائلًا بتعجب:

- «أنا اسمى (سليم)، ابن عمته».

قال الطبيب متعجبًا:

- «ومن (وليد)؟».

- «لا اعرف قريب لنا اسمه (وليد)».

- «ربما زميله فى المدرسة لأنه ذكر المدرسة، على أى حال يفضل أن تبلغه لزيارته لعل ذلك يحسن من قدرته على التذكر لأنه طلبه كثيرًا».

❐❐❐

عندما دقت الساعة السابعة كانت والدة (ألين) تقبل على حجرتها كى توقظها للمدرسة وعندما فتحت الباب لم تجد سوى ابنها فى سريره وكان سريرها خاليًا، خرجت الأم تبحث فى أرجاء الشقة عن ابنتها ثم عادت لتوقظ (إياد) فسألته عن أخته فأجاب بعدم العلم. لطمت الأم خديها

وارتمت على المقعد فى رعب، ثم نهضت وأبدلت ملابسها وأخذت (إياد) فى يدها ونزلت الشارع، أخذت تجول ببصرها فى نواحى الشارع وأخذت تسأل البائعين بالجوار ولم يكن رآها أحد. أخذتها الخطى ناحية المدرسة ووقفت أمامها تتفقد الطلبة الذين بدأوا فى التوافد على المدرسة فى لهفة وبداية بكاء حتى لمحت أستاذ (عصام) فتوجهت نحوه مسرعة وحاولت أن تخفى دموعها وقالت:

- «أستاذ (عصام) معذرة ولكن ابنتى (ألين) خرجت مبكرًا ولكن بعد نزولها تذكرت شيئًا مهمًّا يجب أن أبلغه لها، هل يمكن أن تنادى عليها فى الاذاعة المدرسية لتحضر لى عند الباب؟».

تعجب (عصام) من طلبها ثم استجاب لها وصعد إلى الميكروفون وأذاع به أن على الطالبة (ألين) التوجه ناحية باب المدرسة، وعندما عاد إلى الأم لم تكن هناك استجابة فقال لها مطمئنًا:

- «ربما لم تأت المدرسة بعد، لعلها بالجوار مع صديقها ينتظران موعد الطابور».

قالت الأم بلهفة:

- «ما اسم هذا الصديق وهل هو موجود؟».

قال لها بخيبة أمل:

- «لن يأتى للمدرسة اليوم، هل هناك خطب ما؟».

قالت الأم بيأس:

- «هل تسمح أن تخبرنى عنوانه وأسمه».

أخبرها باسم وعنوان (وليد) فانطلقت إلى منزله مسرعة.

□□□

كان (عصام) يجلس فى مكتبه حينما دخل عليه (سليم) ابن عمة (عماد) يسأله عن موظف فى المدرسة أو شخص له علاقة بها اسمه (وليد) فقلب كفيه وقال:

- «لا يوجد موظف اسمه (وليد)، يوجد طالب لا أظن أن هناك مشكلة إلا وله علاقة بها، إذا كنت تبحث عن شيء مفقود فمؤكد له علاقة بالأمر».

قال (سليم) متعجبًا:

- «هل هناك شيء ما يربطه هذا الطالب بـ (عماد)».

مط (عصام) شفتيه وقال:

- «ليس مباشرة، ولكن هناك على ما أظن كتاب خاص بـأستاذ (سعيد) عليه رحمة الله، عليه أقاويل كثيرة وأظن أن (وليد) تعامل معه بشكل ما، ولكن لماذا تسأل؟».

- «حالة (عماد) يجب أن يتم ربطها بالوعى لتتحسن وقد طلب رؤيته أول ما بدأ فى الكلام، هل من الممكن أن تناديه وأستأذنه ليرافقنى إلى المستشفى؟».

- «مع الأسف هو ليس بالمدرسة اليوم لظروف خاصة، يمكن أن تزوره فى البيت فهو قريب من المدرسة لو كان الأمر يستدعى».

وصف (عصام) العنوان لـ (سليم) فانصرف متوجهًا إلى منزله.

□□□

كان (وليد) يتناول إفطارة فى المنزل وكان والداه يستعدان للذهاب إلى العمل، حتى سمع دقات الباب، توجه (وليد) إلى الباب، حيث كانت والدة (ألين) وبجوارها (إياد)، كانت سيدة فى الأربعين من العمر شديدة البياض، يظهر من حجاب رأسها بعض الخصلات الذهبية، وبها مسحة من جمال أرهقتها السنون، لم يكن رآها من قبل، ولكن استطاع تمييز ملامح (إياد) التى لمحها من النافذة بضع مرات، بشعره البنى الذى ينسدل كدائرة ناعمة فوق وجهه الأبيض الصغير، وملامحه الدقيقة. قالت له بلهفة وبلكنة شامية:

- «مؤكد أنت (وليد)، أنا (زهرة) والدة (ألين)، ألم تنزل للمدرسة بعد؟».

رحب بها وتهلل لرؤيتها، وصافح الصغير، وطلب منها الدخول. أقبلت والدته ووالده لمصافحتها، متعجبين من زيارتها فى مثل هذا الوقت، فقال لها (وليد):

- «أنا لدى ظروف اليوم ولن أستطيع الذهاب إلى المدرسة، هل هناك أمر ما؟ هل (ألين) بخير؟».

ارتمت على الأريكة وقالت وهى شبه باكية:

- «عندما استيقظت صباحًا لم تكن فى سريرها ولا أعرف أين هى».

تسارع نبض (وليد) لأقصى حد وجحظت عيناه وقال (مكرم):

- «أهتد بالله يا سيدتى و إن شاء الله خير، يمكننا الاستعانة بالشرطة و إن شاء الله نجدها».

قالت بأسى:

- «أنا فلسطينية، وتصاريح إقامتنا منتهية ولا أظن يمكننا الاستعانة بالشرطة المصرية، آمل أن يكون بالأمر سوء فهم أو معلومة لا أعرفها، فكرت لو أن (وليد) يمكن إفادتى فهو زميلها بالصف».

ابتلع (وليد) ريقه وقال ووجهه يكاد ينفجر من الاحمرار:

- «لقد كانت آخر مرة رأيتها أمس عند المغرب فى شباك المنزل، ربما خرجت مبكرًا لتحضر شيئًا قبل اليوم الدراسى وآثرت عدم الازعاج».

فقال (مكرم):

- «لا يكن لديكٍ شك أننا سنعتبرها ابنتنا وسأعتذر عن العمل اليوم وسأقوم بالبحث عنها، ومن هنا حتى الليل ربما توصلنا لشىء».

نهضت وهى توصيهم بالتواصل معها عند منزلها الذى يعرف (وليد) عنوانه.

مالبثت أن انصرفت ولم يكد والده يلتف ليسأله حتى سمع طرقات

الباب مرة أخرى، على الباب كان (سليم) الذى قدم نفسه كقريب (عماد) وعندما رأى (وليد) قال له:

- «(وليد) سأطلب منك طلباً قد يبدو سخيفًا ولكنى ألتمس كل ما من شأنه مساعدة (عماد)».

قال (وليد) الذى لم يكن فارقه الوجوم:

- «تفضل».

- «(عماد) أصيب فى حادث لعلك تعلم ونخشى أن يكون ارتجاجًا فى المخ لذا يجب أن نبقيه على اتصال بالوعى، ولقد تمتم باسمك فورما أفاق، لو لم يكن فيها ثقل عليك، هل تمانع فى زيارته لعله يسترجع شيئًا من الوعى بالحديث معك، ولا تقلق سوف أصطحبك بسيارتى وسأعيدك للمنزل».

أشار له والده قائلًا:

- «بالطبع يا (وليد) زيارة المريض واجب، ولا تقلق بخصوص زميلتك سأبحث عنها حتى أجدها».

استسلم (وليد) ونزل مع (سليم) الذى اصطحبة إلى المستشفى.

دخل إلى حجرة (عماد) الذى تهلل لرؤيته وأشار إلى ملابسه المعلقة على شماعة بجوار الباب فتوجه (سليم) حيث أشار وأحضر له ملابسه فمد يده غير المربوطة إلى بنطاله وأخرج المظروف الذى يحتوى على رسالة والده ومفتاح بيت أبيه وناوله لـ(وليد) وقال بصعوبة:

- «اقرأه وحدك، مذكرات، بيت أبى، وحدك».

كان يكافح للكلام فقال له (سليم) كى لا يجهده:

- «لا تقلق سيكون كل شىء على ما يرام، مذكرات فى بيت أبيك تريد منحها له».

عاد يقول بصعوبة:

- «وحده».

كرر (سليم) قائلًا:

- «وحده مفهوم، المهم أن هذا هو (وليد) الذى طلبته، والمهم أنك تتذكره».

هز رأسه بعد أن ارخاها فى ارتياح، كان (وليد) ما بين صدمة اختفاء (ألين) وبين معرفة (عماد) له واختصاصه بشىء ما وهو بالكاد قابله مرة واحدة، فكان يبدو كالمخدر حتى وضع (سليم) يده على كتفه يصحبه للخارج.

فى سيارة (سليم) قال له:

- «هل تحب أن أحضر لك المذكرات من منزل خالى الآن، ربما تحتاجها فى الاستذكار».

كان (وليد) ما يزال مبهوتًا مما فسره (سليم) أنه قبول فتوجه إلى بيت (سعيد).

فتح المنزل بالمفتاح الذى أعطاه (عماد) له وصعد إلى مكتب خاله وأخذ يبحث فى الأركان على ما يبدو ملازم ورقية ومذكرات دراسية دون جدوى، ثم فتح أول درج من المكتب ووجد أجندة ففتح صفحتها الأولى وكانت بعنوان (مذكرات سعيد جمال)، لوح بها لـ (وليد) وقال:

- «ترى هل هذه هى المذكرات التى يقصد، غريبة، إلى هذا الحد أنتما أصدقاء، مع أن (عماد) كل دراسته بالخارج، وأنا شخصيًا بالكاد أعرفه، حسنًا يا أستاذ (وليد) تفضل المذكرات، وحدك، ولو كان فى الأمر ثقل عليك أرجو أن تكرر له الزيارة كلما استطعت، سأعطيك هاتف منزلى لتحادثنى وقتما تريد وسأوصلك إليه كما اليوم».

تناول (وليد) المذكرات وهو ما يزال صامتًا حتى نزل مع (سليم) ليوصله إلى منزله، وبالقرب من المنزل سمع آذان الظهر فطلب منه أن ينزله عند مسجد (الفردوس) وسيكمل هو بعد الصلاة إلى منزله القريب.

انتهى من الصلاة فى المسجد ثم توجه إلى الشيخ (عدنان)، ابتسم الشيخ عندما رآه وقال:

- «شيخنا (وليد) ما الأخبار بشرنى؟».

قال (وليد) بشفاه تكاد تكون ملتصقة من قلة الكلام وجفاف الحلق:

- «لست بخير».

اقتضب جبين الشيخ (عدنان) وقال:

- «لا حول ولا قوة إلا بالله، حسنًا تعال معى إلى البيت خلف المسجد، ربما نجد حلًا».

اصطحبه الشيخ إلى منزله وصعد معه الدرج الضيق إلى شقته الصغيرة وأدخله حجرته وطلب من أهله أن يعدوا له ما يشرب وتركه فى حجرته لحظات، كانت الحجرة ذات طلاء أخضر متقشر وبها دولاب طويل يعج بالكتب وبها كنبتان متقاطعتان من الكنب الأسيوطى عليهما مخادع من القماش القديم المزركش، وكان حامل المصحف على المنضدة التى تتوسط الحجرة، أرخى (وليد) يده بالمذكرات جانبه وفتح المظروف ليطالع الخطاب، وعندما انتهى من قراءته بدأ قلبه يخفق بعنف حتى دخل عليه الشيخ حاملاً صينية من الألومنيوم وعليها كوب الشاى المزركش، وقال وهو يجلس جانبه:

- «يجب أن تفض الوجه العابس هذا، لكل داء دواء بإذن المولى».

أعاد (وليد) الخطاب إلى جيبه وعاد يمسك بالمذكرات وقال:

- «سأقص عليك كل شىء».

❐❐❐

كان (مكرم) يقود سيارته بجواره زوجته وفى الخلف والدة (ألين)، و(إياد) بجوارها حيث توقفوا أمام مستشفى ونزل مسرعًا إلى الاستقبال

حيث سأل عن مواصفات (ألين) علها تكون بالمستشفى، ولكن يبدو أنه لم يكن هناك معلومة فعاد إلى سيارته فى يأس يجيب على لهفة والدتها بأنه سيواصل البحث فى مكان آخر، فكانت تضع يدها على خديها تكتم بكاءها، ويمسك صغيرها فى ذراعها، وكأنه يستمد أمانه منها.

❐❐❐

أصابت الشيخ (عدنان) حالة من الاستعاذة عندما انتهى (وليد) من السرد فأخذ يستعيذ بالله من الشيطان أكثر من ست مرات ثم قال:

- «ولماذا يا بنى أدخلت نفسك فى مثل هذه الأمور؟ (عبد المريد) الذى تتحدث عنه يشبه مواصفات رجل أعرفه وأظن أن اسمه الحقيقى (خميس) وهو رجل والعياذ بالله يعمل فى السحر الأسود والأمور السفلية وكم عانى منه من رجال وسيدات، منهم من استطعت مساعدته ومنهم من بلغ به الضرر مبلغًا، وله علاقات قوية جدًا حيث يستعين به المخبرون فى الوصول إلى أماكن بعض المسروقات وتقفيل بعض القضايا، بل وبعض الفنانين وشيوخ قبائل من بلدان مختلفة، أما الكتاب الذى تتحدث عنه والذى يدعى كتاب (ماروت) فللحق هى أول مرة اسمع به، كتب السحر الشهيرة التى أعرفها مثل شمس المعارف الكبرى الذى ينسب تأليفه إلى أحمد بن علي البوني المتوفي سنة ٦٢٢ هـ ويتعلق بالجن والسحر وهو كتاب ممنوع في كثير من الدول الإسلامية لما فيه من نصوص لتحضير الجن وهي أمور محرمة في الشريعة الإسلامية، ويحتوى هذا الكتاب على مزيج من

المعلومات المفهومة وغير المفهومة للشعوذة وتحضير الجن، وفيه وصفات خطيرة، وشعوذة كثيرة و(البوني) معروف عند المهتمين بالروحانيات والسحر، وله مؤلفات في هذا الميدان، مع مرور العصور أصبح هذا الكتاب مرجعًا أساسياً لكل من يريد أن يمارس الشعوذة والاستعانة بكيانات روحية ذات قدرات خارقة مزعومة وتأثير على حياة البشر، ويستخدم الكتاب معتقدات إسلامية بشكل شعوذة كتضمين نصوص مقدسة من القرآن في هذه الممارسات، وهذا يثير مخاوف علماء الدين لأن هذه الممارسات قد تتضمن أقسامًا لاسماء أعجمية وهذا يعتبر «شركًا بالله» للاستعانة أو تمجيد كيانات غير الله، كما يمكن أن تكون هذه الممارسات موجهة للشر أو للإضرار بالآخرين مستخدمة سور وآيات القرآن».

ابتلع (وليد) ريقه وقال:

- «لااظن أن هذا هو الكتاب الذى وجدته، حيث إن الأحرف لم تكن عربية، كما أنه مكتوب فى ورق يشبه الجلد وطباعته بارزة».

قال الشيخ بيأس:

- «هناك كتاب هو أقرب للأسطورة من الحقيقة هو كتاب العزيف للمدعو عبد الله الحظرد[1] دعنى أحضر لك مرجعًا عنه».

(١) كتاب العزيف أو باللاتينية Necronomicon والذي تحدث عنه لافكرافت كاتب الرعب الشهير وعن مؤلفه الحظرد وهو شاعر عربي يمني مجنون، يقال أن كلمة الحظرد تمثل لقبا مثل سيد أو أمير.

أخذ الشيخ (عدنان) يبحث فى أكوام الكتب وأخرج مجموعة من الكتب القديمة صفراء الصفحات التى انفرط بعض مخيطها فتفكك الغلاف عن صفحاتها أخذ يقلب حتى وصل إلى مبتغاه فتناول عوينات القراءة وأخذ يتلو قائلًا:

- «أصول الكتاب ترجع إلى كتاب الموتى[1] الفرعونى الذى ترجم إلى الإغريقية بواسطة ثيودور فيلاتاس وأخذ اسم نيكرونوميكون من وقتها وأحرقت هذه النسخة بواسطة البطريك مايكل الأول في عام ١٠٥٠ ومن ثم ترجم الكتاب على يد مترجم وكاتب يوناني اسمه تيودر فيليتاس إلى اليونانية، وفي عام ١٢٣٢ أمر البابا آنذاك أن تتم حرق كل النسخ وبمنع تداوله، بعد هذا بوقت طويل وتحديدًا في فترة إخراج العرب قسرًا من الأندلس، احتك راهب اسمه «فيرمياس» كثيرًا في الثقافة العربية وسمع عن وجود نسخة من هذا الكتاب في مكتبة الفاتيكان وهي المكتبة التي أدرك أنها تحتوي على كل شيء،

(١) ذكرت الاوديسا وجود بعض ممارسين لهذا الفن في اليونان منتقلًا إليهم من مصر الفرعونية لارتباط الحضارتين تاريخياً وسياسياً ببعضهما البعض، وهذا القول مؤيد بقوة لأن الفراعنة القدماء كانوا على دراية كاملة بعلم تشريح الموتى والتحنيط كما تؤكد رواية اعتماد الحظرد على كتاب DE Mysterriis Egyptorum الفرعونى الموجود بمكتبة الفاتيكان الذى يرجع اصول هذا الفن في مصر الفرعونية، كما يذكر ستاربو وجود النكرومانسى في أرض الامبراطورية الفارسية القديمة وذكرت بعض الأسفار للعهد القديم لليهود تحذيرات من الكنعانيين الممارسين لهذا الفن (٦,١ و٦,٢).

وبطريقة ما حصل على كتاب النيكرونوميكون وترجمه إلى اللاتينية، ولكن أمر الكتاب تسرب وألصقت تهمة «الهرطقة» بالرجل ونفذ فيه حكم الإعدام، ومع ذلك سربت نسخ كثيرة من الكتب إلى درجة أنه أطلقت كلمة «نكرومانسر» على من يتدارس فيه، وكان من ضمن هؤلاء «نكرومانسر» محترف وهو يهودي اسمه (يعقوب اليتزر) ترجم الكتاب إلى العبرية واسماه «سفر هاشاري حاداث» أو بالعربية كتاب بواب المعرفة وكان ذلك في عام ١٦٦٤، انتقل الكتاب وكتب عنه عدة سحرة من ضمنهم ناتان غزة Nathan of Gazza ومن دراسته تأثر بها ساحر شهير اسمه «دي»[١] تجرأ وترجم الكتاب إلى الانجليزية واسماه (إينوخ) وزعم فيه أنه التقى بالكيانات القديمة ووجد شفرة يستطيع بواسطتها أن يتحدث معهم، وقعت ترجمة «دي» لكتاب نيكرونوميكون بيد أشهر ساحر في العصر الحديث وهو اليستر كراولي Aleister Crowley، تأثر اليستر كرولي كثيرًا بشخصية «الحظرد» لدرجة أنه تقمص شخصيته وسافر إلى كل مكان يعتقد أنه ذهب إليه وفي عام ١٩١٨ تعرف (كراولي) على امرأة يهودية ألا وهي (سونيا جرين) والتي أغرم بها وحكى لها عن تجاربه وعن نيكرونوميكون وكل ما مر به من تراجم. وظلا فترة متحابين إلى أن انفصلا، ثم تزوجت

(١) الساحر البريطاني (دانييل دي) ومن المفاهيم الأساسيه في كتاب إينوخ أن هناك عشرين شيطأنا جاءوا الأرض وتزوجوا بنات البشر فأنجبوا ذرية مخيفة.

سونيا من كاتب الرعب الشهير (لوفكرافت)[1] الذى تحدث عن شخصية الحظرد، ولد الحظرد في صنعاء في شبابه سافر كثيرًا إلى أطلال بابل، خلال أسفاره تعرف إلى مجموعة من الناس كانوا مستقرين في مدينة بغداد هؤلاء الناس أصلًا من الكلت أو الفايكنج قاموا بإنشاء مجتمع خاص لهم ومنغلق تمامًا حتى إن الإسلام لم يدخله وأطلق عليهم اسم الصابئة، (الحظرد) كان يزورهم كثيرًا لدرجة أن أفكاره تأثرت بهم، من بغداد ذهب إلى الربع الخالي وهناك استقر عشر سنين زعم فيها أنه اكتشف بقايا مدينة إرم وهي المذكورة في القرآن الكريم أنها (إرم ذات العماد) والتي تقع في منطقة الأحقاف مابين وادي حضرموت وعمان وهي مدينة سيدنا عاد عليه السلام والتي يقال إن قاطنيه هم من

(١) هوارد فيليبس لافكرافت (بالإنجليزية: Howard Phillips Lovecraft) هو كاتب وروائي أميركي اشتهر بكتابة قصص الرعب والخيال العلمي. في ٢٠ أغسطس ١٨٩٠. وبسبب مرضه المتواصل لم يكمل تعليمه واضطر إلى ترك المدرسة، ولكنه استطاع كسب المعرفة والعلوم من خلال القراءة الذاتية في المنزل، وكانت معرفته بالتاريخ (بالذات تاريخ نيو إنغلاند) والجغرافيا والأساطير ساعدته كثيرا، كتب العديد من المقالات والقصص القصيرة وانصب تركيزه على كتابة قصص الرعب، بدأ بنشر قصصه في عام ١٩٢٣ عن طريق أحدى المجلات، وعلى الرغم من أن مجموعته القصصية صغيرة نسبيا (٣ روايات و٦٠ قصة قصيرة) فإن كتابات لافكرافت قد ألهمت وأثرت على العديد من الكتاب الأميركيين والعالميين. توفي بعد معاناة من مرض السرطان في ١٥ مارس ١٩٣٧ عن عمر يناهز ٤٧ عاما بعد اقل من سنة من موت زميله روبرت هوارد منتحرا, ويقال ان لوفكرافت أبتكر شخصية عبد الله الحظرد وأنها غير حقيقية.

نسل ملوك (جرهم) الذين كانوا عمالقة، (الحظرد) زعم أنه تقابل مع الجن والشياطين والكيانات القديمة ومنهم تعلم السحر وأسرار وخفايا الموتى ويقال إنه عبد شياطين كان اسماؤهم كثوللو ويوج سوثوث، بعد ذلك استقر الحظرد في دمشق ليكتب كتابه المخيف «العزيف» ومعناها صوت الحشرات التي تصدر بالليل والتي كان يعتقد العرب أنها أصوات الجن والشياطين وهم يتحاورون - وهو دراسة سحرية لمعرفة أسرار الماضي - وظن بأنه اتصل بالكيانات القديمة عن طريق السحر وحذر من أنهم قادمون لاسترجاع الأرض من البشر. ادعى (الحظرد) أن الكيانات القديمة تعيش في ما وراء هذا العالم وأنها كانت تريد الاتصال بالأرض بأي طريقة ممكنة للوصول إليها والسيطرة عليها. وقد استطاعوا أن يتقمصوا شكل الإنسان وأن يعيشوا بين بني البشر وأن يتزوجوا منهم ليكاثروا نسلهم على هذه الأرض وأساء الحظرد استغلال ما تعلمه من شياطين إرم لدرجة أنهم عاقبوه وقتلوه شر قتلة. وككل من لهم تعاملات مع تحضير الأرواح جاء موته أو اختفاؤه النهائي عام ٧٣٨ غامضًا كما يقول (ابن خلكان) -المؤرخ في القرن الثالث عشر «اختطف من قبل وحش مخيف التهمه في وضح النهار في وجود شهود جمدهم الخوف».»

أمسك (وليد) رأسه من الدوار وقال:

- «ما هذه الشرور التى تحوطنا، إذا كان كل هذا ولم نجد أصلًا لكتاب (ماروت)، هل كل هذه الشرور تحدث من حولنا ونحن لا ندرى؟».

طوى الشيخ (عدنان) ورق الكتاب ونظر من فوق عويناته وقال لـ (وليد):

- «يا بنى لا تنس أن الله يحمينا، ومن ملأ الإيمان قلبه فلا يخش إلا الله، لو اجتمعت الأنس والجن على أن يضروك بشىء لا يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، كل ما علينا أن نلتمس السبل التى يسرها لنا الله وكفى بالله حفيظًا».

أستعاذ (وليد) بالله من الشيطان وقال:

- «ونعم بالله، أنا آسف ولكن كلما علمت أكثر عن هذه الأمور يزيد خوفى، وأخشى أن يصدق ظنى بشأن شخص ما عزيز إلى قلبى ويكون قد اختفى فى عالم الجن».

ابتسم الشيخ وقال:

- «يا بنى لا تقلق فالأمور لم تصل بعد إلى هذه الدرجة من الشر، والذى يقدر عليه البشر ويدعو للخوف لهو أكبر وأشد ضلالًا مما يقدر عليه الجان».

لمعت فكرة فى ذهن (وليد) وقال:

- «إلا يمكن أن يكون (ماروت) الذى ذكر فى القرآن؟ (هاروت وماروت) أذكر آية فى هذا السياق».

شرد الشيخ (عدنان) قليلًا ثم قال:

- «يا (وليد) هاروت وماروت من الملائكة بنص القرآن، يقول تعالى فى

سورة البقرة: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]

وما تعلمناه عن هذه الآية أنهما من الملائكة، لا من البشر وأنهما مرسَلان من الله؛ تعليمًا للناس شيئًا يقيهم من الشر، لا أنهما معاقبان على ذنب كما يدعى اليهود، وعليه فمن ادّعى أنهما من البشر، أو أنهما ملكان وقعا في معصية فمسخهما الله تعالى، فقد تكلم في أمر الغيب بلا علم، وادعى أمرا يتنقص به ملائكة الرحمن المكرمين، واعتقد بما في كتب بني إسرائيل، بغير شاهد».

توجه إلى مكتبته مرة أخرى وأخرج كتابًا أفضل حالًا وقال تلاوة منه:

- «قال عبد الرحمن السعدي: وكذلك اتبع اليهودُ السحرَ الذي أُنزل على الملَكين، الكائنين بأرض «بابل»، من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحانا وابتلاءً من الله لعباده، فيعلمانهم السحر. ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ﴾ ينصحاه، و﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي لا تتعلم السحر فإنه كفر، فينهيانه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم

الشياطين للسحر على وجه التدليس، والإضلال، ونسبته إلى مَن برِّأه الله منه وهو سليمان عليه السلام، وتعليم الملكين امتحانا مع نصحهما: لئلا يكون لهم حجة. فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تُعلِّمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين، وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه، ثم ذكر مفاسد السحر فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما؛ لأن الله قال في حقهما: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدَري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي، كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر، ليست مستقلة في التأثير، ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة، لا دينية ولا دنيوية، كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] فهذا السحر مضرة محضة، فليس له داع أصلا، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة، أو شرها أكبر من خيرها، كما أن المأمورات إما مصلحة محضة، أو خيرها أكثر من شرها. ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ أي اليهود، ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾

أي نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلًا منهم، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾».

ثم رفع بصره وقال لـ(وليد) بما يشبه العصبية:

- «وكل ما عدا ظاهر القرآن في حال هذين المَلَكين فهو من الإسرائيليات[1]».

قال (وليد) بخضوع من علمه أقل:

- «الله أعلى وأعلم».

نهض الشيخ يقلب مرة أخرى فى المكتبة وهو يقول اللهم أهد ضالتى حتى أخرج كتاباً قديماً آخر وأخذ يفر فى صفحاته المتهالكة حتى وصل إلى ما يريد وقال يتلو منه:

---

(١) يقول ابن كثير: ذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وكان من أمرهما ما كان، فيكون تخصيصًا لهما عن سائر الملائكة، فلا تعارض حينئذ، كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق. مع أن شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من إبليس لعنه الله، لكن هذا الكلام يسقط تباعا لكون القرآن يشير بصريح العبارة إلى أن الملائكة لا تنزل إلى الأرض كي تعلم الناس بل فقط الأنبياء فى قوله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧] أما الناس فقد كلف الله الأنبياء لمحاورتهم وليس الملائكة, كما أن القول بأن الملكين يعلمان الناس الوقاية من السحر هو كلام باطل كون الآية تقول ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾. قال ابن جرير: فى تأويل الآية أنه وما كَفَر سُليمان ولا أنْزَل الله السِّحْر على المَلَكين.

- «وكتاب الموتى لم يرد عنه قوانين كالتى تخص كتابى (هاروت) و(ماروت) وهى القوانين السبعة لحامل الكتاب من الإنس والجان والتى تنص على:

١- الكتاب لا يظهر إلا لحامله.

٢- إذا نزع من حامله غصبًا يمحى.

٣- إذا نزع حيلة يبقى.

٤- إذا مات حامله يورث للزوج ثم أكبر الأبناء.

٥- من يجده دونما سعى يصبح حامله.

٦- لحامله منحه ومن منح له يملكه ولو عرضًا.

٧- إذا يمحى يعود إذا وجده من لا يطلبه سعيًا».

أخذ يفر الكتاب مرات عديدة بحثًا عن أى إشارة أخرى فلم يجد فرفع عينيه إلى عين (وليد) الذى بادره قائلًا:

- «لا شك أنه الكتاب الذى وجدته».

قال الشيخ شاردًا:

- «لو كان كذلك فمعناه أنه لن يظهر كلامًا سوى لك، أنت وجدته دون سعى وأصبحت حامله، كما أنك رأيت كتاباته عندما نظرت فيه، هل يمكن أن تطلعنى عليه؟ فإذا لم أر فيه شيئًا صدق ما قيل، ساعتها يجب أن يكون لنا تصريفًا».

قال (وليد) للشيخ بحذر:

- «لا أعرف إن كنت سأقدر على استعادته حيث أخفيته».

قال الشيخ بحرج:

- «أنا أعلم يا بنى أنك يجب أن ترتاب فيمن حولك، هذا ليس شرًا هينًا، ولكن كما قيل، أنت وحدك حامله فلا ينتزع منك، ولا يمنح إلا برضائك».

هز (وليد) رأسه نافيًا وقال:

- «لا أقصد يا شيخ (عدنان)، لقد أرسلك الله لتنير لى طريقى، أنا بالفعل أخفيته فى مكان لا أعلم إن كنت سأقدر على الوصول له مرة أخرى أم لا».

نهض (وليد) منصرفًا يحمل المذكرات التى لم يكن نظر محتواها بعد مودعًا الشيخ الذى ودعه قائلًا:

- «لا تنس أن الكتاب لو وجده أحد من غير سعى تملكه، عجل حتى نستدرك الشر مبكرًا».

❐❐❐

خرج (وليد) من عند الشيخ (عدنان) إلى الشارع وكان أمامه وجهتان إما إلى منزله أو إلى المدرسة، وقف فى مفترق الطريق لثوانٍ ثم توجه ناحية المنزل وصعد إلى أعلى حيث لم يكن أحد بالداخل، وضع المذكرات والخطاب فى مكتبه وأخذ بعض النقود ونزل قاصدًا المدرسة، عندما

وصل كان اليوم الدراسى فى نهايته والطلبة يتدفقون خروجًا من المدرسة، فانتظر بعيدًا حتى لمح أستاذ (عصام) يخرج، وتأكد أنه غادر فى الطريق إلى منزله، انطلق يجرى إلى أحد المحال القريبة وعاد ومعه رجل يحمل لوحًا من الزجاج وتقدم نحو الباب الذى تم إغلاقه بعد انصراف الجميع وطرق على الباب الصغير، فتح الحارس الباب الصغير وقال عندما رآه:

- «(وليد) ما أخبارك؟ أنا حزين من فعلتك كثيراً لأنك جعلتني أبدو كالأبله الذى لا يجيد حراسة المدرسة».

قال (وليد) بخجل:

- «سامحنى يا عم (عويس)، فى الأمر سوء فهم لا أعرف كيف أشرحه لك».

قال الرجل بطيبته الريفية:

- «لا عليك أنت مثل ولدى، لقد حملتك على ذراعى أول يوم جئت فيه إلى المدرسة».

بنى (وليد) على العبارة الحميمية وقال:

- «كلنا نخطئ يا عم (عويس) وأنا أريد إصلاح الخطأ، أنا بصحبتى الأسطى (مجاهد) فنى الزجاج ولقد دفعت له لإصلاح الزجاج الذى تحطم رغمًا عنى، أرجو أن تساعدنى لنصلحه قبل الصباح كى يكون فى ذلك شفاعة لى أمام أستاذ (عصام)».

حيا (عويس) الأسطى (مجاهد) وفكر لحظات ثم قال:

- «هذه مسؤلية، ولكن ما دام فى الأمر إصلاح فلا بأس».

تهللت أسارير (وليد) عندما كان الثلاثة فى الطريق إلى مكتب المدير وفتحه (عويس) بنسخة المفاتيح التى معه وعندما رأى الدولاب أمام عينيه برقت أحداقه وقال لـ (عويس):

- « كوبًا من الشاى المعتبر من يدك للأسطى يا عم (عويس)».

أشار إلى عينيه بأصبعه قائلًا:

- «عيونى لأسطى (مجاهد)».

انصرف فى حين كان (مجاهد) قد وضع لوحه الزجاجى على المكتب الكبير وأخذ يقيس أبعاد الزجاج المحطم، وما أن أستدار كى يقطع فى لوح الزجاج حتى مد (وليد) يده فى خفة وضغط على ما يشبه القلب الصغير فانفتح الرف السرى فتناول الكتاب وقلبه يدوى بعنف، ثم أخفاه فى طيات ملابسه، وأعاد الرف لحالته، ثم استأذن من (مجاهد) ونزل بخفة إلى غرفة (عويس) الذى كان يوقد المشعل الصغير على براد الشاى وقال له وهو يغادر المدرسة:

- «عم (عويس) سوف أنصرف، برجاء متابعة الزجاج حتى يتم، ولقد أعطيته الحساب كاملًا».

ابتسم له (عويس) وقال:

- «فى رعاية الله يا (وليد)».

خرج مسرعًا من محيط المدرسة ونبضه متسارع ينظر يمينًا ويسارًا بعد أن فر بمبتغاه، ثم لمح من بعيد رجلاً نحيفاً يرتدى جلباباً ويبدو أنه يتابع (وليد) بالفعل وبدأ يسير فى ناحيته ارتعب (وليد) وأشار لأول تاكسى كان يمر وركب فيه وقال للسائق مكان قريب حتى يضلل الرجل الذى كان يتبعه، انطلق التاكسى مبتعدًا عن الرجل الذى كان بالفعل يتفقد التاكسى المبتعد فى غيظ، ارتخت أنامله التى تقبض على الكتاب فوق الأريكة الخلفية للتاكسى ولاحظ أن يد السائق اليسرى على عجلة القيادة تفتقد إبهمها، فنظر لوجه السائق فى المرآة وكان وجه (عبد المريد). توجه إلى الباب ليفتحه، والتاكسى يشق طريقه مسرعًا، فلم يجد هناك رتاج لفتح الباب من الداخل على الجانبين، كان هناك بقية لصامولة صغيرة مكان ذراع فتح النافذة غير الموجود، فأخذ يعتصرها ليفتح النافذة قليلًا ثم مد يده وفتح الباب من الخارج، ضغط (عبد المريد) مكابح التاكسى بقوة ونزل منه فى حين كان (وليد) ينزل من الباب الذى فى الجهة الأخرى يجرى مسرعًا وهو على عقبيه.

دخل إلى مجموعة أزقة فى منطقة ورش ومخازن أسفنج وكان (وليد) يقبض على اللفافة التى تحتوى على الكتاب باستمامته ويجرى، حتى وجد بابًا مفتوحًا لأحد المخازن لا يوجد أحد أمامه فاندس بداخله واختبأ خلف بالات كبيرة للاسفنج الممزق، كان المخزن مظلمًا، لذا فرؤية ما بالخارج تكون أيسر من رؤية من بالداخل، وعلى حين كان يراقب كان (عبد

المريد) يعدو من أمام المخزن مبتعدًا، انتظر برهة ثم خرج من مكمنه إلى الشارع فلمحه (عبد المريد) من الطرف الآخر، خرج يجرى مرة أخرى إلى الطريق العام حيث كان هناك حافلة تشق الطريق فقفز إليها برشاقة. أخذ يتأمل (عبد المريد) الذى حاول اللحاق به دون جدوى وهو يبتعد مع الحافلة، ارتمى على مقعد خالٍ فى تعب وهو يحتضن لفافته الثمينة، صعد إلى الحافلة سيدة عجوز طاعنة فى السن ترتدى معطفاً من الصوف على ثوب أسمر وتلف شعرها بوشاح مزركش. ساندها الركاب حتى صعدت مما جعل الحافلة تتوقف لبرهة وكان (وليد) يراقب الطريق ونبضه يتسارع خشية أن يلحق به (عبد المريد)، قام (وليد) من مقعده بأدب لتجلس العجوز. ابتسمت له العجوز ودعت له فتفاءل بدعائها وعرضت عليه حمل لفافته كى يستطيع الإمساك بيد المقعد ولا يسقط عند الاهتزاز، اضطر أن يعطيه لها فى حرج غير أن التجربة علمته الحذر من الجميع فظل متصلب النظر على الكتاب الذى وضعته العجوز على قدميها، أخرجت من حقيبتها كيسًا به بعض المكسرات وأخذت تمضغها بصعوبة على ما تبقى من أسنان فى فكيها، كانت الحافلة تتحرك ببطء شديد ثم لمح نفس الشخص النحيف الذى كان يراقبه يصعد من الباب الذى فى مؤخرة الحافلة، التقط الكتاب من على قدم العجوز وشكرها ثم قفز من الباب الأمامى فى حين كان الرجل النحيف يحاول اختراق الكتل البشرية التى ملأت فيما بينهما، نزل (وليد) يعدو إلى البيت، الذى كان قريباً، حتى وصل إليه وأنفاسه كالمراجل المشتعلة، صعد إلى المنزل فكان أبوه وأمه

متواجدين، سأل عن (ألين) فاخبره والده بأسى أنه لم يجد لها أثراً بعد، أمسك (وليد) لفافة الكتاب وضغط عليها فى غيظ فقالت والدته:

- «أليست هذه لفافة الكتاب الذى أخذته من المكتبه دون إذن».

ارتمى على الأريكة وقال والحزن يعنف به:

- «سأحكى لكما كل شىء».

أمسك الكتاب وأخذ يمزق اللفافة التى صنعها ليريهما إياه، وعندما فتح اللفافة كان الكتاب ماثلًا أمام أعينهم

وكان العنوان واضحًا باللغة الفرنسية للكتاب القديم، الذى كان عبارة عن قاموس فرنسى - إنجليزى ضخم

وهبط قلب (وليد) إلى قدميه.

❐❐❐

- «أحمد بكرى».

صحت قائلًا:

«بكر.. بكر.. إنه أنا».

أخبرنى موظف المكتبة أن والدى بانتظارى بأسفل، نظرت إلى (وليد) وأنا أبتلع ريقى وكان قد انحنى إلى الأمام وعقد قبضته أمام وجهه كأنه يخفى ملامحه، فانتبه إلى نداء الموظف باسمى، قلت له مصدومًا:

- «لا تقل لى إن الأمر انتهى إلى هذا الحد».

ابتسم وكانت عيناه قد احمرت أوردتها على نحو لم أطالعه أثناء ما كان يحكى. حيث كنت منشغلاً بالكتابة فى دفترى، كانت عيناه تشبه متعاطى مخدرات لم ينم أسبوعًا، حاول أن يشيح ببصره وقال:

- «لم ينته».

قلت بلهفة:

- «هل سأراك غدًا هنا؟».

ابتسم وقال:

- «ربما».

قلت بلهفة:

- «لا شىء اسمه ربما، إما أن تأتى أو آتى لك حيثما كنت».

هز رأسه مبتسمًا فقلت:

- «سأكون غدًا من العاشرة موجودًا إن شاء الله».

قال بوجوم:

- «إن شاء الله».

نزلت إلى أبى الذى كنت قد تأخرت عليه كثيرًا وأنا أحمل ذخيرة جيدة من يوم المكتبة الأول، سألنى أبى عن الأخبار، وأجابته ابتسامتى العريضة قبل أن أقول تمام.

ارتميت على مقعد السيارة أستمع إلى أغنية ضى القناديل التى شرع أبى فى تشغيلها فورما ركبت وأنا أنتظر الغد بفارغ الصبر لمعرفة باقى الحكاية.

❐❐❐

فى تمام العاشرة كنت أمام المكتبة، ودعت أبى وانطلقت أعدو إلى قاعة المكتبة الكبيرة، وتلقفت أى كتاب وجلست أمامه شاردًا أتصنع القراءة، وأنا أنتظر (وليد) بفارغ الصبر. مرت الساعات ولم يأت، أكملت اليوم فى خيبة أمل كبيرة حتى عدت مع والدى وأنا مرتعب من عدم رؤيته ثانية، فى اليوم التالى دخلت المكتبة وأنا أتفقد فى حذر، ثم لمحته فى نفس الركن فانطلقت مسرعًا إلى طاولته، سلمت عليه كأصدقاء قدامى وجلست أمامه وفتحت أجندتى وقلت فى حماس:

- «أنا مستعد».

عاد إلى جلسته الحزينة يخفى وجهه بيديه وشرع فى الحكى، وشرعت فى الكتابة.

❐❐❐

الفصل الخامس

مذكرات أستاذ سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

كتبت بتاريخ: الخميس ٣ نوفمبر ١٩٦٠..

اسمى (سعيد محمد جمال) معيد بكلية العلوم جامعة دمشق بالإقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة[١] أعتقد أن الوقت قد حان لكتابة مذكراتى، فى الحقيقة ليست حياتى بالشأن الجلل الذى يستحق أن يؤرخ له، بل أعتقد أن حياتى حتى ما قبل عام من الآن كانت تقليدية بشكل يبعث على الملل، لقد كنت طالباً متفوقاً فى دراستى دومًا، وكنت الأول على الصف باستمرار، وكان والداى يوفران لى حياة مريحة أنا وأختى الصغرى (صفية)، حتى أننى أخترت القسم الذى أحبه فى الدراسة رغم أن مجموعى كان يؤهلنى لدخول كلية الطب لكنى لم أكن أحب الجثث

(١) كانت مصر وسوريا فى هذا التوقيت دولة واحدة تسمى الجمهورية العربية المتحدة، أعلنت الوحدة في ٢٢ فبراير/ شباط من العام ١٩٥٨ الى ٢٨ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦١.

والمرضى، وأفضل الانطواء لوضع حل للمشكلات فى معملى، لم أجد مقاومة من عائلتى فكانوا دومًا عوناً ودعمًا لى، حتى إننى عندما تخرجت فى جامعة القاهرة ولم يكن هناك فرصة لأكون معيدًا بالكلية استطاع أبى من خلال علاقاته كدبلوماسى أن يوفر لى هذه الفرصة فى جامعة دمشق، وهى من أقدم وأكبر الجامعات فى (سوريا)، فبعد أن كانت مقتصرة على معهدي الطب والحقوق حتى عام ٤٦، وبعدما تخلصت من الانتداب الأجنبى تم إضافة الكثير من الكليات ومنها كلية العلوم التى أصبحت معيدًا فى قسم الكيمياء الحيوية فيها، هذا باختصار ما يساوى الخمسة وعشرين عامًا الأولى من عمرى، ولا أعتقد أن فيه ما يستحق الكتابة، حتى إننى لم أصل إلى دواء مهم أو اكتشاف معملى مرموق، رغم أننى تخرجت فى قسم كيمياء ميكروبيولوجي وهو قسم خاص بدراسات البكتريا والفيروسات المعدية، والأمراض التي تسببها، والانزيمات والسموم الميكروبية والهرمونات النباتية، وكلها كانت حقولا خصبة للاكتشافات والبحوث، غير أننى كنت آلة نسخ لا أكثر، أستطيع الحفظ والتذكر بشكل فائق، لهذا أنجح دائما فى اى اختبار بعناء بسيط، لكن لم أفكر ماذا أقدم للبشرية قبل هذا العام .

كان لى زميل معيد فى قسم الكمياء اسمه بالمصادفة (سعيد محمد جميل) من الاقليم الشمالي وكان الزملاء ينادوننا (جميل) و(جمال) للتفرقة بيننا، كان شابًا متفتحا جدًا، وقارئ فى كل المجالات، وكنت أحب الحديث معه أحيانًا، ولكن كان لـ (جميل) شطحات عقائدية لم أكن ارتاح لها

حيث أعتبر نفسى مسلما متحفظا، وهناك أمور لا يجب الحديث عنها بهذه الخفية والتحرر، كاعتقاده العميق بنظرية التطور لـ (دارون)[1] وهى النظرية التى كانت ترفضها عقيدتى السليمة، فبكل بساطة أفندها أنه لو كان الإنسان أصله قرد، لماذا ظل هناك قرد رغم وجود الإنسان؟ لماذا لم تفعل كل القرود مثل هذه القفزة من القرد إلى الإنسان؟ ربما تنطبق النظرية على المملكة الحيوانية والنباتية ولكن ليس كل ما يصلح لهما ينطبق بالضرورة على بنى البشر، كنت أفكر فى رقى النوع الإنسانى منذ وجوده على الأرض، وأتعجب ممن يطعنون هذا الرقي بدعوى العلم والحداثة، كان (جميل) يجنح إلى فكرة أن الطبيعة خلقت نفسها، رغم أنه فى الظاهر مسلم من أسرة مسلمة، وكنت أرد عليه أنه إما أن نعبد الطبيعة أو تفض بمعرفتها التعارض مع الله الذى ينتزع هذا الحق منها، فكان يعاود القول إن الطبيعة لا تطلب منا العبادة وإنما تمنحنا الفرصة للاستمتاع بها كل حسب مقدرته، فكنت أجيب أنها بهذا طبيعة ظالمة

(١) شارلز روبرت داروين (بالإنكليزية: Darwin Robert Charles) عالم تاريخ طبيعي بريطاني ولد في إنجلترا في ١٢ فبراير ١٨٠٩ في شرو سبوري لعائلة إنجليزية علمية وتوفي في ١٩ أبريل ١٨٨٢ اكتسب شهرته كمؤسس لنظرية التطور والتي تنص على أن كل المخلوقات الحية على مر الزمان تنحدر من أسلاف مشتركة وقام باقتراح نظرية تتضمن أن هذه الأنماط المتفرعة من عملية التطور ناتجة لعملية وصفها بالانتقاء (الانتخاب) الطبيعي لكن نظريته الشهيرة واجهت انتقادا كبيرا وخصوصًا من طرف رجال الدين في جميع أنحاء العالم، دارون نفسه ظل حائرًا في ما عرف بما سماه الحلقة المفقودة، التي تتوسط الانتقال من طبيعة القردة للإنسان الحديث.

لا معيار لها سوى القوة التى تمنحها هى بفرض أنها الخالقة، والطبيعة الظالمة تفتقد الحكمة، ومن ثم تفتقد القدرة على خلق كون معقد ككوننا، لم أكن أحب التباسط وزيادة الحوار معه خوفًا على عقيدتى من أسئلة قد أرتاب فى إجاباتها لضعف معلوماتى، أو لأسلوبة المتميز فى عرضها، ولكن للحق رغم أن أفكار (جميل) لم تكن تقنعنى أو تستهوينى إلا أننى أعترف أنه دفعنى دفعًا لزيادة معارفى والخروج من الشرنقة التى غلفت بها حياتى.

وكأن القدر كان يستمع إلى خواطرى.

فى الحادى والثلاثين من يناير استدعانى عميد الكلية (د.بشارة) ليخبرنى أن مراسلة قد أتت إلى الجامعة لمنحة الماجستير والدكتوراة من جامعة كاليفورنيا باسمى، لقد تم اختيارى دوناً عن كل المعيدين فى كافة الاقسام، إنه لأختيار القدر، هل حان الوقت للانطلاق للعالمية والبحث عن اكتشاف مذهل والعودة كعالم من العلماء، كالعادة تلقيت الدعم والمساندة من أسرتى وأعددت نفسى ووثائقى للسفر فى الموعد المحدد فى خطاب الترشيح، لم أستطع وداع (سعيد جميل) لأنه كان منقطعاً عن العمل لما يقارب الشهر، يقال لمرضه، ولو أنى كنت أود أن اخبره أنه وإن لم يكن أقنعنى بشىء من شطحاته، إلا أنه وبحق ألهمنى كى أغير من نمط حياتى الذى اعتلاه الصدأ، ولولا معرفتى به لما تحمست لمثل هذا السفر البعيد فى بلاد الغرب.

❐❐❐

السبت ١٣ فبراير ١٩٦٠..

كان مسار الرحلة أن ألتقى مندوب الجامعة فى المغرب العربى، ومن هناك سيصحبنى مندوب الجامعة إلى الولايات المتحدة، وصولًا إلى كاليفورنيا.

أقلعت الطائرة المتجهة إلى المغرب وجلست على مقعدى أراقب من النافذة والأرض تصغر من تحتى، وكنت أستنشق الهواء بقوة وكأنى أجدد الهواء القديم الذى استقر فى جوفى بآخر جديد، ونظرت إلى خطاب الجامعة وكأنها الوثيقة التى ستحدد ميلادى الجديد، بينما كنت أطالع أوراقى بين يدى لاحظت فى خطاب الجامعة أن هجاء كلمة (جمال) بالأحرف اللاتينية المتشعبة يشبه فيها حرف(a) حرف (e) وكأنها (جميل) وليست (جمال).

هل كان المقصود هو (*Saeed Mohamed Gamel*) وليس (*Saeed Mohamed Gamal*)؟

هل كان (جميل) هو المقصود بالمنحة وليس أنا؟ ولم لا؟ لقد كان دائم البحث ومراسلة الجامعات الغربية، أما أنا فكيف سمعت جامعة كاليفورنيا عنى لتمنحنى هذه المنحة، ترى ما هو واجبى الآخلاقى الآن؟ هل أعود إلى مصر ليأخذ (جميل) حقه فى المنحة؟ أم أن القدر استعمله نيابة عنى لأكون أنا فى هذا المكان؟ ثم إنه كان متغيباً لفترة والمنحة لها موعد فلو عدت أنا لضيعت المنحة عليّ وعليه، ربما عليّ أن أغفل عن هذا الهاجس وأستسلم للدراسة والاجتهاد، فالأمر فى كل الأحوال مرهون بقدرتى على الدراسة والنجاح.

أغفلت صوت ضميرى وأنا اعرف أن ثمنًا ما يجب أن أدفعه لأخذى ما ليس بحقى، لذلك قررت أن أهادى (جميل) بهدية قيمة جدًا عندما أنهى دراستى كتعويض له، بهذا الخاطر استطعت أن أسكت ضميرى باقى الرحلة، عندما وصلت إلى مطار الدار البيضاء بالمغرب، كان بانتظارى مندوب الجامعة الذى سيتولى إرشادى لبقية الرحلة التى فوجئت أنها ستستأنف بالباخرة وليس بالطيران، كان أمراً مزعجاً بالنسبة لى ذكرنى بفعلتى التى ستبدأ لعناتها بالتجلى، حيث سأقطع المحيط الاطلنطى بالباخرة، ذلك المحيط الهائج مع البرد القارس، لا أخفى عليكم كم كنت أكره البحر، ولا أتخيل أنى سأقضى كل هذا الوقت فى طيات هذا المحيط بالتحديد، وهو المعروف بالهياج والمناطق المنكوبة وما يسمى مثلث برمودة[1]، هل بدأت الجامعة ترشد النفقات من الآن، أم بدأت لعنة (جميل)، ربما

(١) تقع منطقة برمودا في الجزء الغربي من المحيط الأطلنطي او الاطلسى مجاورة للساحل الجنوبي الشرقي لولاية فلوريدا، بالولايات المتحدة الأمريكية، ويشمل المثلث فلوريدا (بالولايات المتحدة الأمريكية) وجزر برمودا (تابعة لبريطانيا) وجزر البهاما. وتعتبر النقطة الأعمق في المحيط الأطلسي سميت بهذا الاسم نسبة إلى جزر برمودا المكوّنة من مجموعة من الجزر التي يبلغ عددها ٣٠٠ جزيرة، ليست كلها مأهولة بالسكان وإنما المأهول منها ثلاثون جزيرة، عاصمتها «هاملتون» وتقع في الجزيرة الأم، كان أول ادعاء بحالات اختفاء غير طبيعي في برمودا في ١٦ سبتمبر ١٩٥٠، من مجلة أسوشيتد برس بمقالة من إدوارد فان وينكل جونز. بعد عامين، نشرت مجلة فيت Fate مقالة قصيرة بعنوان «لغز في البحر عند بابنا الخلفي» تتحدث عن فقدان العديد من الطائرات والمراكب وكانت المقالة الأولى التي تتحدث بشمولية عن المثلث الذي حدثت به الخسارات.

لو كنت علمت بهذا الأمر لراجعت قرارى، أو ربما عرضت دفع نفقات بقية الرحلة عبر الطائرة حتى الولايات المتحدة، ترى كيف بعد انتهاء رحلة البحر سأقطع القارة من أدناها إلى أقصاها؟ حيث تقع كاليفورنيا على الطرف الآخر من القارة، أرجو ألا يكون بدراجة بخارية.

أوصلنى المرشد المتجهم حتى تسلمت حجرتى فى الباخرة العملاقة، لم يكن يتفاعل معى بأى شكل يذكر غير أنه كان يبالغ فى احترامى والتعامل معى بشكل رسمى، وبدت لى ملامحه ولكنته الإنجليزية وكأنه من الهند أو باكستان، فهو قطعًا ليس أمريكيًا، ويبدو أنه مبرمج على ألا يتفوه إلا بما هو ضرورى، فلا مجال لأى نقاش أو ود تفترضه طبيعتى الشرقية -رغم أنى أميل أساسًا إلى الانطواء- استمرت الرحلة على هدوئها ورتابتها على ظهر الباخرة ثم هبت العاصفة، لم تكن عاصفة بحرية أو أمواجاً عاتية، بل المفاجأة الحقيقية فى الرحلة أو بمعنى أدق لعنة (جميل) الحقيقية.

الثلاثاء ١٦ فبراير ١٩٦٠..

على نحو غريب توقفت الباخرة العملاقة فى عرض المحيط، لاحظت ذلك وتوجهت إلى سطح الباخرة لأجد أن الباخرة قد اقتربت منها باخرة أخرى كبيرة وكان بالقرب منها زورق يتجه نحونا، ألتفت لأجد مرشدى فى الرحلة يتأبط ذراعى ويقول لى:

- «الآن مستر (سعيد) نتجه إلى وجهتنا الحقيقية فى باخرتنا الخاصة، برجاء إحضار أمتعتك».

تملكنى الرعب والشكوك وأنا أستسلم له وهو يدفعنى نحو الرافعة التى ستنزلنى حيث يتلقفنى الزورق بعدما أحضرت حقيبة أغراضى من حجرتى فى عجل، كان بالزورق شابان ضخما الجثة كالقوات الخاصة فى الجيوش يستعدان لالتقاطى، ما هذا الهراء؟ هل تمتلك جامعة كاليفورنيا باخرة خاصة؟ أم أننى أتعرض للاختطاف؟ لكن ليس من المعقول أن يكون كابتن هذه الباخرة العملاقة والباخرة العملاقة الأخرى وكل هذا الانتاج لاختطاف شخص لا أهمية له لهذه الدرجة مثلى، ثم هدأ روعى وانخفضت ضربات قلبى قليلاً عندما لاحظت أن هناك خمسة شبان آخرين هم ايضا سيغادرون معى إلى الباخرة الأخرى، وكل كان معه مرشده والكل مبتهج ولا يوجد منهم من هو فى مثل قلقى وخفقان قلبى، ربما هو أمرًا عاديًا تغيير المسارات عبر البواخر فى المحيط، جلست فى الزورق فى أدب وتوجس. لم ينزل معنا المرشدون فأصبحت فى القارب أنا والخمسة شبان الذين يبدو عليهم الثقافة والبيئة العالية وتنوع البلدان - بخلاف الرعب الذى سببه لى منظر الشخصين اللذين اصطحبانا فى الزورق- هل يجب أن أبدأ حديثاً مع الشبان؟ من المؤكد يعرفون الإنجليزية، صحت قائلًا:

- «مرحبًا أرجو أن تكون دراسة موفقة».

بدأت الردود تتدفق مما هدأ من روعى كثيرًا:

- «هى رحلة العمر بالتأكيد».

- «نحن المختارون ونحن لها».

- «تشرفنا يا سيدى ما اسمك ومن أى البلاد أنت؟».

قلت فى تودد كمن يدير الحوار:

- «أنا (سعيد) من الجمهورية العربية المتحدة ومعيد بجامعة دمشق».

قال أحدهم فى أمر فاجأنى:

- «أنت كيميائى أليس كذلك؟».

ابتسمت ابتسامة مصطنعة أدارى بها قلقى:

- «نعم أنا متخصص فى الكيمياء البيولوجية».

دارت رأسى مرة أخرى، هل من المفترض أن هناك معلومات متداولة فيما بين الطلاب عن بعضهم البعض؟ هل معنى ذلك أن شخصية (جميل) معروفه وذات اعتبار؟ أرجو ألا أعود أجر أذيال الخيبة بعد هذا الجهد عند اكتشاف سوء الفهم، أو ربما هذا الفوج كله من الكيميائيين.

انتهى الحوار حتى دخلنا إلى الباخرة الأخرى، كانت باخرة عملاقة ومزخرفة بشكل مبالغ فيه وكلها نقوش أسطورية، ويسيطر عليها رسوم الكباش والحيات بشكل جمالى فائق وسيطرعلى مفارشها وحوائطها ألوان الأحمر والأسود والذهبى مما أعطاها طابعًا ملكيًا، أو طابعًا شيطانيًا.

قررت أن أستسلم فى حال تم كشف الأمر وسأشرح أننى لم أعي سوء

الفهم إلا متأخرًا وليقرروا ما يرتئونه، لكنى سألزم الصمت، تسلمنى مرشد آخر وقام بتسكينى فى غرفة صغيرة لها نفس الطابع المقبض وسلمنى مفتاحها. وضعت أغراضى واضطجعت على الفراش الوثير فى تعب أتأمل المحيط الممدود فى لا نهائية من النافذة الدائرية الصغيرة، لا أعرف هل السفينة تبدو متوقفة لعدم وجود شىء فى المحيط يمكن القياس عليه؟ أو أنها لم تتحرك بعد بالفعل؟ أغمضت عينى فى تعب ثم انتبهت على صوت أحدهم يطرق بابى ويقول بالإنجليزية أن المؤتمر الترحيبى سيكون بعد نصف ساعة من الآن.

أى مؤتمر ترحيبى هل هى بالفعل باخرة تابعة للجامعة؟ غير معقول.

ارتديت ملابس مناسبة من حقيبتى بعد أن أسكنت محتوياتها فى الدولاب الصغير، وخرجت إلى الردهة بين الحجرات، توجهت إلى سطح السفينة فوجهنى أحد الحراس الغلاظ إلى قاعة كبيرة تشبه قاعة مؤتمرات على مستوى عالٍ جدًا من الفخامة، كالقاعات الملكية، فاتخذت مكاناً متوسطًا بين المقاعد. توالى حضور الآخرين من جنسيات وأعمار مختلفة، هل من المعقول أن المنحة تشمل كل هذا العدد الكبير وهذا التنوع الغريب؟ آثرت الصمت، فقليلًا وسأبدأ فى السماع والإدراك لوضعى فى ما هو قادم.

صعد إلى المنصة رجل غريب يرتدى عباءة من القطيفة السوداء بغطاء رأس لا تناسب أمر أكاديمى، ربما تناسب قداساً كنسياً أكثر، اكتست القاعة بالصمت الرهيب عندما توسط الرجل المنصة ورفع الغطاء عن رأسه لتظهر ملامحه النحيفة الحادة وبشرته الحمراء اللامعة والتى تجعله

كالتمثال المنحوت من الخشب العتيق ونظرته التى يومض الضوء فيها بشكل مخيف، وبدأ فى الكلام بفحيح وبلغة انكليزية قائلًا:

- «السادة الضيوف الأعزاء أهلاً بكم فى مدينة (ملكوت)، الوطن الجديد ومقر ملك النور والظلام، لقد تم اختياركم بعناية لتكونوا فى خدمته، ورعيله الأول، ومنذ هذه اللحظة سننطلق فى مشروعنا العظيم، وزحفنا المقدس، نحو السيطرة الكاملة على العالم».

فى هذه اللحظة أوشكت على الإغماء، وشعرت أن قلبى صعد إلى السماء ليرانى من مشهد سماوى كنقطة فى باخرة فى عرض محيط لا حدود له، ثم عاد إلى سقوط كنيزك من الفضاء. تابع الرجل كلامه قائلًا:

- «العمل فى مدينة ملكوت منظم ولا يقبل الخطأ والإمكانات المطلوبة لتحقيق الهدف متاحة بدون حدود، وكى يفهم الجميع طبيعة عمل الجميع سنعاود التأكيد على التقسيم الادارى والفنى مرة أخرى، لأنه كما تعلمون ليس مسموحًا ولن يتم التهاون مع أى خطأ، وبالطبع تعرفون أن الخطأ من المستحيل إخفاؤه، وسيعرفه سيد الظلام فور حدوثه. ينقسم العلماء على الباخرة (ملكوت) إلى ثلاثة أقسام من أجل تعزيز سلطاننا على الأرض وهى:

قسم علماء الطبيعة ويتزعمه البروفسير (باركلى)، ويكون مسئولاً عن مشروعات أساسية وهى تطوير قدرة الفيروسات والميكروبات، ودمج وتخليق كائنات مشوهة، والعمل أيضًا على العقارات التى تسلب الإدراك، وهذا فريق إخضاع الأجساد.

الفريق الثانى ويتزعمه الفيلسوف (إنجما)، يختص بالفلسفات والجدليات العقلية والمذاهب الفلسفية أو الاقتصادية وهو الفريق المسئول عن إخضاع العقول.

الفريق الثالث ويتزعمه (بلاك ليفى)، ويكون مسئولاً عن الدين الجديد ومشتقاته، والأمور الخاصة بالسحر والغيبيات والطقوس، وهو الفريق المسؤل عن إخضاع الروح، ويحق له تلقى الدعم من الفريقين الأول والثانى كما يشاء.

أظن أن أعضاء كل فريق يعرفون أنفسهم الآن، وأحب أن أطمئنكم أن إخواننا فى كل بقاع الأرض يعملون بجد أيضًا، كل منهم فى مكانه، حتى دون أن يعرفوا بعضهم البعض، وأحب التأكيد على أن أى دعم تريدونه سنتمكن من توفيره، وسيأتينا هنا فى أعالى البحار[1] حيث لا نخضع لسلطان أى بلد أو قانون سوى قانون سيدنا وقائدنا ملك ملوك الأرض ومعبودها، ولن ننسى بالطبع فى هذه اللحظة مجهودات من سبقوكم إلى الأمجاد وخلدت أرواحهم قبلكم».

(١) أعالي البحار أو المياه الدولية هي مناطق المحيطات التي تقع خارج سلطة أي دولة. وتبدأ بشكل عام بعد ٢٠٠ ميل بحري (يساوي الميل البحري حوالي ١,٩ كلم)، من سواحل الدول المتاخمة للمحيطات. أما مناطق المحيطات التي تمارس الدول سلطتها عليها، فتسمى المياه الإقليمية.
في القانون الدولي، تعتبر أعالي البحار مفتوحة أمام أي دولة للصيد، والسفر، والبحث. وجميع الدول لها حقوق متساوية في أعالي البحار، ويجب أن تحترم كل منها حقوق الدُّول الأخرى.

أنهى الرجل كلمته ونزل من على المنصة بهدوء وسط تصفيق الحاضرين حيث كان آخر ما سمعت قبل أن يصيبنى الدوار وأفقد الوعى.

أفقت وأنا فى حجرتى فى الباخرة وحسبت لثوان غالية أننى أستيقظ من الكابوس إلا أنه كان طبيباً من أهل الباخرة يجلس أمامى، ولازلت عالقًا فى هذا الجحيم العائم الذى ينوى خراب البشرية، والذى أعتبر رغمًا عنى جزءًا منه.

اطمأن الطبيب على صحتى وانصرف، ودخل على أعقابه رجل مسن يبدو عليه الوقار، دائرى الوجه يغطى الشعر الشائب جانبى رأسه فقط ويرتدى عوينات دائرية رفيعة، جلس على الأريكة المقابلة لسريرى فنهضت جالسًا على السرير فى توجس فقال لى:

- «هل أنت فى حال أحسن الآن؟»

خرجت منى كلمة الحمد لله بشكل تلقائى باللغة العربية، ثم تذكرت ما أنا فيه فعاجلتها بالإنجليزية فلم يلحظ

- «أنا فى حال أفضل أرجو المعذرة ربما هو دوار البحر».

قال الرجل وتجاعيد وجنتيه تخفى نظراته التى بدا منها الخبث:

- «الرهبة من المشهد أمر طبيعى، وليس كل زملائك من العلماء الشبان على ما يبدو عليهم من الثبات، من الصعب تخيل أنك تسكن فى نفس المكان مع ملك الظلام بنفسه، وأنك ستعيش حياتك فى خدمته، معذرة نسيت أن أقدم لك نفسى، أنا بروفسير (باركلى) المسئول عنك وعن

زملائك فى مشروع الطبيعه، من المفترض أن نبدأ العمل من الغد، ولكن إذا لم تكن بالثبات النفسى الكامل فأنصحك أن تشارك بعض الطقوس قبل البدء فى العمل، وعندما تصبح جاهزًا سنتمكن من البدء، لأن قوة الاعتقاد هى أهم محفز لنا على العمل».

لم يكن لدى أى رد فعل مناسب، وأصبت بحالة من الوجوم الدائم، فنهض الرجل وانصرف وكان الباب مواربًا. عاودت الركون إلى سريرى ألتقط أنفاسى، ولم أكد أستريح لبرهة حتى دخل علي بعد قرع الباب مرتين الرجل ذو العباءة الحمراء بوجهه المهيب فأنتفضت واقفًا رغمًا عنى، وشعرت أن قشعريرة بارده تسرى إلى كل أعضائى، زيادة على البرودة الطبيعية فى الجو، وانتصبت شعيرات يدى كلها، أشار إليّ بالجلوس فجلست وجلس أمامى على الأريكة يرمقنى بنظراته الثاقبة وقال:

- «ما بك سيد (سعيد)؟ ألم تكن تتوق إلى الحقيقة الخالدة والخدمة الأزلية؟ لماذا تنتابك الرهبة؟ أنا أشتم رائحة الأدرينالين[1] فى دمائك، لديك مهمة كبيرة ولا ينفع معها الخوف».

(١) الأدرينالين (بالإنجليزية: adrenaline) هو هرمون وناقل عصبي تفرزه غدة الكظر وهي تقع فوق الكلية، وهو يعمل على زيادة نبض القلب وانقباض الأوعية الدموية وبالمجمل يؤدي إلى تحضير الجسم لحالات الكر والفر، هذا و إن ارتفاع الأدرينالين في الدم يحرر الجليكوجين من مخازنه في الكبد ويطلق سكر العنب مما يرفع السكر الدموي، إذ من المعلوم أن معظم حوادث الداء السكري تبدأ بعد انفعال شديد لحزن أو غضب. أما ارتفاع الأدرينالين فيزيد من عمليات الاستقلاب الأساسي ويعمل على صرف كثير من الطاقة المدخرة مما يؤدي إلى شعور المنفعل أو الغَاضِبْ بارتفاع=

ألتقط أنفاسى لأنه لم يتم كشفى بعد، ولو أننى شعرت برهبة من عبارته التى قال إنه يشم رائحة دمائى، حيث بدت بعيدة عن المجاز، وشعرت أنه بالفعل يعنى ما يقول، ففكرت برهة وقلت:

- «أرجو المعذرة فـالمسئولية كبيرة وأنا أحب التفاصيل، وأود أن أعرف مهمتى بالتحديد، لأقوم بها على الوجه الأمثل، وماذا بعد إنجازها؟».

نهض الرجل فجأة فنهضت فزعًا، ترى هل كانت عباراتى المبهمة ليست بالذكاء الكافى لأجتز منه المعلومات؟

تقدم الرجل نحوى وضع يده على كتفى مما جعلنى أنتفض وقال:

- «أنا أثق أنك ستسدى لسيدنا خدمات جليلة، ومهمتك العلمية سيشرحها لك بالتفصيل البروفسير (باركلى)، ولكن يبدو أنك تحتاج إلى بعض الأمور المحفزة، لذا سأوصى لك بقداس ليلي سيعجبك، وسيكسر الكثير من رهبتك».

استمر فى وضع يديه على كتفى يدفعنى خارج الغرفة إلى الرواق الذى بين الغرف وكان على الباب فتيان انحنيا بمجرد خروجه، فسلمنى لأحدهما قائلًا:

=حرارته وسخونة جلده. كما ترتفع شحوم الدم مما يؤهب لحدوث التصلب الشرياني ومن ثم إلى حدوث الجلطة القلبية أو الدماغية، كما يؤدي زيادة هذا الهرمون إلى تثبيط حركة الأمعاء ومن ثم إلى حدوث الإمساك الشديد. وهذا هو سبب إصابة ذوي المزاج العصبي بالإمساك المزمن، وتستطيع بعض الحيوانات ان تشم رائحة هذا الهرمون.

- «هو معك الآن يا (أندرو) أريدك أن تعلمه كل ما يحتاج لاعتناق دين الشيطان، وإتقان القداسات، بالإضافة لقداس استحضار الآن».

كان (اندرو) فتى فى الثامنة عشرة من عمره تقريبًا، أحمر الشعر، وأشهب البشرة، ويتناثر النمش على ملامحه وكان نحيفاً للغاية، وقامته طول قامتى متوسطة، شعرت أنه أكثر الوجوه ارتياحًا قابلتها فى هذا الجحيم، حيث اصطحبنى فى حماس إلى أحدى الحجرات وغاب الرجل المخيف عن ناظرى ومعه الفتى الآخر.

كانت الحجرة فارغة إلا من نجمة فى المنتصف مرسومة على الأرض الخشبية بدقة بالغة، وحولها بعض الأرقام والكتابات الرمزية، وكانت الحجرة بلا نوافذ وتضيئها الشموع. أغلق الباب وطلب منى أن أجلس على الأرض وأنه مستعد ليجيبنى عن أى سؤال قبل أن يشرح لى الدين الجديد، شجعنى الارتياح للفتى على أن أطرح كل الاسئلة التى أود استكمالها فقلت:

- «فى الحقيقة أريدك أن تقدم لى كل ما تعرف عن ما يحدث هنا بالتحديد، وأن تعرفنى بشكل أوسع على السيد الوقور الذى عهد إليك برعايتى».

ابتسم ابتسامة ودودة وقال بخشوع:

- «هنا مدينة (ملكوت) الحديثة، وهى ليست المدينة الأولى، كان هناك قبلها مدن عائمة كثيرة، وغير عائمة أيضًا، ولكن هذه أحدثهم وهى فى عرض البحر بعيدًا عن سلطان أى دولة، ولكن للشيطان اتباعًا فى كل

أرجاء الأرض، ومنهم من يشغل مناصب كبيرة تصل إلى بلاط الملوك، ويقدمون الدعم بدون نقاش. يقيم الشيطان فى قلب السفينة حيث لا يصل إليه الا الخدام المقربون، وأكبرهم مرتبة السيد (يغوث) الذى عهد إليّ رعايتك وهو ليس من البشر، إنما من الجن ذوى الأعمار الكبيرة جدًا، ولقد تجسد بشريًا ليؤدى الطقس الأعظم، ولكن لسبب ما، لا يكون بقوته إلا مرة كل ١١ عامًا، حيث يكون فى الكون ظاهرة كونية، تسمى الكلف الشمسى، وهى تتكرر كل ١١ عامًا، أظن أنك أعلم بها منى».

أومأت برأسى وقلت متقمصًا دور المعيد، رغم رجفتى من موضوع الجن هذا:

- «نعم هي بقع على سطح الشمس، تتميز بدرجة حرارة منخفضة عن المناطق المحيطة بها وبنشاط مغناطيسي مكثف يمنع حمل الحرارة، مكونًا مناطق ذات حرارة سطحية منخفضة. وبالرغم من كونها مناطق شديدة السطوع، إلا أن الفرق بين درجة حرارتها، التي تبلغ حوالي ٤٠٠٠ - ٤٥٠٠ كلفن وحرارة سطح الشمس عموما (٥٧٠٠ كلفن)، تجعلها تظهر كبقع مظلمة. تستغرق أوضح دورات النشاط الشمسي نحو ١١ سنة وتسمى أيضا «دورة شواب» نسبة إلى مكتشفها «صمويل شواب»، العالم الفلكي الألماني».

قال الفتى بتواضع أمام سيل المعلومات التى أطلقتها:

- «أنتم اهل الأختصاص سيدى، وبالفعل نحن هذا العام فى عام البقع الشمسية، لذا ينشط السيد (يغوث) ويود أن يتم مشروعه قبل نهاية العام».

- «وما هو المشروع بالتحديد؟».

- «هو اجتياح ارضى، يخرج بعده ملك الظلام على عرش الأرض، وليتم هذا المشروع والسيطرة، يجب أن نتسلح أولًا كأتباع بديانة عبادة الشيطان، وزيادة اتباعها، وسنستخدم العلوم الحديثة بحيث نستطيع إصابة الأجساد بالأمراض القاتلة، ونحتكر علاجها فيكون فى ذلك سلاح و إخضاع، وكذلك عقارات العبث بالعقول ليسهل تطويع الناس، كما أن تجارب الخلط بين الكائنات ستمكننا من خلق جيل جديد من كائنات فى خدمتنا بقوى أكبر استعدادًا لفرض عصر الرعب على من يخالفنا، وهذه المشاريع يتم العمل عليها منذ أزمان، والآن أنتم جيل العلماء الشبان ستكملون المسيرة».

دارت رأسى مرة أخرى لكنى قاومت الغثيان هذه المرة وقلت:

- «وأنت يا (أندرو) برغم علمك بكل هذا لماذا أنت هنا فى خدمة هذا المخطط؟».

ابتسم فى ثقة وقال:

- «أنت ذكى سيدى، تريد أن تختبر إيمانى، كما تعلم أن أهل الأرض أغلبهم من الهوام، مجرد أعداد لا قيمة لها، ويجب أن يحركها ذوو الإيمان، وأنا أخترت أن أكون من ذوى الإيمان، ومن الإيمان أن نستغل كل ما تقدمه الطبيعة من أسباب للسيطرة عليها، والاستمتاع بها، وعلى من يرفض هديتها أن يكون من مواردها المتاحه للفئة التى فهمت. الطبيعة تعنى

الحرية والحرية لا تمنح وإنما تنتزع. هكذا علمنا سيدنا، العالم ملكًا لمن يفهمه».

تذكرت نفس الفلسفة الشيطانية التى كان ينعق بها (جميل)، دائمًا ما كان التكبر وتصنيف الناس إلى درجات أولى حبائل الشيطان، قلت له محاولًا سبر أغوار طريقة المجئ إلى السفينة:

- «وكيف وصلت إلى هنا يا (أندرو)؟ أعنى كيف حظيت بهذا الشرف وأنت بهذه السن الصغيرة؟».

نظر إلى الأعلى بأسى وترقرقت عيناه العسليتان بلمعة دمعية وقال:

- «أنا ولدت يتيمًا لا أعرف لى أباً أو أماً، ونشأت فى أحد الملاجئ الفقيرة، لم يخبرنى أحد أو يعلمنى دينًا غير أننى عرفت أن أكثر أهل البلدة على المسيحية البروتستانتية[1] وهم يختلفون عن الكاثوليكية والأرثوذكسية الشرقية وجميعهم مسيحيون أيضًا، ولأن الموضوع كان على كبر سن، ولم أكن توارثت دينًا أسريًا، فلم أكن متحيزًا كثيرًا لكون أن الدين الواحد ينقسم إلى فئات متحاربة بدون شىء ملموس، فما بالك بالمقارنة

(١) البروتستانت هي أحد مذاهب وأشكال الإيمان في الدين المسيحي. تعود أصول المذهب الى الحركة الإصلاحية التي قامت في القرن السادس عشر وكان هدفها إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا الغربية. وهي اليوم واحدة من الإنقسامات الرئيسة في العالم المسيحي جنبًا الى جنب الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية الشرقية. وتعتبر الكنيسة الأنجليكانية في بعض الأحيان كنيسة مستقلة من البروتستانتية.

بين أديان مختلفة، ولأننى كنت فطنًا عن أقرانى فقد تم ترشيحى للخدمة الكنسية فى إحدى الكنائس الصغيرة، وقد كان الوضع الأمثل ليتيم معدم مثلى، سيصبح يومًا راهبًا يمنح البركات والمواعظ - ولو أن البروتستانت ينادون بكاهن واحد في السماء وعلى الأرض، هو يسوع المسيح، دون أي كهنوت للبشر- ولكن مالا شك فيه هو الحصول على الحياة الطيبة والاحترام، وقد كان حظى يناديني حيث كانت الكنيسة الصغيرة ستاراً للحقيقة الوحيدة والخالدة على الأرض وهى الشيطان، كانت كنيسة لعبادة الشيطان ولكن فى الخفاء، رأيت المعجزات بعينى واستمتعت بملذات كثيرة حرمت منها لفقرى، شعرت لأول مرة أننى أمتلك حياتى، وقررت أن أعبد من يوفر لى حياة آمنة ورغدة، وعندما وجدوا حماسى الشديد فى الخدمة، شرفت بأن أكون خادمًا على ظهر (ملكوت)».

ابتسمت بأسى وشعرت بالشفقة عليه، ماذا كنت تنوى يا (جميل) فى هذا الجحيم؟ وكيف تواصلت معه؟ كدت أن أوعظه دينيًا، ثم أتى إلى خاطر أن ربما يكون حولنا من الجن من لا أراهم، فأنا فى وطن الشيطان نفسه، شعرت بمسؤلية كبيرة على (أندرو) الذى عاجلنى قائلًا:

- «لقد تحدثت عن أشياء شخصية بعيدة عن موضوعنا، معذرة فالحديث معك أخذنى رغمًا عنى، سنبدأ أول الطقوس، وهو طقس مهم واسمه استحضار الشيطان، وهذا الذى يقيم الوصل ما بينك وبينه فى أى مكان، شيئًا ما يشبه الصلاة لكنه أكثر متعة».

امتقع وجهى، ووضعت يدى على صدرى وكأننى أتحسس إيمانى فى جوفى، ماذا عساى أن أفعل؟ ثم تذكرت موقف الرسول مع عمار بن ياسر[1] عندما أجبره الكفار على سب الرسول وعندما علم أنه فعل ذلك اتقاء العذاب قال له إن عادوا فعد، والله يعلم أنى مكره، فقلت له:

- «حسناً ولكن ليكن الأمر تدريجيًا رجاء».

قال وقد نهض من على الأرض وتوجه إلى أحد الأركان فى الحجرة وأحضر إبريقاً وطلب منى أن أرشف منه قائلًا:

- «أشرب قليلًا لتحرر عقلك».

قربت الإبريق من فمى اتصنع الشرب فدفعه بيديه فجأة فتدفق بعضه إلى جوفى وكأنه كان يتوقع تصنعى. شعرت أنه ربما يكون خمرًا من حيث اللون القريب من الحمرة والرائحة المختمرة، حيث لم أذق الخمر فى حياتى، يا ويلى، ترى هل سيحرمنى الله من خمر الجنة بفعلتى هذه؟ ولكنى مكره، الله يعلم أننى أحافظ على حياتى التى لن يتكبدوا عناء يذكر فى التخلص منها إذا افتضح أمرى، وعلى حين كنت غارقًا فى

(١) كان من السابقين للإسلام حيث أسلم هو وصهيب بن سنان في دار الأرقم فكانا من أول سبعة أظهروا إسلامهم. أمه سمية بنت خياط أول شهيدة في الإسلام. هاجر إلى المدينة وشهد بدرا والمشاهد كلها وتعرض لصنوف من العذاب من قريش، وروي أن عمّار جاء بعد أن أفرجت عنه قريش إلى النبي فسأله: ما وراءك؟. قال عمّار: شرّ يا رسول الله، ما تُركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. فقال: كيف تجد قلبك؟ قال عمّار: مطمئنًا بالإيمان. قال النبي: فإن عادوا فعد

خواطرى وأمسك برأسى، وفى ثوانٍ معدودة بدأت رأسى فى الدوران، طلب منى (أندرو) أن أستلقى على الدائرة بحيث يكون رأسى وكل طرف من جسدى على رءوس من رؤس الدائرة الخمسة، امتثلت له وقد شعرت بالخدر يتملك أنحاء جسدى و يلعب برأسى، وما إن استلقيت على الأرض حتى بدأ هو فى توجيه أطرافى على النجمة التى على الأرض، وهنا نظرت إلى السقف ولاحظت أن ثمة نقوشاً على سقف الحجرة لتنانين، ورءوس كباش مرعبة وثعابين، وأناساً عراة وأطفالاً بأجنحة. وجدت نفسى أستغرق فى التحديق بالرسوم المتقنة و بهت كل شىء حولى فى الحجرة ذات الأضواء الخافتة، وبدا لى صوت (أندرو) يقرأ أشياء غريبة بصوت غريب، ثم فجأة رأيت التنين الذى يشبه الثعبان فى النقش المتقن يتحرك من حول الرسمة التى تشبه لوحات مايكل انجلو[1] وكان الثعبان ذو وجه التنين يدور حول الأشخاص برشاقة وبدأت بقية الشخوص بالرسم فى التمايل والتلامس، وخيل إلى أننى اسمع ضحكات ماجنة، وكان بعضهم يحمل

(١) ميكيلانجيلو بوناروتي (بالإيطالية: Buonarroti Michelangelo) ١٤٧٥ - ١٥٦٤ كان رساما ونحاتا ومهندسا وشاعرا إيطاليًا, اعتبر ميكيلانجيلو أن جسد الإنسان العاري الموضوع الأساسي بالفن مما دفعه لدراسة أوضاع الجسد وتحركاته ضمن البيئات المختلفة. حتى أن جميع فنونه المعمارية كانت ولابد أن تحتوي على شكل إنساني من خلال نافذة، جدار، أو باب، من أشهر أعماله لوحات جدارية عملاقة أثرت بصورة كبيرة على منحى الفن التشكيلي الأوروبي مثل تصوير قصة سفر التكوين في العهد القديم على سقف كنيسة سيستاين، ولوحة يوم القيامة على منبر كنيسة سيستايت في روما.

كؤوسا من الخمر وكأنهم فى تمايلهم ينزل بعض من قطرات الكؤوس على وجهى. كانوا بعدما يتعانقون يلتف حولهم التنين و يبتلعهم، ثم خيل إليّ أنى سمعت صرير الباب وبدا لى أن وجهًا أنثويًا ملتحفاً وشاحًا مخمليًا شفافًا على جسد عار يقترب منى، بدت لى أنثى ماجنة وتوشك أن توقعنى فى الفسق. ارتجف جسدى فى مقاومة يائسة عندما شعرت بجسدها الدافئ يجثم على صدرى، إلا هذا. فتحت فمى فى صرخة لم تخرج، يا رب ساعدنى، إلا هذا الذنب يا رب، ثم شعرت أن التنين خرج من الصورة التى على السقف ودخل فى فمى، وفقدت الوعى.

❐❐❐

أفقت فى حجرتى بدون سترتى، والعرق ينصب من جسدى، رغم أن الجو شديد البرودة، ففهمت أنى وقعت فى الفاحشة، أخذت أبكى بحرقة شديدة، وأستغفر الله بصوت مرتفع باللغة العربية، دون أن أبالى بما حولى وألطم وجنتى، لقد سقطت فى يد الشيطان وفى حبائله، هل استسلامى لهذا الطقس الفاجر جعلنى مسكونًا بالشيطان ولا مهرب بعد الآن؟ سامحنى يا ربى ونجنى من عمل المفسدين.

انتفضت على الباب يطرق وكان (اندرو) بالباب، أذنت له بالدخول فدخل على بوجه باسم وزاد ضحكًا عندما لمح دموعى واحمرار عينى وقال:

- «مستر (سعيد) أنا لا أصدق، هل من المعقول شاب فى الخامسة والعشرين من العمر وميسور الحال ولم تقرب أنثى إلى الآن؟ لا أصدق

أنك فررت من (شرويد) بهذا الشكل ولطمتها بهذا العنف، أتعجب من وجود إنسان بهذا الطهر فى هذا العصر، للحق كنت سأشعر بالذنب لو كنت أول من يدنس هذا الطهر، أحب دائمًا أن أكون التالى فى الشر، لا أدرى ما المنطق ولكن هذا هو حالى».

انتفضت من مكانى وأمسكته من وجهه بيدى وقلت:

- «أتعنى أننى لم أفعل ذلك؟».

ثم قلت بالعربية:

- «الحمد لله رب العالمين».

نظر إلى (اندرو) بعد أن قضم ضحكته وقال:

- «مستر (سعيد) يبدو أن دينك القديم ما يزال مسيطراً على عقلك اللاواعى ويبدو أنك تلفظت باسم (الله) وأظنها تعنى ربك القديم فى دينك القديم، ولذلك فيجب أن تزيد جرعة الطقوس وأن تنخرط بنفسك وبروحك فى الأمر، إذا كنت تنوى أن تكون من جنود سيد الظلام».

استغفرت الله فى باطنى وقلت له وأنا أتوجه لـدولابى أرتـدى سترة ومعطفاً:

- «لا عليك الأمر مجرد تعود، ولكن أرجوك دعك من أمر الطقوس هذا لأنه أمر يشتتنى كباحث، وأخشى أن يفقدنى تركيزى فأنصرف عن مهمتى الأساسية».

قال (أندرو) بملامح يبدو عليها عدم الاقتناع:

- «حسناً إذا كانت طقوس الاستحضار الجنسية لا تناسبك، أظن أن طقوس الدم ستكون أمرًا لا مفر منه، مستر (سعيد) لن أخفى عليك، ستودع براءتك لا محالة، مادمت ارتضيت أن تكون هنا، هنا دين الحياة، والحياة تبنى على الموت، فلكى تحيا النباتات تتغذى على تحلل الحيوانات النافقة، والحيوانات بدورها تتغذى على النباتات أو على بعضها البعض من آكلى النباتات، الكون سلسلة من الآكل والمأكول، القاتل والمقتول، الأمر لك، سأتركك لترتاح، لديك غدًا ليلة مهمة فى حياتك وأتوقع أن تكون صعبة عليك».

كانت أول مرة ألمح فى عين (أندرو) تلك النظرة القاسية.

قال ما قال وانصرف، وبدأت فى عصف ذهنى كاد يفتك بى، ترى هل سأنجو كل مرة؟ ترى هل سأشارك فى صنع فيروسات فتاكة، وأمراض قاتلة، وأتحمل أوزار كل من سيعانون بها إلى يوم الدين؟ ترى هل سيغفر الله كل ذلك لى لأننى مكره؟ أظن أن رحمة الله و إن شملتنى فضميرى لن يتركنى أهنأ على عيش فى حياتى، بالتأكيد أنا لست هنا كى أرتكب كل الموبقات ثم سيغفرها الله لى لأننى مكره، لما لا يكون اختبارا من الله، ووجودى هنا له هدف يجب أن أحققه بمنع هذا الطوفان عن البشرية؟ ربما تكون حياتى ثمنًا بسيطًا لإنقاذ البشرية، نظرت إلى البحر من نافذة غرفتى وقد كان الليل يشبه فراغًا، و يتخذ لوناً بنفسجيًا يشبه لون البحر،

مما يجعل المشهد كما لو كان فى السماء وليس البحر، همست إلى ربى قائلًا:

- «يا ربى، اللهم إنك قد استودعتنى بجوار الشيطان، وفى فلك بعيدًا عن العمران، اللهم إن كان لذنب فعلته فاغفر لى فأنت أهل الغفران، وإن كان اختبارًا لى فأعنى برحمتك يا رحمن».

شعرت براحة وسلام وتواصل مع الله، وعزمت أن أفعل ما فى وسعى من مكر لتخريب هذا الجحيم، أو الهرب منه، مهما كان الثمن، وكانت أول مرة أنامها فى الباخرة دون أن أكون فاقدًا للوعى.

□□□

الأربعاء ١٧ فبراير ١٩٦٠..

استيقظت على ضوء النهار الذى زحف إلى من النافذة الدائرية التى فى حجرتى والذى كان خفيفًا جدًا رغم أن الساعة تجاوزت الواحدة ظهرًا، بدأت أتفقد حجرتى كأنى أراها للمرة الأولى، كانت حجرة فخمة جدًا -على الاقل بالنسبة لى فى هذا الوقت- كان يوجد دولاب جانبى لم أنتبه له من قبل، تقدمت نحوه وفتحته فوجدت ملابس وأدوات نظافة وعطورا فاخرة، وفى رف آخر يوجد زجاجات خمور تبدو غالية، تنبهت أن بالحجرة أيضًا حماماً فدخلت فوجدت حوضا صغيرا عليه مرآة، ووجدت أدوات الحلاقة كأنها بانتظارى، مضى وقت طويل قبل أن أطالع وجهى فى المرأة، أخذت أتأمل ملامحى التى أغبرها السفر والخوف، ثم قمت

بحلق لحيتى وشاربى فعدت مشرقًا، وارتاحت نفسيتى بعض الشىء، ثم عدت إلى الأريكة التى تقابل سريرى أرتب أفكارى. ينبغى أن أهرب من هنا هذا مفروغ منه، ولكن يجب أن أحدث تخريبًا يؤدى إلى إغراق السفينة قبل هروبى، للتخلص من هذا الجحيم، ولضمان عدم الملاحقة، لذا يجب أن أقوم بدراسة السفينة جيدًا، وأرجو ألا تكون بمحرك نووى، كتلك التى بدأ الاتحاد السوفيتى وأمريكا فى إنتاجها[1] ساعتها سيكون الأمر كارثيًا، ولكن لو كانت تعمل بالديزل فلابأس من إغراقها، ترى هل يستطيع شخص مثلى إغراق سفينة بهذا الحجم وبهذا المحتوى من شياطين الإنس والجن؟

فتحت باب حجرتى وخرجت إلى الرواق الطويل الذى على جانبيه حجرات المبيت، وصعدت سلمًا إلى أعلى فوجدت نفسى على سطح السفينة، والتى كان به عدة مقاعد يجلس عليها البعض يتناقشون

(١) في عام ١٩٥٤م، دشنت الولايات المتحدة أول سفينة في العالم تعمل بقوة الدفع النووية وهي الغواصة نوتيلس التي سحبت من الخدمة عام ١٩٧٩م كما بنى الاتحاد السوفييتي (سابقا) أول سفينة تعمل على السطح وتدفع بالقوة النووية وهي كاسحة الجليد لينين التي بنيت في لينينغراد (سانت بطرسبرج الآن) ودخلت الخدمة لأول مرة عام ١٩٥٩م وهي أكبر كاسحة ثلوج في العالم أما أول سفينة تجارية تعمل بالطاقة النووية في العالم فقد دشنتها الولايات المتحدة عام ١٩٥٩م، وتسمى السافأنا وقد توقفت عن العمل منذ عام ١٩٧١م ومنذ الخمسينيات من القرن العشرين دأبت كل من ألمانيا واليابان والاتحاد السوفييتي (سابقا) على بناء سفن تجارية تعمل بالطاقة النووية لكن استخدام الطاقة النووية للسفن التجارية لايزال أمرا غير ممكن نظرا لأن تكاليف بنائها وتشغيلها عالية.

أو يلعبون الشطرنج وكأنهم ينعمون بحياة طبيعية، على متن سفينة سياحية، تقدمت إلى السور المطل على المحيط الذى لا يظهر فى أفقه سوى تلاحم الماء بالسماء، ونظرت إلى البحر أتمنى لو تواتينى الجرأة للقفز منه هربًا، وعندما رمقت ببصرى، وجدت المدعو (يغوث) فى مقدمة السفينة، وظهره ناحيتى، ويرمق الأفق، وعباءته تتطاير إلى الخلف، فى وقفة مهيبة، ثم إذا بـ (اندرو) يضع يديه على كتفى فى خفة فاجأتنى وقال:

- «خرجت من الشرنقة أخيرًا، أهلاً بك فى (ملكوت)».

ابتسمت ابتسامة بائسة وقلت له:

- «سأعتاد الأمر لا تقلق عليّ، هى مسألة وقت لا أكثر».

قال مواسيًا:

- «لا تبتئس، أنا أعرف أن كل شىء يحتاج لوقت، لماذا لا تشارك اجتماعيًا مع باقى الزملاء؟ الاختلاط له مفعول أقوى من الطقوس فى ظنى، تعال أعرفك على بعض الزملاء».

قال ذلك وهو يسحبنى من يدى كطفل صغير ناحية مجموعة من الشباب والفتيات يجلسون على إحدى الطاولات ويلعبون بالأوراق مثلما يكون قمارًا، وكان على المائدة بعض الكؤوس من الخمر، قدمنى اليهم قائلًا:

- «مستر (سعيد) زميلكم الذى حدثتكم عنه، أريدكم أن تخرجوه من

عزلته ولكن لا علاقات جنسية وألا ستتحملون العواقب، يكفى أن تنظروا إلى صفعته على وجه (شرويد) عندما حاولت العبث معه فى الطقوس».

احمر وجهى بشدة، ما هذه الفضائح؟ وزاد حرجى عندما بدأ الجميع فى التعامل معى كطالب جديد فى الصف وسط طلاب قدامى، وبدأ كل منهم يرشقنى بكلمة، ويدعونى للجلوس بجانبه، صممت أذنى عن كل ما قيل محاولًا أن أبدو طبيعيًا، حيث إنهم كانوا مرحين ويبدو عليهم التهذيب والبيئة العالية، ولكنى لم أستطع أن أصم أذنى عن صوت فتاة فى العشرين من عمرها نهضت من على كرسيها وكأنها فى التفاتة رقصة غجرية، كانت ترتدى تنورة كاروهات حمراء فوق ركبتيها، وعليها رداء قصير أحمر، وجورب طويل أبيض عليه شرائط متقاطعه تمتد إلى الحذاء -عرفت فيما بعد أنها لا ترتدى شيئا إنما هو لون بشرتها البيضاء اللامعة وشعرها أحمر نارى به تموجات واسعة، وبشرتها تكاد تضئ من البياض، كانت كشعلة من اللهب لشهاب يسقط من السماء، أمسكتنى الفتاة من يدى تدفعنى للجلوس بجانبها فامتثلت لا إراديًا لها وهى تقول:

- «مستر فيرجن[1] سيجلس بجانبى أنا».

قال (اندرو) وهو ينصرف مشيرًا لها بسبابته:

- «(مارى) لا علاقات جنسية، ولا أحاديث أيضًا).

(١) virgin اى شخص لم يمارس الجنس.

جلست فى خجل ولم أكن لأجلس وسطهم رغم خجلى لولاها، تابعوا مرحهم ولعبهم، ورفضت بالطبع الانخراط فى اللعب معتذرًا لجهلى للحرمانية، ولكنى قررت أن أهون على نفسى اكتئابى فهم مرحون حقًا، وهى جميلة بشكل قاسٍ وكتلة مفعمة بالطاقة، طرقت بعينى إلى حيث يقف (يغوث) فخيل إليّ أنه كان ينظر ناحيتى ثم أدار وجهه إلى البحر حينما لمحته مما أثار رعبى، ترى هل يشك بى؟ ترى هل يقيض لى جنيًا فى غرفتى ينقل له أخبارى، ولكن الجن لا يعلمون الغيب ولا يقرأون الأفكار، من الممكن أنهم معنا ويروننا من حيث لا نراهم ولكن مؤكد لن يعرفوا إلا ما نبديه دون بواطن الصدور، أنا لم أبد ما يفضحنى وهم اعتبروا إغماءاتى أمرًا طبيعيًا من رهبة المكان، ولكن ماذا لو لم يكن غيبًا وكان (جميل) ظهر فى الصورة وعرفوا أننى مزيف؟

انتفضت أثر لمسة (مارى) على كتفى انتزعتنى من شرودى قائلة:

- «مستر فيرجن أين شردت، ألن تشاركنا فى الدور القادم أم أنك تستحى من اللعب أيضًا؟».

ابتسمت وقلت محاولاً ألا أبدو غريبًا أكثر من ذلك.

- «أنا لم أحاول من قبل، ولا أعرف القواعد، مما سيجعلنى أكثر عرضة للسخرية إذا شاركتكم، ربما أستطيع التقاطها سريعًا وساعتها سأسخر منكم جميعًا».

ابتسم الجميع وقال أحدهم:

- «بروفسير (سعيد) نحن لا نقصد إساءة أبدًا، بالتأكيد تدرك ذلك».

- «بالطبع أنا أعلم، وأحببت طريقتكم فى المرح، أنا فقط من بيئة شرقية ليس بها نفس أسلوب الحياة».

نهضت من بينهم مستأذنًا بعد تورطى فى الجلسة الاجتماعية رغمًا عنى، وقد كان لى هدف محدد هو اكتشاف السفينة، ودعتنى (مارى) بابتسامة ونظرة مرحة وقالت:

«نرجو ألا نكون أزعجناك مستر فيرجن، أقصد مستر (سعيد)».

ابتسمت لها نافيًا وودعتهم جميعًا وعدت إلى أحد الأركان على سياج السفينة المطلة على المحيط، وأنا أرمق بعينى بناء السفينة العملاقة، والمداخن الفارعة التى بشرتنى أن السفينة ربما لا تعمل بمحرك نووى، من المؤكد أن غرف الوقود والمحرك فى الأدوار السفلى، ترى أين يسكن الشيطان؟ وأين ينتشر أعوانه؟ عدت أتأمل البحر وأرمق مكان (يغوث) فوجدته غير موجود فعدت للبحر أتخيل فى الافق بلادى وبيتى، لو عدت لدارى فلن أبرح بيتى ولن أسافر أى مكان ما حييت.

انتفضت مرة أخرى على لمسة مباغتة فوجدت (مارى) تقف بجوارى فانتابتنى القشعريرة، وكانت تهمس وهى تربت على كتفى فى مساحة اقتراب لم أعتدها من أنثى قبل ذلك:

- «مستر (سعيد) أرجو ألا تكون غضبت من مزاحنا، نحن فقط نحاول البحث عن المرح أينما كان، دون أى رغبة فى الاساءة، يبدو أنك أكاديمى بحت، ولكن نصيحة أنت تضيع أفضل أيام حياتك».

حاولت أن أنفى عنى تهمة الجمود، وقد بدأت فى ألفة حوارى معها وقلت وأنا أنظر فى عينيها ذات اللون العسلى الفاتح الذى يشبه غروباً هائجاً مشبعاً بالحمرة:

- «مزاحكم جميل، وأنا لست أكاديمياً بحتاً كما يظهر، لا أخفى عليكِ أنا أهاب الموقف لا أكثر، أنتِ مثلًا منذ متى على متن السفينة؟».

قالت وعيونها تتوجه إلى الأفق فتكشف عن مساحة أكبر فى بياض عينيها فيظهر لونها الاسمر الصافى:

- «ياه، تصور لم أحسب منذ فترة، أعتقد أنه قد مر شهور، ربما معك حق، عندما جئت إلى هنا كانت تنتابنى نوبات اكتئاب، خاصة وقد كنت أعانى صدمة عاطفية قوية، وقررت أن أعتزل العالم كله، لما ذكرتنى يا بروفسير؟ جئت أخلصك من اكتئابك... يبدو أننى سأصاب بالاكتئاب».

كانت نبرتها بدأت تميل إلى الشجن، ثم فجأة انقلبت نبرتها وعادت إشراقتها وانتزعت يدى قائلة:

- «لكنى قررت ألا أستسلم للاكتئاب مرة أخرى، تعال معى، إما أنا أو اكتئابك».

جرتنى من يدى كالطفل، ونزلت بى نحو درجات السلم إلى عمق السفينة مرة أخرى، وأنا لا أعرف إلى أين تأخذنى، كنت فقط أجدها فرصة جيدة لاكتشاف السفينة أكثر، فقلت كأنى لا أبالى، وأنا أحاول ملاحقتها، وهى تعدو بخفة كالفراشة بين المروج:

- «لم تخبرينى يا (مارى) أى الأقسام العلمية تتبعين؟».

قالت وهى تتنقل بين الأروقة، وتتلفت إلى من يقابلوننا بمرح، وتحييهم ببسمتها المفعمة، وكأن الجميع يعرفها و يستمد من تحيتها قدرًا من مرحها، الذى تفتقد إليه بالطبع سفينة الشيطان، حتى ولو توفرت كل سبل الفسق المتاحة، لا شىء كالروح المبهجة، ثم قالت ردًا على سؤالى:

- «أنا مسئولة الإمداد والتموين على السفينة، أى أنا التى تؤمن مطالبكم على السفينة، لست وحدى طبعًا، ولكن أنا رئيسة الفريق، ولا يغرك سنى الصغيرة وخفتى، لقد درست الاقتصاد فى جامعة غلاسكو[1] بإسكتلندا، أنا طبعًا لست عالمة اقتصاد، ولكن أفى بالغرض».

كنا قد وصلنا إلى مدخل مخزن كبير، فأخرجت مفتاحًا من جيبها وفتحت

(١) جامعة غلاسكو (University of Glasgow) هي إحدى أكبر جامعات إسكتلندا من حيث عدد الطلبة وواحدة من أقدم جامعات بريطانيا. وهي عضو في مجموعة راسل للجامعات، وواحدة من الجامعات السبع العتيقة في الجزر البريطانية. أسست في مدينة غلاسكو كبرى مدن اسكتلندا عام ١٤٥١، مما يجعلها رابع أقدم جامعة بالعالم. تحتل الجامعة حاليا حرما جامعيا جميلا، مبناه المركزي آية معمارية قوطية الطراز، يقع إلى الشمال الغربي من وسط المدينة.

الباب الكبير. دفعتنى للداخل وأغلقت الباب، كنت كالمخدر بين يديها، وبدأت أقلق من أن تأخذ الأمور منحنى أخشاه، كان مخزنًا عملاق به كل ما يمكن تخيله من البضائع، وجدتها تخرج لفافة بها نوع من البخور من أحد الأرفف وتشعله، فسألتها بإشارة يدى عن معنى ذلك فقالت:

- «إنها تطرد الجن، فلا أحب تطفلهم وأنا فى هذه المواقف».

أى مواقف تقصد؟ لا يا (مارى)، أنت فتاة جميلة، وفاتنة، ولا يحق لك العبث بهذه النعمة هكذا. كانت قد توجهت إلى أحد الأرفف وسحبت حشية من الأسفنج، ووضعتها على الأرض، ثم استلقت عليها وابتسمت تناديني، كادت ضربات قلبى أن تتوقف، والدماء التى تسارعت فى أوردتى غيرت من لون بشرتى، فابتعدت ناحية الباب فى ذعر، فنهضت من رقدتها، وتقدمت نحوى ببطء، وهى تنظر فى عينى، وكأنها تبحث عن شىء خلف أحداقى، وقالت:

- «غير معقول هل تجدنى سيئة إلى هذا الحد؟».

ابتلعت ريقى، وقلت وأنا أتحاشى النظر فى وجهها، خوفًا من فتنتها:

- «بل أنتِ أجمل من وقعت عليه عينى».

قالت وهى لا تصدق:

- «هل تعانى ضعفًا جنسيًا أم لك ميول مثلية؟».

قلت مبهوتًا وباللغة العربية:

- «لا طبعًا الحمد لله».

ثم عدت إلى الانجليزية قائلًا:

- «أنا بخير وطبيعى، العفة لا تعنى العجز، بالعكس، العاجز هو من لا يتحكم فى شهواته».

نظرت إلى وهى لا يبدو عليها الاقتناع بعد، ثم توجهت إلى الباب لتفتحه وانزلقت خلفها إلى الخارج بشكل تلقائى، فأغلقت الباب وانصرفت، تاركة إياى، دون أن تنبس بكلمة.

وقفت مع نفسى لحظات، لا أعرف ماذا أفعل، هل اكتسبت عداوتها وجرحت كبريائها؟ وماذا يقلقنى من كسب عداوتها؟ هل كان من المفروض أن أستجيب لها؟ ولكن لماذا تصر فتاة بهذا الجمال والمرح أن تكون مباحة هكذا لأى شخص، حتى لو كانت علاقة عابرة، مع شخص لم يمر على معرفتها به سوى دقائق، بل قل لماذا تعمل فى خدمة الشيطان؟ يجب ألا أنشغل بها أكثر من اللازم، فأنا لم أعرفها بعد، ولكن ترى هل كانت رغبتها بى مجرد تحد عندما علمت أننى لم أفعل ذلك من قبل؟ أو ربما للتسلية كوافد مختلف؟ أم أننى أروق لها؟ لا داعى للخيالات، فماذا أكون أنا وسط هؤلاء الفتية، من كل البلاد، وبكل الأشكال، سمعت أن الأوروبيات يغرمن بالرجل الشرقى، أم أنها خرافات نابعة من الأنا الشرقية؟ هؤلاء الفتية شديدو الوسامة ومن نفس البيئة والأسلوب، لقد ذهب عقلى بعيدًا، ربما تكون مسلطة من الشيطان نفسه ليدنسنى، بعدما

فشل فى المرة الأولى، ولكن خسارة أن تكون هذه الفتاة من جنود الشيطان، كم هو محظوظ لتكون مثلها فى خدمته، أستغفر الله العظيم ماذا أقول. أنتبهت من شرودى على مجموعة كبيرة من العمال قادمين من نهاية الرواق المظلمة يحدثون ضجة كبيرة، وكأن طاقة من نور فتحت فى نهاية الرواق المعتم أسفرت عن خروجهم، ترى هل تكون غرفة المحركات؟ أدرت ظهرى ماشيًا مع اتجاههم وقلت لأحدهم متصنعًا إننى أضبط ساعتى:

- «من فضلك كم الساعة؟».

قال أحد العمال السائرين بعجل:

- «للأسف لا أحمل ساعة، ولكنها نوبة الغداء، فالساعة مؤكد الثانية بالضبط».

ابتسمت كأنى كنت أعرف ونسيت، وأنا مازلت أمشى مسرعًا فى محاذاته وقلت:

- «بالتأكيد لذا فساعتى هى المتأخرة طبعًا، أنتم عمال المحركات أليس كذلك؟».

- «نعم ومن يتعرق فى هذا البرد سوانا؟».

- «أتعنى أن السفينة ليست بمحرك نووي؟».

- «لا طبعًا إنها تعمل بالديزل، ولكنه أرحم كثيرًا من الفحم، كان الناس قديمًا يعانون كثيرًا».

ابتسمت فى نفسى وتركته يسبق مودعًا إياه بابتسامة، إذًا هى تعمل بالديزل، والمحرك بجوار المخزن، وبناء عليه، لو تم تفجير فى جدار المخزن سيدمر غرفة المحرك، ولو كانت السفينة تعمل بالديزل فمعناه أن المخزن يحتوى على مواد بترولية ضخمة، مما يعنى تفجيرًا مناسبًا، ابتسمت وأنا أجد نفسى أكمل ملامح الخطة فى رأسى، ثم التفت يمينًا ويسارًا كاللص الذى يخشى القبض عليه، ثم هاجمنى قليل من الإحباط يتعارك مع قدر من الأمل مما أربك ملامحى فأصبحت شاردًا.

وصلت مع الجموع إلى غرفة الطعام الكبيرة جدًا، ويبدو أن كلا يعرف مكانه عدا أنا، فوقفت تائها، ثم وجدت (اندرو) يظهر كالعادة ويقول:

- «اعذرنى لم أخبرك قواعد الغذاء، أنت لم تأكل شيئاً منذ أمس، وهذا عيب فى حق ضيافتنا، هنا ستجد أفخر أنواع المأكولات، طاولتك رقم ١٨ مع زملائك فى المشروع».

تقدم بى نحو الطاولة فجلست، وانصرف هو إلى طاولته مودعًا، جلس حولى بعض الشباب وكبار السن منهم بروفسير (باركلى) الذى ابتسم ابتسامة ارستقراطية مصطنعة وقال حين رآنى:

- «يبدو أنك أصبحت بخير الآن، أرجو أن أراك غدًا فى المعمل».

كدت أن أقول إن شاء الله ثم رددت قائلًا:

- «بالتأكيد بروفسير».

بدأت الأطباق تنزل أمامى، فشرعت آكل بشراهة فى الآرز والخضراوات، ونظرت إلى شرائح اللحم متشككًا فى كونها تحوى لحم خنزير، ولاحظت أن البروفسير ينظر إلى، فقلت له مبتسمًا:

- «أنا نباتى لا آكل اللحوم».

هز رأسه مبتسماً نفس الابتسامة، ثم وأنا آكل بنهم، لتعويض ما فاتنى من طعام، وبعدما بدأ مفعول الشبع يكافح الصداع الخفيف الذى كان فى رأسى من أثر الجوع، بدأت أتأنى وظللت أتلفت فى أرجاء المكان الواسع أبحث عنها، ثم لمحتها طيفًا يتحرك بخفة، حيث وصلت متأخرة، ولولا أن الجميع جالس ما وجدتها.

ترى هل سببت لها جرحًا بالفعل وحرمت العالم من ابتسامتها المرحة ولو قليلًا؟ اشرأبت برأسى عسى أن ترانى لكنها جلست ولم تلحظنى، وكان ظهرها قبالتى، وكانت ترتدى قميصاً مكشوف الظهر والكتفين، تبرق منه بشرتها كالعاج الشديد البياض، ووجدتنى رغمًا عنى أنظر إلى العيون من حولها، هل ينظر لها أحد سواى أم لا؟ وكأننى أغار عليها، ماذا حدث لى؟ هل بدأت أتعلق بها؟ نظرت إلى الجالسين من حولى فى المكان كله فوجدت فتيات كثيرات، وجميلات ايضًا، ولكن عيونى وكأنها بهتت عنهن جميعًا فلا يظهر لى سواها، وباقى الصورة كأشباح باهتة، فكرت أن أصنع لفتة ربما تخفف شعورها نحوى، لظنها أنى رفضتها لعدم رغبتى فيها، أعنى لعدم تأثرى بها، أقصد ربما كان رفضى هذا لا ترجمة له فى عاداتهم إلا أنها لا تروق لى.

مددت يدى بخفة، وأخذت زهرة يافعة من المزهرية التى تتوسط طاولتى، وكان البعض قد انتهى من طعامه، والبعض الآخر مازال يتوافد على الموائد. نهضت وأنا أخفى الزهرة خلف ظهرى، وتقدمت من طاولتها، وما تزال لا ترانى، وانتظرت حتى نهضت إلى مكان غسل الأيدى، وكنت فى ظهرها لا ترانى بعد، وعندما تلفتت، أشهرت الزهرة فى وجهها وأنا أبتسم. ضيقت عينيها وقد فاجأها الموقف، ثم رفعت كتفيها البلورين كتعبير عن الحيرة والتقطت الزهرة، وهى تبتسم، ها قد عادت الشمس تشرق من جديد، وسط هذا البرد القارس، نظرت إلى وأومأت برأسها يسارًا لأتبعها فتبعتها، حتى صعدنا إلى سطح السفينة مرة أخرى، فأسندت يديها إلى السياج ووجهها إلى البحر والهواء يداعب خصلاتها إلى الخلف، رفعت إحدى قدميها للوراء وأخذت نفساً عميقاً. أسندت ظهرى إلى السياج وأخذت أنظر إليها، أحاول أن أملأ ذاكرتى من قسماتها، بتفاصيل أكثر، فنظرت إلي وقالت:

- «هل كانت لديك ظروف خاصة، وأنا سببت لك حرجًا ما؟ هل لديك صديقة وتؤثر ألا تخونها؟».

قلت وأنا أحاول صرفها عن تلك الوجهة الشهوانية :

- «لا أبدًا، كل ما فى الأمر أنى من بيئة مختلفة قليلًا، ونرى العلاقة بين الرجل والمرأة، من منظور مختلف، وخاصة العلاقة الجنسية، فلا يصح أن تكون خارج إطار الزواج، بصرف النظر عن الدين، لتقولى إنه عرف،

أسلوب تربية، أو حتى ثقافة مجتمعية، هذه العلاقة الجنسية هى التى ينتج عنها الأطفال، ومن حقهم الحضور إلى هذا العالم فى إطار أسرة مترابطة، من أب وأم يهتمون لشؤونهم، إلى أن يستطيعوا الاعتماد على أنفسهم، وبناء على هذه العلاقة، يلتزم الرجل بجميع احتياجات المرأة المادية والمعنوية، وتراعى المرأة شؤنه ومنزله وتربى أبناءهم... أنا لا أحب أن آتى لهذا العالم بطفل فى إطار غير ذلك، ولا أقبل أن أخذ متعتى من امرأة، ثم أنساها وأبحث عن سواها، أحب أن أختار امرأة أحبها وتحبنى، ثم نقضى عمرنا سويًا، ونصنع أسرتنا معًا».

توقفت عن الإسهاب عندما لاحظت أن عينيها ترقرقت باللمعان فقلت:

- «هل مازلت أرتكب حماقات تزعجك؟».

قالت وهى تمسح جفنيها:

- «مستر (سعيد) تحدثنى عن الزواج كأنى لا أعرفه، لطالما حلمت أننى فى بيت من الخشب يطل على مزرعة من القمح، وضوء الشمس يجعل كل حياتى من الذهب اللامع، وأصنع قالباً من الكعك، وأنا أنتظر شريكى، ثم يحترق الكعك منى، ويأكله رغم احتراقه، لطالما حلمت أن أصنع ضفائر فى شعر صغيرتى، وأصنع لها دمية من القماش قبيحة المنظر. ولكن هذه المشاهد لم أحسب أنها يمكن لها التحقق أبداً، لقد ولدت فى أسرة أنا أيضًا، لا تحسبنى لقيطة، لكن مع الأسف كان العالم على موعد مع حدث يستهين بكل المقدسات الانسانية وأهمها الحياة، لقد ولدت

والحرب العالمية[1] قد أستعرت وأكلت من أكباد الأسر رجالها وطفولة أطفالها، كان أبي مثلك كيميائيًا، وتم تجنيده، وكان على موعد مع الموت، فى جزيرة جرينارد[2] حيث كانت الحكومة البريطانية تستخدمها كمعمل لتجارب الحرب البيولوجية خلال الحرب، وهى التى شهدت تجربة ميلاد بكتريا الأنثراكس[3] حيث قتلت مئات الأغنام وأجبرت الحكومة البريطانية على وضع الجزيرة تحت الحجر الصحي، كنت لم أكمل عامى الثالث بعد حين توفى، حتى أننى لا أكاد أذكر ملامحه أو مرحى معه، لا أعرف منه إلا صورة باهتة قديمة كانت فى أدراج أمى، لا تعرف كم هو بائس أن تولد فتاة دون أن تدرك أول رجل فى حياتها وهو والدها، لا تدرك كم يطعنها هذا فى مقتل، وعندما أصبحت أسرتى بلا عائل، اضطرت والدتى للعمل فى أحد المصانع بأجر زهيد، بالكاد يكفل

(١) هي نزاع دولي مدمر بدأ في الأول من سبتمبر ١٩٣٩ في أوروبا وانتهى في الثاني من سبتمبر ١٩٤٥، شاركت فيه الغالبية العظمى من دول العالم، في حلفين رئيسين هما: قوات الحلفاء ودول المحور.

(٢) تقع شمال شرق أسكتلندا وهى جزيرة غير مأهولة بالسكان.

(٣) الجمرة الخبيثة أو أنثراكس هو مرض حاد تسببه بكتيريا الجمرة الخبيثة. يصيب كلا من البشر والحيوانات. أكثر أشكال المرض قاتلة بدرجة عالية. توجد لقاحات فعالة ضد مرض الجمرة الخبيثة، وبعض أشكال هذا المرض يستجيب بشكل جيد للعلاج بالمضادات الحيوية، ويمكن أن تنتج جراثيم الجمرة الخبيثة في المختبر وتستخدم كسلاح بيولوجي ولا تنتشر الجمرة الخبيثة مباشرة من الحيوانات المصابة أو من شخص إلى آخر، بل تنتشر عن طريق الجراثيم. هذه الجراثيم يمكن أن تنقل عن طريق الملابس والأحذية.

استمرار حياتنا، حتى ذبلت والدتى وأصابها المرض، وكنت لم أكمل الرابعة من عمرى حين تركتنى هى الأخرى، تربيت فى دور الرعاية حتى نضجت، ولم ينتشلنى من الضياع المحتم سوى منحة الجامعة، التى جاءتنى ربما عوضًا عن أبى الذى دفع حياته فى الحرب، حتى فى الجامعة عندما تمنيت أن أصنع أسرة، أحببت زميلاً لى، ولكنه كان شرهًا بشكل كبير، وكان يخوننى مع كل صديقاتى، رغم أننى لم أكن أقصر معه فى شىء، وكانت زميلاتى أقل منى جمالًا، لكنه كان لا يميز فى شهواته، حتى دخلت فى نوبة اكتئاب، وأصبحت أفعل مثله دون تمييز، تعرفت فى السنة النهائية إلى مجموعة شبان لديهم فرقة موسيقية وهم من دلنى على الطريق لمراسلة (ملكوت) حتى وصلتنى دعوتهم فأتيت إلى هنا وأنا أتمنى أن أنتقم من كل البشر، ذلك الجنس المتمرد الذى يستعذب القتل والتعذيب، لقد حان الوقت ليدفعوا ثمن أنانيتهم واستباحتهم لكل شىء جميل».

أخذت نفسًا عميقًا وقلت:

- «أنا آسف يبدو أن كل محاولة منى لأجعلك تعاودى الابتسام ينتج عنها المزيد من الجرح».

ابتسمت فجأة وعاد إليها إشراقها مرة أخرى وقالت:

- «أنت لم تؤذنى أبدًا بالعكس، يبدو أننى كنت أنا من ستؤذيك، مستر (سعيد) فى عالم قل فيه الأنقياء ليتك تبقى على براءتك وهنيئًا للمرأة التى سيكون من نصيبها رجل مثلك، مخلص لها حتى من قبل أن يقابلها».

ثم ابتعدت تاركة اياى فى مكانى وقالت:

- «ليتك لم تأت إلى هنا».

ظللت فى مكانى متصلبًا ما بين مجموعة مختلطة من المشاعر والاضطراب جعلتنى للحظات غائبًا عن إدراك وضعى على السفينة، أخذت أفكر، ترى هل يمكن أن أكون أثرت إعجابها؟ - بعيدًا عن العلاقة الجنسية التى بلا تمييز- ترى هل يمكن كرجل شرقى أن أقبل الارتباط بفتاة فعلت من قبلى كل هذه العلاقات؟ وهل يمكن كرجل مسلم أن أتزوج فتاة تعمل فى خدمة مخطط شيطانى لدمار البشرية؟ خسارة يا (مارى) ليتنى لم أقابلك هنا.

عدت إلى غرفتى واضطجعت على سريرى محاولاً سرقة ساعات من النوم تضيع الوقت وأنا مختمر فى شعور لطيف من عبير (مارى) أخرجنى من جحيم المكان إلى جنة حقيقية وأستغرقت فى النوم للمرة الثانية.

□□□

انتفضت من نومى على طرقات منتظمة على باب الغرفة وعندما نظرت من نافذة الغرفة كان الظلام دامسًا مما يعنى أننا مازلنا ليلًا وكان الطرق يصاحبه قرع بجرس صغير، نهضت من مكانى وفتحت الباب على رجل لا أكاد أتبين ملامح وجهه، يرتدى عباءة سوداء بغطاء رأس تلقى ظلالًا على وجهه ليبدو كتجويف بلا رأس وكان يمد يده إلى بعباءة مثلها فأخذتها وأنا أنتفض عندما بدت يداه سوداء تشبه جزوع الأشجار التى أوحلها الطين وما أن ألقاها إليّ حتى ابتعد نحو الحجرة التى تجاورنى

فأغلقت الباب فى رعب، ثم تذكرت مجموعة كلمات من أحاديث الجميع عن الليلة الصعبة وفقدان البراءة والطقوس الدموية، وسمعت لقلبى خفقانا يشبه فقاعات الهواء التى خرجت من محبسها فى بركة ضحلة من الماء، وظللت أردد فى نفسى قائلًا (حسبى الله ونعم الوكيل) ثم سمعت طرق الباب مرة أخرى، وكان طرقًا عشوائيًا لا يشبه الأول، فتحت الباب بحرص فوجدت (أندرو) يرتدى نفس العباءة ولكنه كشف عن رأسه فجذبته فى صدرى بعفوية أبحث عن الأمان فقال لى

- «هدئ من روعك مستر (سعيد) ستتلاشى الصعوبة شيئًا فشيئاً ولكن يجب أن تسمع كلامى لأنه لا يسمح بالخطأ فى القداس الأسود وهناك لا يوجد متسع للمنطق ولا العلم ولا التردد، فكن على مستوى الحدث»

كنت أهز رأسى كطفل صغير تسمعه أمه تعليمات الخروج إلى السوق لأول مرة خشية الضياع، ثم قال وهو يناولنى العباءة التى كنت قد ألقيتها على السرير.

- «ارتدى هذه وغط رأسك ولا ترتدى شيئاً تحتها لأنها مصنوعة من الصوف ومخاطة بشعر الخيول، أى ملابس أخرى غير الكتان ستكون معرضة للاحتراق عليك، فلا تستهن بكلامى، سأتركك لتبدل ملابسك، وسأكون فى انتظارك بالخارج، لا تتأخر».

أغلق الباب، وأخذت ألطم وجنتى من الرعب، ووقفت متسمرًا مكانى، لولا أن (اندرو) عندما تأخرت عاود طرق الباب على مرة أخرى، ففعلت

ما طلبه مذعوراً، وشعرت أن العباءة مصنوعة من وبر كأنه مازال حيًا، وكأن شعيرات جسدى كلها قد ارتفعت إلى أعلى، تدفع هذا الرداء عنى، فتحت الباب بحذر، فالتقطنى بعنف من يدى، وغطى رأسه وغطى لى رأسى، عبرنا بين صفوف من الأشباح المتشحة بالعباءات، التى ما عدت أميز فيهم أحدا سوى (أندرو)، الذى صلبت عينى عليه أتبعه بين الكتل السوداء الهائمة، ثم نزلنا إلى درج سفلى مستدير، هوى بنا كثيرًا إلى أسفل، حتى وصلنا إلى ساحة واسعة جدرانها من الحجر، وكأننا غادرنا السفينة إلى معبد قديم، تضيئه المشاعل، ويتوسطه طاولة من الرخام القديم، تشبه طاولة تغسيل الموتى، فى ثناياها قنوات موزعة بشكل منتظم، ليصفى الماء فى أوان حجرية، على جوانب الطاولة، وكان فى الأمام مجسم رخامى يشبه القبلة، أمامه زوجان من الأعمدة القصيرة، وعلى اليمين مجسم لنجمة خماسية من الخشب العتيق داخل دائرة تشبه ساقية كبيرة قديمة، على جنبات أخشابها ترسبت وجفت الرواسب الضحلة كما خيل لى ساعتها.

كانت الأرض بها رسومات ورموز مرسومة بالطباشير، أخذ الجميع يتراصون حولها بأشكال معينة، وعندما أفقت من تأملاتى، وجدتنى أضعت فى الزحام (اندرو)، ثم وجدت يدًا تدفعنى من بين الحضور لأصطف فى مكان ما، لم أتبين إن كان هو أم لا، غير أننى امتثلت متوجهًا إلى حيث تم دفعى، ثم ارتفعت أصوات صاخبة منتظمة بالكاد تكون إيقاعاً من الطبول الإفريقية، وفحيحاً وصياحاً هو ما يتبين من صوت بشرى، على هذه الخلفية الصاخبة، وبدأت ألسنة اللهب تعلو وتخبو على نحو غريب،

وأنا أقف فى مكانى متسمرًا، أخشى أن أتلفظ بأى تسبيح خشية أن يتم التعرف على، فيبدو أن البشر لم يكونوا كل المدعوين، ثم لمحت شخصاً بهيئة أعرفها، كان (يغوث) والذى كان يغطى رأسه أيضًا لولا ظهور أنفه المدبب الذى ميزته جيدًا، وتوجه إلى نصف عمود وضع عليه كتاباً، ويبدو أنه بدأ يقرأ منه بصوت مرتفع بلغة غريبة، صمت كل المكان إثر قراءته حتى أن شعلات النيران خبت كثيرًا من الخشوع، ثم أشار بيده فتقدم من جانب الحجرة رجلان يرتديان على خلاف الجميع عباءات حمراء، ويجران طفلاً صغيراً، لم يكد يبلغ الثالثة من عمره، ينظر يمينًا ويسارًا ويصرخ فى فزع، وبدأوا فى تثبيته على اللوح الحجرى، بعد أن جردوه من ملابسه، وقاما بلف ثوب من الكتان على قدميه، والطفل يصرخ حتى بح صوته، فأصبح مجرد اعوجاج فى فمه يشير إلى بكاء، وعيون ترتعش من رجة الصدر الصغير، وكانت بطنه الصغيرة تنتفخ وتخبو فى بكاء منتظم، شعرت أنى أصبت بدوار وشعرت أن قدمى ترتعش بشكل لا إرادى، جعلنى أمسك بها كى لا أسقط على الأرض، وأظن أن حدقتى قد اتسعت حتى كادت عيونى تتدخرج خارجة من محاجرها، توقعت ما سيفعله هؤلاء الشياطين بالطفل الصغير، وشعرت بعجز رهيب، ماذا أفعل لإنقاذ الطفل المسكين؟ وما إن توجه أحدهم يحمل سكيناً فى اتجاه عنق الطفل، وكان الطفل ينظر إلى يمينه صارخًا لمن ينجده، وما إن ألتقت عيناي بعينيه حتى وجدتنى أفرغ ما فى معدتى، وخررت على الأرض فاقدًا الوعى.

❐❐❐

الخميس ١٨ فبراير ١٩٦٠..

أفقت تدريجيًا من إغمائى، ولم يكن حولى أحد هذه المرة، ووجدت أن النهار قد شقشق، ثم بدأت ذاكرتى تؤلمنى ببعض المشاهد من الليلة السابقة، ووجدت نفسى مازلت أرتدى العباة الصوفية التى كانت ملوثة من القئ فنزعتها عنى، وألقيتها فى ركن الحجرة، ورغم البرد الشديد جلست متكومًا فى ركن سريرى أبكى بكاء الأطفال، كان يجب أن أنقذ الطفل حتى ولو كانت حياتى ثمنًا، ولكن هل كانت حياتى ستكون ثمنًا مقبولاً، وكان سينجو؟ ثم سمعت طرقات بالباب واكتشفت أنى بلا ملابس فنهضت مسرعًا إلى الدولاب والتقطت روبًا وضعته على جسدى، وفتحت الباب، فوجدت (اندرو)، فهدأ روعى قليلًا لرؤيته فقال:

- «وقت الإفطار، فضلت أن أوقظك بنفسي لأنه يفوتك دومًا، وأنت لم تتناول عشاءك».

بدا له بالطبع إنى لا أكترث بالطعام، وكان يتكلم معى ليتحسس نفسيتى فقال:

- «أعرف أنها تجربة صعبة، ولكنك ستعتاد الأمر، هم أيضًا قدروا ظروفك، لقد أفسدت القداس، وهذا من الصعب غفرانه».

نظرت له نظرة حقد شديدة وقلت:

- «أى طقوس هذه، من أين أتيتم بهذا الطفل؟ وما هى جدوى إزهاق روح بريئة لن يضركم موتها ولن ينفعكم فى شىء؟».

مط شفتيه وقال:

- «أنا أقدر غضبك مستر (سعيد)، ولكن الطقوس تؤدى كما هى، لها قانونها الذى لا يشترط فهمه، لكن نلتمس نتائجه، القداس الأسود ضرورى لتقوية النفس، حتى ليصبح أى شىء بعدها فى نفسك مقبولًا، وستصبح حياتك أكثر سهولة، وساعتها ستكون لبنة مؤهلة فى بنائنا وسيدًا لقوى الطبيعة، القتل يحدث شرخًا فى النفس وهياجًا فى قوى الطبيعة، ربما يكون الأمر صادمًا لك، ولكن اعتياد الأمور يجعلها مقبولة، وليست كل القداسات السوداء تقام من أتباع الشيطان فى معابد، القتل هو القتل أيًا ما كان مكانه، وما أكثره، فمن عهد ليس بالبعيد كان العالم كله فى أتون حرب أزهقت خلالها ستون مليون نفس فيما لا يجاوز ست سنوات، أما إذا كانت طريقة القتل هى التى تضايقك، فاسمح لى أن أعدد لك طرق القتل خلالها، ما بين طلقات صغيرة، تخترق النسيج الحيوى وتمزقه، وتصنع ثقوبًا يتدفق الدم من خلالها على الأرض حتى يتصفى- كما نفعل نحن فى القداس الأسود لكننا نستفيد بالدم النازف- وهذه أرق طريقة، أما إذا أصابت الرصاصات الرأس فربما تشطرها نصفين، فيتدفق المخ منها، أو الضلوع فتحطمها، أو القلب فتفجره، هناك أيضًا القنابل، وبعضها يصنع تفريغًا فى الهواء، بحيث يفتت الجسد إلى أجزاء، وبعضها حارق فيشوى الجسد حيًا، ولعلك تعرف أكثر منى ماذا فعلت القنابل النووية التى ألقيت على هيروشيما

ونجازاكى[1]، ويوجد الأسلحة البيولوجية التى تزرع الجراثيم لتنخر فى الأجساد قبل أن تجهز عليها وأظن أنك أدرى منى بها أيضًا، وتلحقها الأسلحة الكيميائية التى تتنوع بين السموم القاتلة والغازات المدمرة، هناك أيضًا الألغام، التى ربما تترك الإنسان حيًا، ولكن بعدما تتخير أن تحرمه من أحد أطرافه، صدقنى مستر (سعيد)، الشيطان برئ من كثير من هذه الابتكارات القاتلة، بل إنه ما يزال يستخدم الطرق القديمة التى ينظر لها البشر اليوم أنها قد عفى عليها الزمن، لا تحزن على هذا الطفل الصغير فهو لم يدرك بعد أى شىء يبكيه فى هذه الحياة، وليس

(١) هجوم نووي شنته الولايات المتحدة ضد الإمبراطورية اليابانية في نهاية الحرب العالمية الثانية في أغسطس ١٩٤٥، حيث قامت الولايات المتحدة بقصف مدينتي هيروشيما وناجازاكي باستخدام قنابل نووية بسبب رفض تنفيذ إعلان مؤتمر بوتسدام الذى يقضى بأن تستسلم اليابان استسلاما كاملا بدون أي شروط، وعندما رفضت امر الرئيس هاري ترومان رئيس الولايات المتحدة بإطلاق السلاح النووي، وكانت هذه الهجمات هي الوحيدة التي تمت باستخدام الأسلحة النووية في تاريخ الحرب حتى الان ولقبت بالفتى الصغير حيث ان الطاقة التدميرية للقنابل النووية الموجودة فى العالم الان اكبر بكثير وبقوة تدميرية تكفى لنسف الارض كلها عدة مرات، قتلت القنبلتان ما يصل إلى ١٤٠،٠٠٠ شخص في هيروشيما، و٨٠،٠٠٠ في ناغازاكي بحلول نهاية عام ١٩٤٥، مات ما يقرب من نصف هذا الرقم في نفس اليوم الذي تمت فيه التفجيرات بقوة الانفجار منهم ١٥-٢٠ ٪ متأثرين بالجروح أو بسبب آثار الحروق والصدمات والحروق الإشعاعية التى يضاعفها الأمراض وسوء التغذية والتسمم الإشعاعي. وبعد ذلك توفي باقى العدد بسبب سرطان الدم والسرطانات الصلبة التى تأتي نتيجة التعرض للإشعاعات المنبثقة من القنابل، وكانت معظم الوفيات من المدنيين.

له أهل يبكونه، فهو نتاج شهوة تحصل والداه على لذتها، وتخلصا من مسؤليتها، وتركاه فى لفافة فى العراء، فى الطريق، وتلقته إحدى دور الرعاية التى تبيعنا الأطفال الزائدة عن طاقة التبرعات التى تصلها، بعد خصم المرتبات الباهظة».

لا حظ (اندرو) أننى مازلت أنظر له فى حقد، فربت على كتفى وقال:

- «مستر (سعيد)، القتل هو أول سنة سنها الإنسان على الأرض، ووقتها كان الأخوان قاتلاً ومقتولاً، يجب أن تتخلى عن مشاعرك إذا اضطررت إليه، لأن أحدًا ما لن يكون لديه مشاعر تجاهك إذا اضطرته الظروف».

قلت له فى غيظ كأنما لم أسمع كل ما قال:

- «لماذا قتلتم الطفل؟».

قال وهو ينظر إلى الأرض فى يأس:

- «لكى يقام عرش الشيطان، يجب أن يتعلم الناس ذبح كل شىء برئ، إن ذبح الأبرياء هو غذاء الشر، ومنبع الطاقات السوداء، ولأنه من الصعب أن تجد بالغًا بريئًا، فالأطفال تفى بالغرض أحيانا حتى سن معينة، وكلما كبر العمر مع الاحتفاظ بالبراءة زاد التأثير».

قلت له وأنا بعد لم تختف نظراتى الملتهبة:

- «اذهب يا (اندرو)، لا أريد طعاماً».

و دعنى منكسرًا وقال وهو منكس الرأس:

- «حسنًا أرجو أن تهدأ نفسك، و إذا احتجتنى ستجدنى بالجوار».

أغلق الباب خلفه فنهضت، وألقيت الروب عن جسدى وزحفت ببطء وأنا بالكاد تحملنى أقدامى إلى الحمام وفتحت الصنبور الرشاش ليتدفق منه الماء البارد على جسدى، وجلست متكومًا على الأرض أسفله، أرتجف من البرد والخوف والإحساس بالذنب.

❐❐❐

مرت ساعات أو دقائق، لم أدرك حتى سمعت طرقات على الباب، نهضت من تحت المياه وأنا أرتجف، وبعد أن جففت نفسى توجهت إلى دولاب الملابس وارتديت ملابس ثقيلة، كان الطرق مستمراً بانتظام متقطع وأدب وأنا أرد قائلاً ثوان من فضلك، فتحت الباب فوجدت شاباً لا أعرفه يمد يده بالمصافحة و يقول لى:

- «مستر (سعيد) أنا (انطونيوس)، زميلك فى المعمل، واليوم سيكون أول أيامك فى الانضمام لنا، وجئت كى أصحبك، أرجو ألا أكون أزعجتك».

كان شابًا لبقًا ومبتسمًا فتبسمت له رغم ألمى، ورغم بضع سعالات وجدتها تخرج من حلقى رغمًا عنى، أغلقت الباب وانضممت له. صحبنى بين الأروقة حتى وصلنا إلى باب كبير، فتحه فوجدت معملاً كبيرًا جدًا وشديد التطور بشكل لم أتخيله فى حياتى، وكان الحضور الذين أختلفت اجناسهم وأعمارهم، يرتدون المعاطف البيضاء، و يقف كل منهم فى مكان بين الطاولات التى تمتلئ بالمعدات المتطورة، وكان

البروفيسور الكئيب (باركلى) فى منتصف الحضور بين الطاولات، يرمقنى بنظرته الخبيثة، وأشار إليّ حيث مكان خالٍ على إحدى الطاولات وعليها المعطف الأبيض الخاص بى، نظر لى وكأنه ينتظرنى ليتحدث فارتديت المعطف بسرعة، ووقفت بترقب أستمع له وأنا أكتم السعال، حيث بدا لى أنه لو قاطعه أحد سيضربه بالرصاص و إذا به يقول:

- «لقد تم توزيعكم طبقًا للتخصصات على المشاريع، ومشروعنا الأساسى وهو فكرة من أحد الزملاء كنا نعمل عليها طويلًا، نعرف جميعًا أن الفيروسات الفتاكة هى محور إنتاجنا، وكما نعرف جميعًا أنه منذ عرفت فكرة التلقيح[1] ونحن نواجه الفشل دومًا - و إن كان زملاؤنا

(١) لقاح (بالإنجليزية: Vaccine) وهو مستحضر حيوي يحسن من مناعة الجسم تجاه أمراض معينة. يحتوي اللقاح غالبًا على الفيرس او البكتريا إما حية أو معطلة أو على أجزاء منقاة منها. بدأ التلقيح بما يدعى variolationالذي مارسه إدوارد جينر في الفترة ما بين ١٧٤٩-١٨٢٣ - علمًا أنه وُجد قبل ذلك في الهند وانتقل منها إلى تركيا فالبلدان العربية- حيث بدأ بملاحظة أن الأشخاص القائمين على حلب البقر المصاب بجدري البقر يُبدون بثورًا في أيديهم ويعانون ارتفاع حرارة معتدلا ثم يصبحون منيعين ضد الإصابة بالجدري small pox، ومن هنا بدأ بأخذ قيح بثور البقر المصاب و إحداث جروح طفيفة في الفرد السليم و إدخال القيح فيها، أيضًا كان له أثر كبير في التلقيح بفضل الصدفة التي جعلته ينسى مزرعة جرثومية من عصيات الكوليرا على طاولة مخبره طيلة فترة الصيف الحارّ مما جعلها تفقد قدرتها الإمراضية، ثم حقنها للدجاج كما اعتاد أن يفعل، إلا أنها هذه المرة لم تسبب المرض عند الدجاج، فظن أنها قُتلت خلال الصيف، فقام بحقن الدجاج نفسه بجراثيم الكوليرا المأخوذة من مزرعة طازجة إلا أنه فوجئ بعدم ظهور=

فى الأقسام الأخرى يستغلون الحاجة إلى اللقاح بشكل آخر اقتصاديًا- غير أنه ما يهمنا أن ننجح فى مهمتنا فى السيطرة على الأجسام، وبما أن التلقيح يطور من قدرة الجهاز المناعى على محاربة الفيروسات فقد تفتق ذهننا على استراتيجية نسميها قتل الحراس، حيث يجب أن نصنع فيروساً لا يهاجم أجهزة الجسم وخلاياه كالعادة، و إنما يهاجم جهاز المناعة نفسه، وعندما نقضى عليه يصبح جسم الإنسان مسرحًا مفتوحًا لأى فيروس مهما كان ضعيفًا، ولكى تكون الفكرة أكثر وضوحًا فأنا هنا لا أقصد جهاز المناعة الطبيعية، والذى يشمل الحواجز الجسدية والكيميائية التى تمنع أو تؤخر دخول الممرضات للجسم أو تكاثرها داخله كالجلد والأغشية المخاطية في الجهاز التنفسي والجهاز الهضمي والأعضاء التناسلية والعيون وحرارة الجسم ومستوى الحموضة في المعدة، ولا حتى أقصد العناصر البيوكيميائية الذائبة مثل الليزيزيوم أنزيم الذى يخترق طبقة الببتيدوجليكان في جدار خلية الميكروب حيث يتم استيعابها من خلايا سليمة تتواجد بقربها وتجعلها في وضع استعداد لمقاومة العدوى بالميكروب.

=أي إصابة على الدجاج أي أصبح الدجاج ممنّعًا، ومن هنا طوّر بالطريقة نفسها لقاحًا ضد داء الكَلَب والجمرة الخبيثة، بشكل عام، تعتمد عملية تطوير أو إنشاء نظام مناعي اصطناعي بجسم الإنسان لحمايته من الأمراض المعدية عن طريق إصابة الجهاز المناعي للإنسان بالمسبب المرض فى حالة ضعف ومن ثم يقوم جهاز المناعة المكتسبة بالقضاء عليه و إنشاء ذاكرة مناعية تمنع الإصابه بذات المسبب للمرض مرة اخرى وتسمى عملية التطعيم.

ولن يشمل عملنا الآن المنظومة المتممة كبروتينات بلازما الدم التى تحيد مختلف الممرضات وتساعد على القضاء عليها، ولا الخلايا البالعة، مثل البلعميات والخلايا المتعادلة التى تقوم ببلع وقتل وهضم مختلف الكائنات الدقيقة، لقد قررنا العمل على جهاز المناعة المكتسبة وتحديدًا الخلايا اللمفاوية وكرات الدم البيضاء التى تهاجم الفيروسات والميكروبات فتكون ضدها أجساداً مضادة فتهدر عملنا وعمل الطبيعة، ونود التنويه بأن أبحاثنا ليست وليدة اليوم، فلقد توصلنا لنتائج مرضية، وتم تجربتها فى بعض الدول الإفريقية وأتت بنتائج طيبة، ولكن هناك الرعاية منخفضة والتلوث يفتك من تلقاء نفسه، وربما يختلف الأمر فى الدول ذات الرعاية الطبية المتقدمة، ولا نريد أن تتمخض هذه الفكرة الجهنمية إلى محاولة أخرى فاشلة، لذلك نحن نعمل على تطوير الفيروس بشكل يستحيل محاربته، بحيث ما إن يتم اكتشافه حتى يكون قضى على جهاز المناعة المكتسبة بما لا يمكن استعادته مرة أخرى، وهنا لن نتكبد عناء يذكر حيث ستتكفل أصغر الميكروبات بالتعامل مع الشخص المصاب الذى سيحمل حكمًا مؤجلًا بالإعدام، بما يمنحنا سيطرة على ما تبقى من حياته إذا ما أراد بيعها، يجب أيضًا أن تكون وسيلة النقل لهذا الضيف العزيز مقترنة باللذة التى تخضع الإنسان وأقصد اللذة الجنسية وخاصة الشاذ منها فهناك نجد من يمنحنا روحه، حيث إن المرض لدى البعض يقربهم لربهم أحيانًا، ونحن لن نسدى هذه الخدمة، هناك قسم آخر سيعمل على فكرة شبيهة تسمى إسكار الحرس، وفيها سنعمل على أن نفقد جهاز

المناعة المكتسبة ذاكرته ليقوم بمهاجمة أجهزة الجسم السليمة كما لو كانت ميكروبات عدوة، وعندها سيهلك الجسم نفسه بنفسه».

كان البروفيسور الملعون يتحدث بهذه الكوارث، وأنا الدوار يراودنى، والسعال يتقافز من جنبات صدرى، وأحسست أن حرارتى ترتفع للغاية، ليس كل مرة، أعتقد أننى لو فقدت الوعى مرة اخرى سيلقون بى إلى المحيط، ثم تعالت أصوات سعالاتى بما وتر البروفيسور الغاضب فنظر لى شذرًا وقال:

- «مستر (سعيد) المكان معقم هل تعانى شيئاً ما؟»

هممت بالتحدث، فزاد السعال أكثر، فوضع (انطونيوس)، الذى كان بجوارى، يده على جبهتى، فوجدها ساخنة للغاية فقال

- «يبدو أنه يعانى البرد، يجب أن يراه الطبيب فحرارته مرتفعة جدًا».

قال البروفيسور بنفاد صبر:

- «يبدو أنه ليس مقدرًا لك أن تشاركنا بعد، اصحبه يا (انطونيوس) رجاءً إلى العيادة».

أصطحبنى الشاب إلى حجرتى يساندنى ودفأنى بالأغطية وذهب يحضر لى الطبيب.

حضر الطبيب وقام بقياس حرارتى، وقام بحقنى لخفض الحرارة، وأوصى لى بالراحة ليومين حيث أصبت بنزلة برد، يبدو أنها من الحمام البارد

الذى نسيت نفسى فيه، رغم أن السعال كان يرج أركان صدرى، غير أننى كنت أكثر راحة، حيث سأحصل على عطلة من هذا الجحيم، ولكن هل راحتى تعنى عدم اكتمال الأعمال الجهنمية؟ ترى هل ستؤخر ذبح طفل جديد فى القداس القادم؟ فى الواقع هى ستؤخر خطتى لنسف هذا الجحيم لا أكثر، ارتفع أنين الألم فى رأسى فاستسلمت للنوم رغمًا عنى.

□□□

تنبهت من مرقدى على لمسة حانية ترقد على جبهتى الدافئة من زهرة مثلجة، كانت (مارى) تجلس بجوارى على السرير، وأمامها ممرضة تحمل صينية طعام، هممت أن انهض تلقائيًا بأنتفاضة، فساندتنى ووضعت الوسادة خلف ظهرى، وقالت مازحة:

- «لا تخف، لم نفض عذريتك بعد، لا أتخيل وجود رجل بهذا الخجل، مازلت أشك فى قدرتك بالمناسبة حتى تثبت لى العكس».

كانت مداعباتها ثقيلة عليّ، غير أنى لم أكن أتضايق من جرأتها، حيث إن ابتسامتها تجعلنى متقبلًا لأى شىء، وسعدت كثيرًا أنها تطمئن على، طلبت (مارى) من الممرضة الذهاب وأخبرتها أنها ستقوم بإطعامى، وكانت قد وضعت باقة من الورد على الكومود بجوار سريرى، وكذلك صينية الطعام، ثم أمسكت الملعقة لتقوم بإطعامى،

امتثلت لها وأنا لا أرغب بعينى عنها وعن وجهها الملائكى، ترى هل هذه الروح المرحة والوجه الحسن انعكاسًا لما فى داخلها؟ أم أنها الصورة

التقليدية لفتاة الشيطان التى تكون حسناء خلف قناع لشيطانة قبيحة؟ لكن حتى حسناء الشيطان تكون لعوبًا وليست بهذا المرح والرقة، ولكن لا تنس أنها حاولت أن توقعك فى الفاحشة أيضًا، ولكن لم يكن لائقًا بها، كانت تبدو كفتاه مراهقة جامحة وليست عاهرة.

انتزعتنى من شرودى قائلة:

- «مالك تحدق فى هكذا، بالمناسبة أنا لا أقوم برعاية كل المرضى على السفينة، ولكن شعرت أنك وحيد وتحتاج صديقاً، مثلما تحتاج رعاية طبية، فأعتبرت أننا أصدقاء، باعتبار أنك أهديتنى زهرة من قبل، هل لديك مشكلة مع ذلك؟».

تبسمت وقلت بلهجة لم أعهد نفسى قادرًا على التكلم بها:

- «أبداً، إنه أجمل ما يمكن أن يكون قد حدث لى فى هذا المكان، وربما على مدار حياتى».

ضيقت عيناها من ما ظنته مجاملة مبالغاً فيها، وقالت وهى ما تزال تطعمنى فى فمى:

- «مدار حياتك، هل هذه مبالغة أم مغازلة؟».

- «إنها حقيقة، فرغم أنكِ تصفيننى دائمًا بالبراءة، فأنا أرى فى داخلك -بجوار العنفوان والجنون- طفلة بريئة، أنا لا أخطئ الأنقياء مهما بدا منهم عكس ذلك».

ابتسمت وداعبت خصلات شعرها بإصبعها فى إشارة إلى عدم الاستيعاب وقالت:

- «ظننت أننى قمت بكل الخطايا وأصبحت بلا أمل، كلماتك ستفتح لى بابًا لا أحتمل فتحه، مستر (سعيد) يبدو أن الحرارة الزائدة ستبدأ بالتحول معك إلى هذيان، سأتركك الآن، وسأعود إليك عند العشاء، هل تريد شيئًا أوفره لك عند حضورى؟».

تذكرت خطتى، فقلت لها وهى توشك على الخروج:

- «أحتاج بعضا من البخور طارد الجن، رجاء أنا لا أتخيل أن أكون نائمًا وشئ ما لا أراه يحدق فى، هى فكرة تفسد على نومى».

ابتسمت برقة وهزت رأسها وقالت:

- «كما تريد، ولكن هذا أمر يثير الشبهات، لأنهم غالبأ يبلغون عند منعهم، على أى حال يمكن استعماله عند النوم لا ضرر».

انصرفت وأنا فى حالة انتشاء وقررت أن أنام حتى تعاود فى العشاء، فما بين الوقتين لا شىء يستحق اليقظة.

❐❐❐

مرت الساعات وحضرت الممرضة فى موعد العشاء، ولكن وحدها، ولم تواتنى الجرأة على السؤال عن (مارى) ولكنى شعرت بنكد غريب، ترى لماذا لم تأت؟ هل كان حضورها ردًا للمجاملة لا أكثر؟ بالطبع ومن

تظن نفسك لتغرم بك فتاة مثل هذه، وهل كنت تريدها أن تغرم بك؟ ثم راودتنى الهواجس ترى هل من المفترض أن أغرق السفينة وبها (مارى)؟ وكيف سأقوم بإنقاذها؟ بل ماهى خطتى لإنقاذ نفسى وأنا فى عرض هذا المحيط؟ لقد عزمت أن اصنع قنبلة وأفجرها بجوار مخزون الوقود فى المخزن، بما يصنع دمارًا فى جسم السفينة والمحرك فتغرق السفينة، هى خطة معقولة ولكن لم أفكر فى مصيرى بعدها، هل من المفترض أن تكون مهمة انتحارية؟ ولو وجدت مسلكًا ماذا عن (مارى)؟ وماذا عن الأطفال المحتجزين فى السفينة للقداسات السوداء؟ مؤكد لديهم عدد منهم، أفقت من شرودى عندما فرغت الممرضة من إطعامى وانصرفت، وما أفاقنى سوى صوت إغلاق الباب الذى ربما سبقه بعض الكلام من الممرضة لم اسمعه، ولم أجب عليه، لماذا يا (مارى) أتيتِ إلى هذا الجحيم؟

أفقت من شرودى مرة أخرى على طرقات الباب فانتبهت منتشيًا واعتدلت فى رقدتى، لا بأس لم تتأخر عنى، أذنت بالدخول وخاب أملى لأنه كان (أندرو)، ابتسمت فى خيبه ربما بدت على وجهى فقال لى:

- «ألف سلامة مستر (سعيد)، سمعت أنك مريض فجئت أزورك، ولكن يبدو أنك ما تزال غاضباً منى، بالمناسبة أنا لست المسئول عن القداسات، ولو كان بيدى لما أشركتك بها».

قلت وقد تغير مزاجى بالفعل عندما تذكرت:

- «لا عليك (اندرو)، أنا لست غاضبًا منك بشكل شخصى، أنا رجل

علم، ولا أفهم فى مسائل الطقوس وخلافه، وأتأذى كثيرًا من الأمور الدموية».

قال بلهجة استغراب:

- «غريب !! ولكن أليس عملك على الفيروسات الفتاكة سينطوى على تعذيب و إزهاق ملايين الأرواح؟»

فاجأنى بسؤاله، واحمر وجهى، ولم أجد فى نفسى جوابًا فعاود يقول:

- «لقد سألتنى مستر (سعيد) عن سبب مجيئى إلى السفينة (ملكوت)، ترى هل من الممكن أن اسمح لنفسى سؤالك بالمثل؟».

أظن أن لحظتها أصبح لونى أحمر قاتماً بشكل كامل وبدأت أتحشرج وأسعل فعاجلنى قائلًا:

- «أنا آسف، لا أريد أن أثقل عليك فى مرضك وأذكرك بأشياء ربما تكون ثقيلة الوطء عليك، أردت فقط أن أذكرك أنه ربما يكون القاتل والمقتول كلاهما ضحايا النظام الكونى الذى وجدنا فيه، ونحن نسعى للسيطرة على هذا النظام، ولكى تسيطر على نظام ما يجب أن تضعفه، لا تجهز عليه فينتهى كل شىء، ولا تتركه سليمًا فتهلك بواسطته، وتكون أحد أدواته، أنا آسف مرة أخرى سأطمئن عليك صباحًا، دمت بخير».

انصرف وأغلق الباب خلفه وتركنى فى شرود على شرودى، حتى جنود الشيطان لا يعدمون المنطق القوى، لم أعهدنى لا أقوى على الجدال كما

أنا أمام (اندرو)، هو فتى حديث السن ولكنه يحمل عقلية لا يستهان بها.

❐❐❐

رأيت فيما يرى النائم وكأنى فى سوق كبير على شاطئ بحر وكله رجال يبيعون السمك، وحولهم طاولات كثيرة بها أنواع مختلفة من الكائنات البحرية، وأنا أسير بين الطاولات بصحبة كلب كث الفراء، لم يكن الباعة يتضايقون منه رغم أنه يمد أنفه إلى طاولات السمك، ويلعقها أحيانًا، وكنت أشد سلسلته لأمنعه، ثم فجأة بدأ شعر الكلب ينتفش بشكل ضاعف حجمه، وبدأ يكشر عن أنيابه كأنما أصابه السعار، تركت سلسلته وابتعدت عنه بظهرى، وكان بالفعل يستعد للهجوم علىّ، وأنا أرجع بظهرى ناحية البحر، حتى أتت موجة عالية من خلفى وابتلعتنى إلى داخل المياه، بدا كل شىء حولى فيروزى اللون وأنا أصارع المياه، وبعضا من الطحالب، وأعواد الأعشاب الغارقة التى تحاول أن تقيدنى حتى تنبهت إلى فك عملاق شطر الماء، وأفرغه من حولى وابتلعنى، وجدت نفسى فى بطن حوت عملاق أخذ ينفث ويفرغ الماء من حولى، حتى أصبحت ملقياً على لسانه العملاق وحولى الحشائش والأعشاب، تكومت على نفسى حتى تدفقت نحوى بعض العصارات اللزجة، التى ما إن مست ملابسى حتى بدأت فى إذابتها وحرق جلدى، ثم أخذت أصرخ قائلًا دعاء النبى يونس:

- «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين».

كررتها ثلاث مرات ثم دفعنى الحوت من تجويف رأسه فاندفعت إلى السماء، ثم سقطت على أرض إحدى الجزر، ثم رفعت بصرى وأنا ملقى على الأرض، فكان فى السماء هلالًا رغم أن الدنيا بدت وكأنه فى النهار.

□□□

الجمعة ١٩ فبراير ١٩٦٠..

تنبهت من نومى وكانت الساعة تجاوزت الخامسة صباحًا بقليل، كان حلماً غريباً، ولكنى فرحت بالنجاة فى آخره، واستبشرت خيرًا، ربما يكون آذان الفجر يؤذن الآن، تذكرت أنى لم أقم بأية صلاة منذ وقت، ترى لو قمت للصلاة هل سيبلغ جواسيس الجن عنى، ربما يتقبل الله صلاتى فى نفسى، فأظننى ممن لم يستطع، بدأت أصلى الفجر فى نفسى، وأدعو الله أن ينجينى و ينجى الناس من هذا الجحيم، وجلست بضع ساعات أراقب النهار يشقشق على المحيط من نافذة الحجرة الدائرية، وأفكر فى الحلم، ترى من هو الكلب الذى دفعنى إلى الغرق؟ ترى هل هو تحذير من (مارى)؟ هل هى مسلطة من الشيطان عليّ؟ ولكن ما الذى يهم الشيطان بى هكذا؟ أنا مجرد باحث متواضع بين الكثيرين، أو ربما هى أضغاث أحلام من كثرة تخوفاتى، أيًا ما كان فالله يبشرنى بالنجاة فى النهاية.

سمعت طرقات الباب فأذنت بالدخول، كانت الممرضة تحضر لى طعام الإفطار فجلست نصف جلسة على السرير، ثم لمحت (مارى) تأتى من

خلفها، انشرح صدرى لرؤيتها، ثم شعرت بالانقباض للربط بينها وبين الكلب الذى جاء فى منامى، ترى متى يا (مارى) تكشرين عن أنيابك وينتفش فراؤك؟

صرفت الممرضة، وجلست بجوارى تطعمنى، كنت أستطيع أن أطعم نفسى، ولكنى شعرت بذبذبات حانية، وألفة وكأنها تسرى فى دمى، حينما تناولنى الملعقة نحو فمى، أخذت أحدق النظر فى ملامحها أفتش عن إشارة إلى الشيطان فلم أجد، ثم فزعتنى فجأة بشكل مقصود قائلة:

- «هل ستظل تحدق بي كثيرًا، هذا أمر يربكنى، أم أنك متضايق لأنى لم أزرك أمس كما وعدت؟ سامحنى رجاء فلقد كنت مشغولة بإعداد الإمدادات، لأن موعد طلبها كان يجب أن يكون منتهيًا صباح اليوم، وسفينة الإمدادات لا تأتى إلا كل نصف شهر».

تنبهت إلى خاطر مهم فتساءلت قائلًا:

- «هل هى سفينة تأتى لكم باحتياجات (ملكوت)؟».

أومأت بعيونها ورقبتها، فقلت متابعًا:

- «هل ممكن إضافة بعض احتياجات خاصة بى؟ أقصد بمشروعى البحثى».

- «بالطبع، أنا طبعًا لم أحصل منك على قائمة طلبات، لأنك لم تنخرط فى العمل بعد، ولكن يمكن أن تملى على قائمتك الآن، مازال الوقت متاحًا».

أخذت أستجمع فى رأسى المعلومات عن تصنيع الديناميت[1]، بالطبع لن أستطيع طلب مادة النتروجليسرين مكونه الأساسى، ولكن يمكن أن أصنعها معمليًا، فتحت الكومود وأحضرت ورقة وقلماً شرعت أكتب مقسمًا طلباتى، ومخالطًا معها أشياء أخرى كى لا أثير الارتياب.

متطلبات معملية:

حامض النيتريك، حامض الكبريتيك، كربونات الصوديوم، كربونات الكالسيوم.

مستحضرات للعناية الشخصية:

زيت زيتون، جلسرين، نشا، زهور دوار الشمس.

مددت لها يدى بالورقة فتناولتها تطالعها ومطت شفتيها وقالت:

- «ربما تكون الأحماض والكربونات متوفرة فى المعمل أو المخزن، لو وجدتها سأرسلها إلى المعمل صباحًا، وبقية الأشياء سيتم استكمالها مع وصول الشحنة إذا لم تكن متوفرة أيضًا».

---

(١) الديناميت هو نوع من المتفجرات قائم على سائل النتروجليسرين، يصنف الديناميت أنه متفجر قاصم، مما يعني أن طاقة أو قوة التفجير تأتي من التصعيق (انتشار الصدمة) بدلا من التأجّج (انتشار الحرارة)، أخترع الديناميت الكيميائي والمهندس السويدي ألفريد نوبل في مدينة جيزتاخت بألمانيا، وحصل على براءة اختراعه في عام ١٨٦٧. وقد كان نوبل قد صاغ اسم اختراعه من الكلمة الإغريقية القديمة δύναμις ديناميس، وهي تعني «القوة»، وقد كفر عن ذنبه لما شاهده من تدمير بسبب اكتشافه، فقام بتأسيس جائزة نوبل العالمية فى مجالات خدمة السلام، وصادق على جائزته السنوية فى وصيته عام ١٨٩٥

قلت قبل أن أنسى بلهفة:

- «وبالطبع نسيتينى بخصوص البخور طارد الجن».

ابتسمت برقة وقالت وهى تميل نحو أذنى وتهمس:

- «موجود لا تقلق، لا أخفى عليك أنا أيضًا أقشعر فى وجودهم، خاصة الجنى (مرخيم) خادم غرفتك، فهو قبيح للغاية».

رجفت لقولها، وتلفت فى شكل لا إرادى، فضحكت بصوت عالٍ، وقالت:

- «أنت بسيط للغاية، ويمكن لأى شخص أن يعبث معك، لا أعرف ماذا أتى بك إلى هنا؟».

قلت وقد أثارت شهيتى لهاذا الاتجاه:

- «هل أخبرك ولا تقولى لأحد؟».

أومأت برأسها ومالت نحوى، مما عبأ أنفى من عطرها الفاتن، فقلت هامسًا فى أذنها وأنا أحدق خلف ظهرها فى نظرة رعب مصطنعة:

- «ولكن (مرخيم) خلفك سيبلغ ما أقول».

ابتسمت لمزحتى وضيقت عينيها، مما صنع ثمرتى تفاح على وجنتيها، وقالت:

- «نلت منى أخيرًا، حسنًا لأنك ربحتنى مرة فسأعطيك البخور».

انصرفت مودعة وقالت وهى توجه كلامها فى اتجاه آخر:

- «(مرخيم)، برجاء لا تعبث معه، حتى لا يصاب بنوبة قلبية، نحن نحتاجه معنا».

ثم التفتت إلى وقالت ملوحة بسبابتها فى تحذير:

- «وأنت لا تنطق بالأسماء، لأنها تستدعيهم وتمنحهم القوة».

ابتسمت لمزحتها، وانصرفت بعد أن أغلقت الباب، وبقيت أنا على شرودى أنتظر الغداء، ترى هل ستزورنى فى موعد الغداء؟

□□□

سئمت من الرقدة فقمت إلى الدولاب، وتخيرت معطفًا ثقيلًا بياقة من الفراء الكثيف، وخرجت إلى سطح السفينة، وأخذت أختلس النظر إلى أماكن قوارب الإنقاذ، التى كانت تنتشر حول السفينة، وأخذت أفكر وأتخيل كيف يمكن القفز والهرب من خلالها؟ وإلى أين سأبحر؟ ربما أنتظر فى المحيط لعلى أجد سفينة هائمة، أو ربما أضيع فى المحيط، ماذا لو تصنعت أننى لست الفاعل، وأهرب معهم كما سيهربون؟ ولكن كيف سأجعل كل هؤلاء الأشرار، بما صنعوه، يهربون وينتجون جحيمًا آخر؟ لا سبيل غير أن يكون لى شريك، ونتخلص من الجميع، إلى ماذا يلمح عقلى؟ بالطبع تريد (مارى)، لا لا ربما أقصد (اندرو) أيضًا، ولكنه مقتنع بالمكان وبما يفعل، ترى هل لو أسررت إلى (مارى) بما أنتوى ستفضحنى؟ ربما تكون جاسوسة الشيطان بالفعل وتتحقق الرؤية وتلقى بى إلى البحر ولكنى نجوت فى الرؤية، ترى هل حقًا رؤيتى لهلال فى وضح النهار تعنى نجاتى؟

أفقت من شرودى على (أندرو) يربت على كتفى ويقول:

- «هل استشرت الطبيب قبل الخروج من غرفتك؟».

ابتسمت قائلًا:

- «أهلًا (أندرو)، لقد سئمت، فقلت أتنشق الهواء الطبيعى أفضل، غدًا سأبدأ أول أيام العمل بالفعل».

- «أتمنى لك التوفيق والراحة النفسية».

انصرف مودعًا، وأخذت أجول ببصرى فى وجوه من كانوا على سطح السفينة، تبدو وجوهاً عادية وليست وجوه شياطين، كيف وصل هؤلاء إلى هنا وكيف يخدمون الشيطان بهذا الرضى وبهذه القدرات العقلية، ترى هل هم مخدوعون وضحايا أم يستحقون الموت؟

جلست على أريكة قبالة المحيط وأخذت أتأمل الأفق فى شرود خفف من اكتئابى، ثم باغتتنى لمسة حارة انتفضت على إثرها واقفًا وكان أمامى مباشرة المدعو (يغوث).

أخذت أحدق فى ملامحه برعب، بعدما عرفت أنه ليس من البشر، وكان يحمل فى جنبه كتاباً قديماً، وكأنه من الجلد، هو غالبًا نفس الكتاب الذى كان فى القداس الأسود، قال وهو يمرر يديه حول كتفى بما جعلنى أنتفض رغمًا عنى، وشعرت أنه يتحسس أمرًا ما بى بلمسته وقال:

- «علمت أنك كنت مريضاً، أرجو أن تكون تعافيت لتلحق بركبنا».

خرج صوته كأنه يتحدث فى كهف، ويهمس بتعويذة، وليست مقولة، فقلت مرتعشًا:

- «غدًا سيكون أول يوم عمل بالنسبة لى».

همس مرة أخرى وقال:

- «لم يبق من الوقت الكثير، قبل ثلاثة أرباع فبراير يجب أن يتزامن احتفالنا بالإنجاز مع القداس الأعظم، يجب أن تندمج وتألف الأمر سريعًا، ففى القداس الأسود القادم سيكون لك دور مهم، ومن يدرى، ربما يكون هو القداس الأعظم».

انصرف يرسف فى عباءته وأنا يرتجف قلبى نبضًا، أى دور مهم، هل ستتلطخ يدى بالدماء هذه المرة؟ يجب أن أعمل بكل سرعة لنسف هذا الجحيم، قبل أن يحين هذا الوقت بأى ثمن، ثلاثة أرباع فبراير بعد غد.

❐❐❐

السبت ٢٠ فبراير ١٩٦٠..

فى المعمل صباحًا كنت قد تسلمت منصتى، التى كانت مزودة بكل الأجهزة المعقدة، وكافة مقومات المعمل الصغير، ووجدت الطرد الذى به طلبات المعمل على المنضدة، ولكن بالطبع الجلسرين تم إرساله إلى غرفتى مع النشا وزهور دوار الشمس، ظللت طيلة الوقت أتصنع الانهماك فى عمل وهمى وأنا أحاول إخفاء الكميات التى أحتاجها من حمض النتريك والكبريتيك مع قطارة صغيرة، وكان البروفسير (باركلى) يلقى نظرة مرتابة على عملى من آن لآخر وينصرف صامتًا، حتى دوى رنين جرس

يعلن نهاية يوم العمل، وإيذاناً بموعد الغداء، خلعت المعطف الأبيض وتحسست ما أخفيته فى معطفى، وعدت إلى غرفتى، وبالفعل وجدت بقية الاحتياجات، ولكن لم يكن البخور موجودا، ربما يكون هناك جنى معى بالفعل، والأمور لا تحتمل الفشل، تصرفت بخفة كما لو كان أحد معى بالفعل، وحرصت أن أعلق معطفى وبه المواد وكأنى لا أحمل شيئاً، وكانت زهور دوار الشمس فى مزهرية على المنضدة، وكنت أحتاج ورقها للكشف عن الأحماض فى تجربتى، ولكنى تصنعت أنى أشمها -وهى بدون رائحة- وكأنى أحبها كنوع من الزهور، وتناولت قنينة الجلسرين، ووضعت بعضا منها على يدى كأنى أستعملها كمضاد للتقشف، ثم وضعتها فى الكومود، وخرجت من الغرفة متوجهًا إلى غرفة الطعام، وأنا أبحث بعيونى عن (مارى)، راجيًا أن تصدقنى هذه المرة فى أمر البخور، لمحتها متأخرة كالعادة، انتظرت حتى فرغت وفرغت من الطعام، وتبعتها إلى الخارج، سلمت عليها وسألتها عن البخور، فابتسمت وقالت:

- «لم أنس ولكن لا يمكن أن أرسله لك مع خدمة الغرف، حسنًا انتظرنى بغرفتك، سأوفر لك البعض منه»

أنصرفت وأنا أقلب فى ذهنى فكرة مصارحتها وجعلها شريكة، وفكرة أنها قد تكون جاسوسة الشيطان فيضيع كل شىء، أخذت أسترجع ملامح الكلب فى رؤياى، لا يمكن أن تكون (مارى)، لا يمكن أن يخذلنى قلبى إلى هذا الحد، وقررت فى معطيات تتجاوز عقلى، أن أستمع إلى صوت قلبى.

فى غرفتى حضرت، وأعطتنى البخور المطلوب، فتناولته وأشعلته على الفور، وقلت لها:

- «(مـارى)، أود أن أصارحك بشىء، وأخذ مشورتك، لأننى أعتبرك الصديق الوحيد هنا».

تصنعت الأهمية، وأشارت بسبابتها إلى أعلى أنفها كأنها تدفع عوينات إلى أعلى، وقالت:

- «كلى آذان صاغية يا صديقى».

ابتلعت ريقى وقلت متسائلًا:

- «هل أنتِ راضية عن حياتك على متن هذه السفينة؟ أعنى ألم تراودك الرغبة فى العودة إلى حياة طبيعية على الأرض؟».

اختفت ملامحها المرحة، بأخرى أكثر جدية وقالت:

- «لماذا تعصف بسكونى دائمًا بتساؤلاتك؟ لم أشأ أن أطرح على نفسى هذا السؤال من قبل، ومن يريد حياة غير هادئة؟ أحيانًا يأخذنى الحنين إلى بلادى، ولكن ماذا حصدت من حياتى هناك سوى الألم والمعاناة، أنا هنا على الأقل فى حلف الشيطان نفسه فمن عساه يؤذينى؟ أنا لا أريد سوى الأمان والأمان غير موجود على هذه الأرض، أحياناً نصفق للشر ليس رضى به، ولكن خوفًا من أذاه».

قلت بتحفظ:

- «ألم تفكرى فى الحياة بعد الموت؟ أليس لكِ موقف دينى؟ أعنى ألا يلمح

وجود الشيطان بدليل على وجود الله؟ ألم تفكرى أن عداءه للبشر والذى تلمسينه جيدًا، يعنى أنه لن يكون له بينهم عزيز؟».

أخذت تدور بعيونها فى ريبة وشرود فتابعت قائلًا:

- «(مارى) أنا أرغب فى الهرب من هنا، وأود أن أصحبك معى، أعلم أن العالم ليس مكاناً آمنًا، وأعلم أن الشيطان سيكون فى إثرنا، ولكنى أعدك، لو قبلت عرضى، أن أضعك بعيونى، فأكون فداء لك ما كانت روحى ترفرف فى صدرى، وطالما بقيتِ برغبتك فى جوارى، كشريكة وزوجة».

ابتلعت ريقى، وكأن الكلمات خرجت دون وعى، أو تحضير، وكانت تحدق بى وكأنى أصبت بالجنون، وقالت

- «حسبك، ما كل هذا، أنا لا أحتمل هذا العصف، هل تعنى فعلًا ما تقول، هل ترغب فى الزواج بى، زواج أنا سمعت الكلمة الصحيحة أليس كذلك؟».

قلت بوجل وبصوت خفيض:

- «إذا كنت أروق لكِ».

جذبتنى من كتفى فجأة وقبلتنى بعنف ثم تركتنى وقالت:

- «آسفة، جرفتنى مشاعرى».

شعرت بتنميل فى شفتى، وخدر لطيف فى كافة أنحاء جسدى، وأخذت أتحسس شفتى، فقد كانت قبلتى الأولى-ولو أننى تمنيت أن تكون فى زواجى- قبل أن أهز لها رأسى بما معناه لابأس، وقلت:

- «(مارى)، يجب أن نهرب من هنا فى أسرع وقت».

انكمشت فرحتها فجأة وقالت:

- «نهرب، أين تظننا لنهرب؟ نحن هنا فى منتصف العالم فى محيط مع شياطين الإنس والجن، أنت لم تر الوجه الحقيقى بعد».

قلت بتوجس:

- «أظن أن لدى خطة، إذا وافقتنى التفكير».

- «بم تفكر؟».

أمسكت كلتا يديها بقوة، ونظرت فى عينيها مرة أخيرة، أفتش عن أى إشارة منع لما جرفت نفسى فيه، فلم أجد وكأنى مسحور بها، واندفعت قائلًا:

- «أستطيع صناعة قنبلة لتفجيرها فى المخزن، بجوار مخزون الوقود وغرفة المحركات، وعندما تبدأ السفينة بالغرق، نهرب فى قوارب النجاة حتى تجدنا سفينة ما».

مطت شفتيها فى أسى وقالت:

- «التفجير بهذا الشكل سيجعل الجميع سواء فى فرصة الهرب، وعندما يكتشفون فعلتك، ستكون الأقل حظًا فى النجاة، إذا بدأت السفينة فى الغرق سترسل إشارة استغاثة، إما وفقنا لسفينة قريبة فنجونا جميعًا، وساعتها فلا جدوى من الهرب، وإما فاتنا الوقت وغرقنا جميعًا، فيما

عدا الشيطان وأمثاله من الجن، وما دام الشيطان نجى ودميتك لديه والكتاب لديه، فكأن شيء ما لم يحدث، سيعود هذا المكان أفضل مما كان، وستكون نهايتنا»

قلت لها متعجبًا:

- «أى دمية وأى كتاب؟ أظنه الكتاب الذى يحمله (يغوث) أينما ذهب».

وضعت يدها على فمى عندما ذكرت الاسم وقالت:

- «يعرفون عندما تذكر اسماءهم، الكتاب هو كتاب (ماروت) وبه كل شيء عن السحر الأسود، و إذا نجح القداس الأعظم، فى عام الكلف الشمسى، على يد (يغوث)، فساعتها سيستباح عالم البشر تمامًا أمام عالم الجن بقيادته، بعكس الوضع الذى كان أيام النبى سليمان، لأن الكتاب المضاد مجهول المكان، فالعالم مازال فى خطر طالما هذا الكتاب موجود، أما الدمية فهى دمية فودو[1] تصنع لكل وارد على السفينة، ومن خلالها يمكن أن يتم تعذيبك حتى الموت أينما كنت».

أمسكت رأسى وقلت:

- «أنا لا أفهم شيء، كتاب وكتاب مضاد ودمية، فسرى أكثر».

(١) الفودو هو مذهب ديني متأصل في غرب أفريقيا ويمارس في أجزاء من منطقة الكاريبي خاصة في هايتي وأجزاء من جنوب الولايات المتحدة، ووفقا لمعتقد سائد فإن أتباع الفودو يمكن ان يغرسوا دبابيس في دمى تمثل اعداءهم على امل ان تصيبهم اللعنة.

أطرقت فى الفراغ وقالت:

- «عندما كان عالم الجن مستباحًا من النبى سليمان، يسخرهم كما يشاء، كان لديه تحت العرش كتابان لملكين، كتاب هاروت للسحر الأبيض، وكتاب ماروت للسحر الأسود، هى كتب كتبت على جلود لم نعرفها لا تبلى بالحرق أو الماء، قيل إنها كتب نزلت من السماء عبر الملكين للتفرقة بين السحر الشر والخير، وقيل إنها أسفار سليمان، وقيل إن حكاية الملكين من اختراع زوج من الشياطين، صنعوا الكتب ليضلوا الناس بزعم أنهم من الملائكة التى تمردت على الله، لتبين للناس بابًا من القدرات منعها الله عنهم، وأن من يريد أن يحصل على هذه القدرات يتعين أن يكفر مثلهم، تشبه حكاية (إبليس) الأولى عندما أخرج (آدم) من الجنة بحسب التوراة، ومع مضي الزمن ضاعت أصول الحكاية، ولكن كان معروفا مكان الكتب، التى كان (سليمان) يحميها تحت عرشه، ولكن بعد اكتشاف وفاة النبى، أخذ بعض أتباعه من البشر كتاب السحر الأبيض وهربوا، ليكون حماية لهم، وأخذ أتباع الجن الكتاب الأسود لينتقموا من البشر الذين أستعبدوهم كثيرًا، واكتشف كل منهم شىء فى كتابه منعه عن إيذاء الآخر، غير أن أصحاب الكتاب الأبيض تنازعوا الإرث فيما بينهم، وأدى نزاعهم إلى اقتتال، وضاع الكتاب منهم لفعلتهم، أما الجن فتعلموا وعلموا بعض البشر قوانين الإيذاء والسحر المطبقة إلى يومنا هذا، بزعم أنها من أثر الملكين، وأسفار النبى (سليمان)، وتوحد الجن وتعاهدوا خلف أمير منهم يورث أميرا، على أن يكون الكتاب فى عهدته، حتى وصل الكتاب إلى صاحبه

الآن، وكان لحامل الكتاب قوانين أهمها ألا ينتزع غصبًا، وإلا ضاع كما ضاع كتاب البشر، وهم يسعون بولاية الشيطان الكبير، ومن خلال بعض الطقوس فى الكتاب، وأهمها القداس الأعظم أن يكونوا خلفًا لسليمان فيما كان له من ملك وخوارق، ولم ينجح القداس الأعظم حتى الآن، حيث يتطلب سيلًا من الدماء وتضحية بدم برئ بقدر معين من الدم المراق، لذا يبحثون دومًا فى دماء الأطفال، وبخلاف ذلك وعلى مدار العصور كانوا يستخدمون بعض تعاليم الكتاب، التى لا تظهر سوى لحامله، فيما يعرف بالسحر الأسود، وأهم منتجاته دمية الفودو ويوضع بها شىء من جسدك على مجسم دمية من القماش مع بعض التعاويذ، وحينها يمكن أن يصيبك أى أذى يلحقوه بالدمية، مهما كان مكانك».

تحسست جسدى بتلقائية وقشعريرة فتابعت قائلة:

- «فى الغالب يأخذون بضع شعيرات منك، ويوضع كشعر للدمية وكلما كثر الشعر كثر التأثير، ويمكن التأثير من قصاصات ملابس تحمل عرقاً، أو منديل قماش، أظن انهم فعلوا ذلك بك فى إحدى إغمائاتك».

سودت (مارى) الدنيا فى عيونى، بعد أن حسبتها قد انفرجت، فقلت فى يأس:

- «وماذا يمكن أن نفعل؟».

- «أمهلنى أتدبر أمرى، يجب أن نتصرف قبل القداس القادم، ربما من اليوم للغد أُلهمنا بشىء».

قلت وقد اعترانى اليأس:

- «على أية حال ستكون القنبلة جاهزة غدًا، وسأخفيها فى المزهرية التى بجوار الباب، يمكن فقط أن تضعيها فى مكان عالٍ، على أن تكون فى وضع يمكن إسقاطها بحبل، أو بطريقة آلية فوق مخزون الوقود، فى الوقت المناسب، وأحذرى من هزها عندما تحمليها».

هزت رأسها وهى ما تزال فى حيرتها، فناولتها نسخة من مفتاح الغرفة، فأخذتها وانصرفت شاردة ويتملكها الوجوم، ولكننى كنت رغم ظهور صعوبات وتحديات جديدة سعيدًا بمصارحتها، سعيدًا بمشاركتها، سعيدًا بقبلتها

❐❐❐

سهرت طوال الليل على رائحة البخورأحضر فى النيتروجلسرين، وصنعت بالنشا عجينة الانفجار المطلوبة بوزن يجاوز كيلوين، ثم دفنتها بتربة إحدى الأوانى الفخارية المزروعة بجوار باب الغرفة، وهى قابلة للانفجار إذا تم دفعها من ارتفاع متوسط.

ثم خلدت إلى النوم قرير العين -رغم أنى لم أرتب لما بعد الانفجار- إلا أننى كنت أشعر بارتياح وأمان، أنا لست وحدى الآن.

❐❐❐

الأحد ٢١ فبراير ١٩٦٠..

فى الصباح كنت فى المعمل أمارس عملى المعتاد فى التصنع، وكان البعض قد اقتربوا من تحقيق نتائج ناجحة فى تجاربهم، وكان البروفسير يشير إليّ، إما أن أحرز تقدمًا أو أنضم إلى إحدى مجموعات العمل، فأعمل فى اتجاههم، لأنى كنت قد أوهمته أننى فى طريقى لاكتشاف جيد، وطلبت العمل منفردًا، بعكس جميع من فى المعمل، انقضى يوم العمل بسلام، وجاءت حصة الغداء، وكنت أنتظر (مارى) بفارغ الصبر، لكنها لم تظهر كالمعتاد، تملكتنى الحيرة وأخذت أبحث عنها بجنون بين الوجوه فلم أجد لها أثرا، حتى انتهى موعد الغداء. وخرجت إلى سطح السفينة دون جدوى، لم أكن أعرف مكتبها أو حجرتها، ترى هل أبحث عنها فى المخزن؟ ربما أثير الشكوك، ترى هل لغيابها علاقة بما قلناه أمس؟ ولكن لو كان حدث لها مكروه فالأولى أن يحدث لى قبلها، عدت إلى غرفتى وجلست شاردًا، ربما تمر عليّ عما قريب، لعلها مشغولة فى خطب ما.

انتظرت إلى وقت العشاء وفى غرفة الطعام لم أقابلها أيضًا، وعندما عدت إلى غرفتى كان القلق يتملكنى، وكنت أشعر أن الأجواء بها شحنة من الخوف والترقب على الجميع، تذكرت الكلب المسعور فى منامى، ثم أشحت برأسى وأخذت أتامل النجوم التى كانت تكتسح السماء فى كثافة لم أشاهدها فى حياتى، ثم بدأ جسدى يقشعر، فتذكرت ما بقى

من البخور، لعل أحدهم قابعًا يراقبنى، وعندما هممت بالنهوض سمعت خطوات كثيرة تتوجه نحو بابى، ووجدت مفتاحاً يندس فى الباب ليفتحه، ولم يطرق الباب كالعادة، ولم يكن ذلك موعد خدمة الغرف فعدت إلى سريرى متصنعًا النوم، ربما هى (مارى) اخيرًا.

أغمضت عينى إلا قليلًا مما يسمح لى بالرؤية كى أفاجئها، فكان أمامى (يغوث) فى عباءته السوداء، وخلفه اثنان من الرجال أو الكائنات شديدة الطول التى ترتدى عباءات حمراء بغطاء رأس، فزعت من رقدتى رغمًا عنى، وأمسكنى الرجلان من اليمين واليسار كأنما يقبضان على، وقد صرت كالدجاجة بين أيديهما، ألجمنى الرعب وقد أدركت أنه فضح أمرى، ثم نفث أحدهما حفنة من الغبار فى وجهى، أفقدتنى الإدراك والإرادة، دون أن تفقدنى الوعى، بدا كل شىء حولى باهتًا وأنا أنتقل من مكان إلى مكان، ووجوه مفزعة تلوح أمام مخيلتى، ما كان يمنعنى من الصراخ إلا أنى لا أجد حنجرتى، ولا أملك أى سلطان على جسدى. ثم بدأت أتنبه أننى أرتدى وشاحاً بالياً من الكتان يشبه الكفن، ومقيداً فى الساقية ذات النجمة الخماسية، وأننى فى القاعة ذاتها التى يقام بها القداسات السوداء، وتوشح جميع من بالقاعة بالعباءات السوداء، فأدركت أننى سأكون الذبيح هذه المرة.

لماذا بعتنى يا (مارى)؟

كانت دموعى هى الشىء الوحيد الذى أستطعت أن أطلق له العنان،

فأخذت تنهمر منى، وتذكرت أننى نسيت ربى، وتعلقت بالأمل فيمن سواه، ثم أخذت أردد فى نفسى دعاء النبى يونس:

- «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين».

تقدم منى (يغوث) فقام بتدوير الساقية التى كنت مقيدًا فيها فتحولت النجمة التى تمثل إنسانًا، إلى نجمة مقلوبة تمثل رأس الكبش، رمز الشيطان، وأصبحت رأسى إلى أسفل، ويوجد أسفلها إناء من الحجر يسع لترات دمى الخمسة، وأخذ يتلو بعضًا من التعاويذ، وكان أمامه أحد الكهنة ذوى العباءات الحمراء، يركع على ركبته رافعًا الكتاب لأعلى كى يتلو منه، وتقدم آخر يحمل السكين الفضى اللامع كى يجز عنقى، وعلى حين كان الماثل أمامى بالمقلوب صور ذيول العباءات التى بدا بعضها وكأنه رداء بلا جسد، وبعضها تظهر منه الأقدام البشرية، والآخر أقدام بحوافر، تتراقص أضواء النيران وتعاويذ تقال بصوت شيطانى، واذا بالمشهد يبهت أمام عينى والسكين تقترب من عنقى الذى نفرت أوردته، استعدادًا للتدفق خارج جدرانها إلى الوعاء.

فى لحظة من الزمن رأيت حياتى كشريط أمامى، فرأيت أبى وأمى يبكيان حزنًا، ولا يعرفان إن كنت حيًا أو ميتًا، ولن يتسلما جثتى، ولن تكون لى مقبرة، فربما بعد تصفية دمى سيلقى بى إلى البحر، لتأخذ كل سمكة قطعة من لحمى، ويتحلل الباقى فى زبد المحيط، وربما لن يتذكرنى أحد سواهما، فليس لى زوجة ولا أبناء ولا إخوة ولا أصدقاء، لماذا يا (مارى)؟

لماذا يرضى إنسان أن يخدم شيطاناً؟ أى درجة من اليأس تلك التى تجعل الإنسان يخدم عدوه؟ لعل هذا ما جعل الله يصف من ييأس من روحه بالقوم الكافرين، أرانى الآن أستسلم للذبح فى يأس،

سأقاوم وسأثق بالله حتى يأذن بقبض روحى، أخذت أحاول تنبيه أطرافى للحركة فكان أمرًا شاقًا، فقد كان جسدى مخدرًا من الغبار الذى نفثوه فى وجهى، كما كان القيد محكمًا، حتى كان السكين اللامع البارد قد مس بشرة عنقى فنطقت للمرة الأخيرة وبصوت مسموع قائلًا:

- «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين».

ثم اهتز جسدى على الساقية بعنف إثر صوت انفجار ضخم.

أغلق الشخص الذى يحمل الكتاب كتابه فجأة، ونهض واقفًا، ويبدو أن حامل السكين قد اهتز فجأة، وسادت حالة من الهرج فى القاعة، ودوت صفارات عالية، كانت هى ما استطعت تميزه وسط حالة الهرج التى أصابتهم فجأة، ترى هل تجسد الشيطان فى حفلته أم أن غضب الله نزل على السفينة؟

فجأة وعلى حين انصرف الجميع مبتعدًا عنى وأنا أرى ذيولًا تجرى من حولى، قام حامل الكتاب بإعادة استدارة الساقية فعدت إلى وضعى الطبيعى، وأخذ يفك السيور الجلدية من يدى وقدمى، بلمسة أعادت إليّ شيئاً من الوعى، كانت لمسة (مارى)، على حين كنت حرًا من القيود، رأيت وجهها من طيات الوشاح الذى يغطى الرأس، كان ما يشبه الحلم

حين جرتنى بين الجموع حتى خرجنا وسط التدافع، ثم أخرجت لى من أحد الأركان وشاحًا مثلهم فأرتديته، وأخفى ملامحى وتاهت كتلتانا بين الجموع، وهى تمسك يدى، وصفارة الغرق تدوى بعنف، نزلت بى إلى أحد الأماكن وفتحت بابًا يوجد به الزورق الذى تم نقلى به إلى السفينة، قامت بفتح بوابة إلى المحيط وانزلق الزورق منها إلى المياه. ركبنا فيه وأدارت المحرك فانطلق الزورق إلى المحيط يعدو بعيدًا عن السفينة، التى كان فى جنبها كتلة من اللهب صنعت بها فجوة كبيرة، وبدأت فى الغرق. بدأت قوارب الإنقاذ تتدلى من جوانبها غير أن زورقنا كان الأسرع ابتعادًا عن السفينة لأنه كان بموتور، أزاحت أخيرًا الغطاء عن رأسها فكأن الشمس أشرقت فى الليل الحالك الذى بدأ هو الآخر يكتسى بالألوان من الصواريخ المضيئة التى بدأت السفينة فى إطلاقها إشارة للغرق.

ناولتنى (مارى) الكتاب وقالت:

- «أنا أعطيه لك الآن بإرادتى، كما حملته من (يغوث) فى القداس بإرادته، فهو لك الآن لا ينتزع منك إلا رضاء أو إرثًا، وطالما لا وريث لك بعد فأنت بأمان من شرهم، ولن يستطيعوا إيذائك».

تناولت الكتاب منها وأنا لا أفهم شيئاً، فى حين كانت تخرج من ملابسها دميتين من القماش، لهما شعر بشرى. أخذت تنزع الشعر عن رأسيهما ثم مزقتهما تمامًا وألقت بهما إلى الماء وقالت:

- «وهذه دميات الفودو خاصتنا قد تخلصنا منها، والآن سنتوجه إلى

جزيرة ماديرا[1] أقرب مكان إلى موقعنا الحالى، ومن هناك سنجد فرصتنا للسفر إلى أى مكان».

قلت بعدما بدأت أستجمع بعضًا من قواى:

- «(مارى) أنا لا أفهم من الذى فجر السفينة؟ وكيف انقذتينى؟ ومن سلمنى لهم إذًا؟».

قالت وهى تحدق فى عيونى:

- «أنت لم تكن على متن السفينة بالخطأ، الشخص الذى تعرفه باسم (سعيد جميل) والذى تظن أنك جئت مكانه بالخطأ، هو الذى أرسلك إلى هنا، لتكون الدم البرئ المراق فى القداس، والذى سيجعله قداساً أعظم، وهو موجود على متن السفينة، وكان الطقس الأول الذى تعرضت له إختبارًا لبراءتك، وعندما تخطيته تم التأكد من صلاحيتك للذبح، عندما وددت أن أعبث معك علموا بالأمر، وعادوايأمرونني بحزم ألا افعل ذلك دون أن أفهم السبب، حتى أصررت أن أتأكد من السبب أمس، فعرفت من كاهن كبير ذلك، لقد استغللت وجود الجميع للطعام فقمت بأخذ قنبلتك ووضعتها بجوار مخزون الوقود، بجوار ساعة كبيرة بعقرب واحد، بحيث إذا وصلت تمام منتصف الليل تسقط دعامة تسند القنبلة من ارتفاع كبير على براميل الوقود، فتفجرها فى موعد القداس، وقمت

(١) مجموعة من الجزر في المحيط الأطلسي شمال غربي إفريقيا، تتبع البرتغال، وعاصمة الجزر فونشال وبها أقلية مسلمة.

بدس مخدر للكاهن حامل الكتاب وأخذت مكانه، كى يعطينى (يغوث) الكتاب طواعية لأحمله بين يديه فى القداس، وفى حين كان الجميع يهرعون بعد الانفجار، كنت أعرف ما يجرى فأخذنا الطريق إلى الوسيلة السريعة الوحيدة على السفينة، والتى ستوصلنا إلى أقرب جزيرة».

فى حين كانت (مارى) تتكلم وكانت السفينة فى الخلفية تنغمر ببطء فى المياه، وتنبعث ألسنة اللهب من أحد جنباتها، كان هناك وجه بغيض ينظر من حافة السفينة وبجانبه رجل اسمر ضخم يصوب سلاحه النارى باتجاه الزورق، أخذت الطلقات تفرقع على جنبات الزورق المندفع بغور فى صفحة المياه، وما كدنا ننبطح فى قعر الزورق، حتى شهقت (مارى) وهى تسقط بجوارى، وتمسك ظهرها، الذى اخترقته إحدى الطلقات، وهى تقول:

- «يعرف عندما تلفظ اسمه».

أخذتها بين ذراعى أتحسس الدماء بموضع النزف وأنا أصرخ، وتنفجر حدقاتى بالدموع، حتى إن إحدى الطلقات أصابت ساقى، وشعرت أنها كسرت عظمة الساق لدى، غير أن نسبة الأدرينالين فى دمى، وبقايا التخدير جعلتنى لا أشعر سوى بنبضات ألم تشبه الماء الساخن حول قدمى، ابتعدنا عن مرمى الطلقات الهادرة وعن السفينة.

كانت وما تزال تعتصر عيونها من الألم وأنا أبحث فى جنبات الزورق عن أى شىء أضمد به جراحها فلم أجد، ثم أخذت أنزع من تحت عباءتى من

الرداء الكتان الذى كنت أرتديه، وضغطت به على الجرح لكبح نزيفه الهادر، كنت أعتصرها بيدى فى عجز والزورق يشق المحيط فى جنح الليل، وأنا انظر فى عيونها أراقب نسمات الحياة فيها، وأطلب منها أن تبقى معى، وعلى حين كانت تبتسم لتوارى ألمها عنى، أستودعت جسدها بين يدى وارتحلت.

❐❐❐

الاثنين ٢٢ فبراير ١٩٦٠..

أشرقت الشمس وأنا مازلت أحتضن (مارى) وأنتحب، كطفل تاه عن والديه، ويبدو أن أواخر ساعات الليل كلها انقضت، حتى إن مشهد السفينة الغارقة قد اختفى. بدأ القارب يصدر أصواتًا متحشرجة، ثم توقف عن العمل على ما يبدو لنفاد الوقود، أرحت جسدها على أريكة الزورق متابعًا النحيب وقد علق لسانى بدعاء النبى (يونس)، مر وقت قليل قبل أن يظهر فى الأفق بعض المراكب الشراعية التى يعمل أصحابها بالصيد، لوحت لأحدهم فاقتربت من الزورق، ونزلت فيه أنا وجسد (مارى)، وكنت أدس الكتاب فى عباءتى

لم أستطع التفاهم معهم بالانجليزية، لأنهم كانوا يتحدثون البرتغالية - كما علمت فيما بعد- ولكن عندما ذكرت الله فى كلامى باللغة العربية، نطق أحدهم اسم القرآن، وفهم أنى أتحدث اللغة العربية، أولانا الصيادون بالرعاية وتضميد جرحى، وعندما رست المركب على الشاطئ أخذونى

إلى شيخ مسلم يتحدث العربية قليلًا، فأخبرته أننا تعرضنا للخطف، وقد تم قتل (مارى)، و إصابتى فى ساقى.

ساعدنى أهل المدينة فى إزالة الرصاصة من قدمى، ولكن بعدما سبب لى الكسر عرجًا بسيطًا لازمنى حتى الآن، تم دفن (مارى) فى مقابرهم، وأخذنى الشيخ المسلم إلى المسجد الوحيد فى العاصمة (فونشال) للإقامة حتى أتدبر أمرى، وعندما رأيت الهلال على مئذنة المسجد تذكرت الرؤية وعلمت أن الله نجانى.

❐❐❐

الجمعة ٢٦ فبراير ١٩٦٠..

من الجزيرة وصلت إلى (المغرب)، وهناك استطعت التواصل مع والدى، وعدت إلى القاهرة، لم أشأ أن أحكى عما حدث لى، وأخبرتهم أنى تعرضت لحادث أثناء السفر، دون خوض فى التفاصيل، واحتفظت بالكتاب فى مكان أمين، وقررت أن أتحمل لعنة حمله بقية حياتى، لذا كتبت فى وصيتى عن الكتاب، والمذكرات، وليرثه من له نصيب أن يرثنى، وأعتزلت العالم فى حجرتى لوقت طويل.

❐❐❐

هوامش على المذكرات

الخميس ٨ ديسمبر ١٩٦٠..

تزوجت أختى الصغرى (صفية)، وأصبحت المسئول الوحيد فى المنزل عن أبى وأمى اللذين أصابهما الهرم كانت حجة طيبة لعدم العودة إلى أى عمل والمكوث فى المنزل بجوارهما.

رحمك الله يا (مارى)، ليتنى لقنتها الشهادة فى اللحظات الأخيرة.

الثلاثاء ٢١ فبراير ١٩٦١..

ذكرى وفاة (مارى) الأولى، مازال الدمع لم يجف ومازلت الذكرى فى حبة قلبى.

الجمعة ٢١ ابريل ١٩٦١..

توفى والدى، وكان قد أوصانى وهو على فراش الموت أن أعود إلى العمل، وأن أتزوج وأنشئ أسرة، ووعدته بذلك على مضض.

الأحد ١٩ نوفمبر ١٩٦١..

لحقت والدتى برفيق دربها، أصبحت فعليًا وحيدًا فى هذا المنزل، وهذا العالم، لكنت آنست بك يا (مارى).

الثلاثاء ١٦ يناير ١٩٦٢..

رغم أننى كنت قد أزحت فكرة الزواج من مخيلتى غير أننى وبعد زواج

أختى الصغرى (صفية) ووفاة أبى وأمى العام الماضى، وبعدما تملك منزلى الوجوم والخراب، حتى إن (صفية) ألزمت نفسها أن تترك بيتها وتأتى لتعتنى بشئونى يومًا فى الأسبوع وكأنى قعيد أو عاجز لرفضى الاستعانة بخادم.

فاتحتنى بخصوص (علياء) ابنة خالتى، وهى فتاة طيبة وتحبنى منذ الصغر، هل ستغضبين منى يا (مارى)؟

الأربعاء ٢١ فبراير ١٩٦٢..

.....

الاثنين ١١ فبراير ١٩٦٣..

رزقت بمولودى الأول (عماد) اللهم احفظه لى من كل سوء، ومن الشيطان وهمزه ونفثه، إنك على كل شىء قدير، (علياء) زوجة حنونة وعوضتنى كثيرًا عن فقدان أمى.

السبت ٦ يوليو ١٩٦٣..

بدأ رصيدى المالى من ميراث أبى ينقص بشكل ملحوظ، ومركزى كرب أسرة دفعنى إلى أن أقوم بمشروع خاص، واهتديت إلى بناء مدرسة لإعداد جيل قادر على مواجهة التحديات الشيطانية، وقمت بإدارتها، أظن أنها ستصبح محور اهتمامى، وأعز مكان إلى قلبى.

السبت ٣٠ أبريل ١٩٦٦..

تأسست ما يسمى بـكنيسة الشيطان في سان فرانسيسكو، كاليفورنيا،

بواسطة شخص يدعى (انتون سزاندور ليفي)[1]، يخيل لى أنه المدعو (بلاك ليفى) الذى كان على متن السفينة، ولعل ذلك هو نواة عبادة الشيطان التى تم الإعداد لها، ترى هل جماعة الشيطان ما تزال بخير وتسعى فى مشروعها الشيطانى؟ ترى هل مازال هناك شىء بانتظارى كمعرقل لمشروعهم الجهنمى؟

(١) تم الإعلان الرسمي لإنشاء هذه البدعة في شهر يوليو ١٩٦٦ م بمدينة سان فرانسيسكو على يد أنطون ليفى، وفي نهاية ١٩٦٦ خرج أول ميثاق شيطاني من نوعه لهيئة «كبار كهنة ما فوق الأرض»، حيث نادوا بأن الدين خدعة تشتت القدرات الإنسانية. وللأعضاء درجات ومراتب تبدأ من عضو أمير ثم أمير ثم أمير جماعة ثم أمير كهف ثم شر ثم شر أعظم ثم كاهن فوق الأرض وآخر المطاف مرسل من قبل القوة السفلية راعى كنيسة، وفي السنة الأولى من وجود أنتون ليفي وكنيسة الشيطان جذبت اهتمام الإعلام عندما تمت زيجة شيطانية علنا بين جوديث كاس والصحفي جون رايموند. مراسم الزواج قد صورها جو روزنتال الذي التقط صورة «رفع العلم في أيو جيما» الشهيرة أثناء الحرب العالمية، حدث آخر تم علنا هو جنازة لعضو كنيسة شيطان وضابط بحري إدوارد أولسون. كنيسة الشيطان قد ذكرت في العديد من الكتب وكانت عنوان تحقيقات صحفية ومقالات في عدد من المجلات والصحف أثناء الستينات والسبعينات، وأيضا كانت موضوع فيلم وثائقي شامل اسمه «ساتينس» (١٩٧٠). ظهر لافي في فيلم كينيث انجر «ندائتي لأخي الجني»، وكخبير تقني في فيلم «مطر الشيطان» الذي مثل فيه إرنست بورجنين ووليام شاتنر، وكان الظهور الأول لجون ترافولتا، كنيسة الشيطان نفسها قدمت جزء من فيلم لويجي سكاتيني «انجيلي بلانكا، انجلي نيجرا»، الذي اطلق في أمريكا باسم «ويتشكرافت ٧٠».

الجمعة ١ يناير ١٩٧١..

سافرت أنا وأسرتى إلى المملكة العربية السعودية، أحتمى بالحرم طوال العام الذى أعرف أنه عام الكلف الشمسى، وربما البحث عنى واجبًا على أحدهم.

الأربعاء ٧ نوفمبر ١٩٧٩..

أرسلت (عماد) ليكمل تعليمه خارج مصر، رغم أن فراقه يؤلمنى كثيرًا، غير أن الابتعاد عنى ربما سلامة له، حتى يحين دوره فى حمل الإرث المشئوم.

الجمعة ٥ من يونيو ١٩٨١..

علمت أنه اكتشف في الولايات المتحدة الأمريكية - وكالة مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها (CDC) عددًا من حالات الإصابة بالالتهاب الرئوي من نوع Pneumocystis carinii وذلك في خمسة رجال من المثليين جنسيا في لوس أنجلوس، ولم يكن لدى الوكالة اسم رسمي لهذا المرض، وتشير إليه من خلال الأمراض المرتبطة به مثال اعتلال العقد الليمفاوية أو «سرطان كابوزي والعدوى الانتهازية» وهو الاسم التي أطلقته عليه الوحدة المؤقتة التي تم تشكيلها للتعامل مع المرض الجديد، وفي المواد الصحفية تم استخدام المصطلح GRID الذي هو اختصار Gay-related Immune Deficiency والذي يعني مرض نقص المناعة المرتبط بالشواذ جنسيًا. وفي سعي الوكالة لتحديد اسم للمرض الجديد ومع دراستها للفئات

والمجتمعات التي تنتشر فيها الإصابة، وجدت أن كل هذه الفئات يبدأ اسمها بحرف H - وهم Haitians (سكان هايتي) وHomosexuals (المثليين جنسيًا) وHemophiliacs (الأشخاص الذين يعانون الهيموفيليا) وHeroin users (مدمنو الهيروين)، ولذلك أطلقوا عليه «مرض الفور إتش» ولكن[1]، أظن أن المرض ليس له علاقة بفئة معينة، وإنما ربما يكون الفيروس الذى كانوا يعملون على تطويره فى السفينة، ووسيلة نقله هى التعامل الجنسى وتعاطى المخدرات، لربطه باللذة والخطيئة.

السبت ١ مايو ١٩٨٢..

لا أدرى لماذا أكتب ذلك الآن، ولكن سامحينى يا (علياء) إذا ما قرأت مذكراتى يومًا، ووجدتِ ما يضايقك، أقسم لكِ أنكِ كنتِ لى خير الزوجة

(١) بعد أن تم اكتشاف أن المرض ليس مقتصرًا على مجتمع المثليين جنسيًا فقط، تم استخدام مصطلح AIDS (الإيدز) والذى يرمز الى كلمة متلازمة نقص المناعة المكتسبة وتساوى فى الفرنسية SIDA، في أحد اجتماعات الوكالة في يوليه من عام ١٩٨٢ وبحلول سبتمبر من عام ١٩٨٢، بدأت هذه الوكالة في استخدام اسم الإيدز وربما تكون قد بدأت في وضع تعريف للمرض الجديد. وهناك نظرية تعتبر مثارًا كبيرًا للجدل ومعروفة باسم OPV AIDS hypothesis ترى أن وباء الإيدز ظهر عن غير قصد في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين في الجزء البلجيكي من الكونغو (جمهورية الكونغو الديمقراطية الآن) نتيجة لأبحاث هيلاري كوبروفسكي الخاصة بإنتاج لقاح لمرض شلل الأطفال. ووفقًا للإجماع العلمي، لا يوجد أي دليل يدعم هذا السيناريو المفترض لظهور المرض. وقد ذكرت دراسة حديثة أن فيروس HIV ربما يكون قد انتقل من إفريقيا إلى هايتي ثم دخل الولايات المتحدة الأمريكية تقريبًا في عام ١٩٦٩.

والصاحبة، ولكن لا أدرى لما أصبح يراودنى البكاء كثيرًا هذه الأيام لأسباب واهية، وأصبحت لا أتحكم فى قنواتى الدمعية، ترى هل قصرت فى حمايتها رغم أنها حمتنى بحياتها؟ هل قصرت فى تلقينها تعاليم الإسلام وقد كانت خامة طيبة لم تجد من يرشدها؟

أفتقد وجهها بشدة، أفتقد ابتسامتها بشدة.

أتمنى أن أراها ولو مرة واحدة.

❐❐❐

الفصل السادس

بين يدى ملعون

كان (وليد) فى حجرته يرقد على سريره بعدما فرغ من قراءة المذكرات، وكان يعقد يديه خلف رأسه ويتأمل السقف، والدموع تغرق عينيه، وهو يفكر أى مصير قد لحق بـ(ألين)، ترى هل قتلت أم خطفت فى عالم الجن؟

ولو كانت حية فأى أهوال تلاقى؟ وإلى متى ستظل حية؟ كان إجرامًا منه أن يورطها فى أمر كهذا، وسيظل يحمل الذنب فى رقبته طوال حياته، دخلت والدته تحمل كوبًا من الحليب فنهض من رقدته يمسح دموعه التى لم يكن فى عمر يسمح له بإطلاق العنان لها، لم يخف على الأم دموع ولدها، فوضعت الكوب على الكومود وجلست بجانبه، ثم فتحت ذراعيها، فدفن رأسه فيها، ولم يستطع كبح دموعه.

يبدو أنه قد غلبه النعاس بين ذراعى والدته فاستغرق فى النوم، ثم تنبه ليلًا على صوت خفيض من الشارع، انتفض من نومه جالساً على سريره، وأضاء المصباح الخافت بجواره، كانت الحجرة على ما يرام، ولكن بالخارج كان يسمع صوتاً يعرفه جيدًا، كان صوت صفارة خافتة، يشبه

صفارته التى كان ينادى بها (ألين)، انقض على رتاج النافذة ليفتحه، ولفحته النسمة الباردة، ثم تهلل وجهه عندما رأى (ألين) تقف أسفل نافذته، كانت نافذته مرتفعة فلمحها تشير له بالنزول، وهى تتلفت فى خوف يمينًا ويسارًا، انطلق إلى دولابه وفى لحظات كان قد أبدل ملابس نومه، وارتدى معطفه وانطلق إلى الشارع، عندما نزل إلى الطريق كان الصمت والليل يغلفان كل شىء، أخذ ينظر يمينًا ويسارًا، فلم يلمح أثرًا لـ (ألين)، ولكن على مقدمة الطريق لمح فى الظلام عيون حمراء قاتمة، لكائن يشبه ذئباً عملاقاً مشوهاً، ترتفع قائمتاه الخلفيتان، وتقصر قائمتاه الأماميتان، ويختل نسق وجهه، وينتفش فراؤه الرمادى الباهت حول جسده، فى بعض الأجزاء دون الأخرى التى خلت من الفراء، لتكشف عن عظام الصدر البارزة غير المنتظمة، بدأ الكائن فى الوثب باتجاه (وليد)، بعدما كشف عن صفين من الأنياب القاطعة، التى تتراص بعشوائية فى فكه، الذى سال منه الشدق، أسلم (وليد) ساقيه للرياح يعدو بكل قوته، والكائن فى أثره، ولم يكن فى الطريق أى بشر لنجدته، وكلما تعمق فى الجرى أصبح الطريق أكثر خلوًا من السكنى والفرص، وعلى حين كانت أنفاثه ولهاث صدره سبقا حيز جسده، وهو يجرى مندفعًا، اختل توازنه، وتعثر فى حجر صغير، فانكفأ على وجهه، ومسح التراب بوجهه، اعتدل لينهض، فكان الكائن يثب مباشرة ليجثم على صدره، امتلأت أنفه التى يغطيها التراب الممزوج بدماء جرح صغير، برائحة تشبه بول الحيوانات عندما يتعفن فى فرائها، فتح الكائن فمه ناحية عنقه لينهشه، دفعه (وليد)

بقدمه للخلف، فتدحرج على التراب وراءه يتلوى، ثم عاود على نحو سريع الانقضاض، فى حين أن (وليد) وبسرعة خاطفة تحسس جيبه، ليجد المطواة ما تزال فى معطفه، ففتحها بخفة لم يكن اعتادها، رغم محاولاته الكثيرة فيما قبل، وعندما كان نصلها باتجاه الحيوان الغاضب، كان الكائن انقض فاغرًا فاه فى ناحيته، وتعلق فى ساعده، وهو جاثٍ على ركبته لم يكن نهض بعد، وعلى حين كان الكائن متعلقًا فى ساعده يحاول نزع لحمه وهو يتلوى متعلقًا، كان (وليد) يسدد بيده الأخرى الطعنات إلى رأسه، التى كانت عيونها الملتهبة يسيل الدم بينها، وهو ينظر إليه ويعوى بحشرجة، ثم سقط الكائن على الأرض، وكان (وليد) مازال يكيل إليه الطعن فى غضب وهيستيريا. تمدد الكائن على جنبيه يرتجف والدماء التى تقترب حمرتها الداكنة من اللون الأسود تغطى فراءه العفن، طوى (وليد) مطوته، وأعادها إلى جيبه، عندما بدا الكائن وقد أزهقت روحه، ثم شمر كم معطفه عن ساعده، الذى نهشه الكائن، فكانت الأنياب القاطعة بعد أن مزقت جزءا من القماش، قد طالت يديه بالأذى، وأحدثت جرحًا قاطعًا، شعر بحرق كبير وألم نابض فيه، فانطلق يعدو بأتجاه منزله مرة أخرى، عندما صعد وطرق الباب، ارتعبت والدته مفزوعة وهى تفتح له، وصرخت باسمه، وأجلسته على الأريكة، وهو مشمر ذراعه، وينوء برقبته للخلف فى تعب، والغبار الذى تحول طينًا معجونًا بالدماء يغير ملامح وجهه، كان الأب قد استيقظ هو الآخر، وكانت الرؤية باهته أمام ناظرى (وليد)، وصوت صرخاتهم وتحركاتهم

لا تكاد تصل إلى أذنه، فكان ما حوله كمشهد من فيلم بطئ، ثم غامت الدنيا فى عينيه.

❐❐❐

اقتربت السيارة البيجو الطويلة من الطريق ذاته، بين أروقة أحواش المقابر، ووقفت أمام حوش مقبرة (سيدى حسن بن الجاتى) وكان يقودها (شعلان)، وبجواره (قناوى)، مساعدا (عبد المريد) الذى كان يضطجع فى المقعد الخلفى، أثارت فرملة السيارة أمام الحوش زوبعة من الأتربة الناعمة المميزة للمقابر، فنزل (عبد المريد) من السيارة ينفض ملابسه، التى كانت عبارة عن جلباب أبيض، وعليه عباءة من الصوف الكحلى، وفى يده الأخرى كان يمسك اللفافة التى تحتوى على الكتاب، نزل مساعداه، وتوجها إلى شنطة السيارة، وأنزلا منها جوالًا به شىء يتحرك، أرخيا الجوال على الأرض واقفًا فقال لهم (عبد المريد):

- «اخرجا الفتاة من الجوال، قبل أن تفطس، فنسلخ جميعًا مكانها».

فك (شعلان) رباط الجوال، فكانت (ألين) مكممة الفم، ومربوطة اليدين خلف ظهرها والقدمين، كانت ترتدى جلباباً قصيراً من الكتان، يتجاوز ركبتيها بقليل، وأكمامه إلى مرفقيها، وقد تعفر شعرها ووجها، وأثار اتساخ على ما يظهر من ساقيها. كانت تبكى بكاء مريراً مكتوماً بالشريط الذى يكمم فاها، حملها (شعلان) على كتفه كظبية نحيلة، ودخلوا جميعًا إلى حوش المقبرة المعتم، فتوجه (قناوى) إلى مفتاح كهرباء،

يمتد منه سلك إلى لمبة، فأضاءها فأعطت للمكان رؤية مضمحلة، فتح الآخر باب الحجرة ذات القفل، وألقى بـ (ألين) فى أحد أركانها، وكانت الحجرة ترابية الأرض، بها طاولة من الخشب العتيق المتهدل، وبها بقايا تعفن وبقع داكنة، وعليها أدوات تشبه أدوات الجزار، كالخطاف ومسن السواطير، ولكن دون أسلحة، وكان فى الحجرة عدة دلاء من الخشب تشبه أوانى الزرع، مغطاة بخرقات من القماش، أغلقا عليها باب الحجرة الخشبى المهترئ، فزحفت ناحية الباب تضرب عليه برأسها فى يأس، وسمعتهم من خلف الباب يتحدثون، قال (عبد المريد) لمساعديه:

- «حياتها مهمة لقداس الغد، الشيطان يقول إن دماءها صالحة للقداس، وذلك من الصعب الحصول عليه، غدًا ليلة المجد والنفوذ لشيطانى العزيز، ولى من الحب جانب كبير ولكم بالطبع، ومن الآن حتى الغد يجب أن تخضبوا بالدماء التى تم جمعتموها أرض التربة، حتى ترتوى».

قال أحد مساعديه:

- «خسارة فى الموت، صغيرة ولكن يافعة».

قال (عبد المريد):

- «إياك أن تمسها، عفتها هى تاج براءتها، لا تجلب علينا وبالًا لا قبل لنا به، لديك وديعة تخص الشيطان الآن، حياتك لن تكفى لو حدث لها شىء حتى الغد، أياك أن تكون أنت الذى أبدل لها ملابسها قبل أن تحضرها لى».

- «لا والله، لقد جعلت الكودية[1] (حبشية) هى التى تلبسها الثوب الكتان، تعليماتك أوامر يا مولانا»

عادت (ألين) منكمشة إلى ركن الغرفة بعدما سمعت كلامهم، فتعثرت فى دلو انسكب على الأرض، فتدفقت منه الدماء، فصرخت من الفزع، وتدحرجت إلى ركن مقابل للغرفة، تجلس على الأرض، وهى تضم ركبتيها إلى صدرها وترتجف باكية، ثم لمحت فى الأرض من أثر حكة قدمها شيئاً مدفوناً، عبثت بيدها المقيدة فى تلقائية، فكان إصبعًا ليد طفل مدفون، تمتد إلى جسده تحت الـتراب، انتفضت من مكانها مذعورة تتراجع زاحفة بظهرها، فارتطمت بالطاولة التى عليها أدوات الجزار، وسقط منها خطاف، تناولته بيدها المقيدة خلف ظهرها، ووجهت نصله المدبب ناحية لحمها، وقررت أن تتخلص من حياتها، مادامت فى كل الحالات ميتة، فلتمت قبل أن يتحصل عليها شيطان، فتح (شعلان) الباب، وعندما لمحها تمسك الخطاف، انطلق يجرى نحوها، وانتزعه منها بسرعة، وهو يقول:

- «يالغبائى، نسيت باقى المعدات، أنت خطر على نفسك، وقد تجرين الخطر عليّ معكِ».

(١) الكودية هى السيدة التى تدير (الزار)، و(الزار) هو فلكلور شعبى يتعلق بالتخلص من الشياطين والمس بالرقص على الدفوف وربما المديح والغناء وأحيأنا يتم ذبح بعض الحيوانات ويعتقد أن أصل كلمة (زار) هى اللغة الأمهرية وجائت من كلمة (جار) أحد ألهة مملكة كوش النوبية وتم تحريفها إلى (زار) وصار معناها عفريت حقود.

كان هناك خطاف معلق على أحد جدران الحجرة، وبه حبل متدلى من الليف، أخرج سكينًا من جيبه وقطع الحبل من يدها، أخذت تقاوم بيأس لم يكن له مردود من جسدها الرقيق، حيث أمسك كلتا يديها بقبضة واحدة، وجرها حيث الحبل، وقام برفع ذراعيها، وقيدهما لأعلى فى الخطاف، ثم تركها تبكى بحرقة وأغلق الباب.

□□□

تنبه (وليد) فوجد نفسه على سرير فى المستشفى، وعلى وجهه بعض اللاصقات الطبية، وساعده ملفوف بالشاش الطبى، وبدأ الجرح الذى فى ذراعه يرسل نبضات ألم حارقة كلما استعاد وعيه، تنبه لوجود والديه والطبيب حول سريره. اقترب الطبيب منه يتفحص حدقته، وقال محدثًا والديه:

- «إنها عضة قوية جدًا، من الجيد أنكم لاحقتم الجرح بالغسيل الجيد بالماء والصابون والكحول، ذلك يجدى نفعًا كبيرًا فى مكافحة فيروس داء الكلب[1]، ولكن بالطبع سيتم إعطاء المصل واللقاح فى المواعيد التى ستخبركم بها الممرضة، على مدى أسبوعين».

نهض (وليد) من على سريره بمساعدة والده، الذى ألبسه معطفه، وسانده خارجًا به من المستشفى، بصحبة والدته. كان الصباح قد لاح فى الأفق،

(١) هو نوع من الفيروسات التى تنتقل من بعض الحيوانات المصابة إلى البشر ويصيب الجهاز العصبى المركزى ويسبب ألتهاب حاد فى الدماغ وقد يؤدى للوفاة فى حالة عدم تلقى الوقاية اللازمة.

حين عادوا إلى المنزل، دخل (وليد) إلى حجرته، وخلع معطفه الممزق الساعد، ثم رقد على سريره يمسك ساعده المربوط، من أثر الألم الحارق، ويبكى خوفًا من تعرض (ألين) لمصير مشابه، دخل والده عليه الحجرة فمسح جفنيه، وقال له:

- «(وليد)، أعتقد بعدما حدث، يجب ألا نبيت فى المنزل ليلة أخرى، على الأقل حتى نعرف ماذا سيحدث، لقد قررت أن نسافر إلى عمتك فى السويس».

رفع (وليد) عينيه فى خشوع وهمس قائلًا:

- «وماذا عن (ألين)؟».

قال الأب بأسى:

- «لقد اضطررنا لإبلاغ الشرطة عن اختفائها، أعرف أن ذلك يعرض أسرتها لخطر الترحيل من مصر، ولكن ما باليد حيلة، وأتمنى أن يجدوها أو يعرفوا مصيرها، حضر أغراضك سنسافر بعد العصر».

عادت الدمعات ترقرق فى جفنيه وقال:

- «ألا يجب أن نبقى لاستكمال اللقاحات، كما قال الطبيب؟».

قال له والده، الذى شعر بغصة ولده على صديقته، وهو يجلس بجواره:

- «(وليد) لقد كان الكتاب معك، وكان يمنع بعضاً من الأذى عنك عدم جواز انتزاعه منك بالقوة، ورغم ذلك رأيت ما رأيت من الفزع والأذى،

وصديقتك التى بالكاد حملت الكتاب قليلًا قبل أن تعيده لك، لا نعلم ماذا حدث لها - وأرجو من الله أن تكون بخير- أنا لا أضمن ماذا سيفعل الشيطان (يغوث) كى ينتقم من عرقلتك له، وسلب الكتاب منه، لقد سلمك الله من بين براثن حيون مفترس، لا أعلم إن كان حيوانا ضالًا أو شيطانًا مسلطًا، فليس من الطبيعى أن تتخيل صديقتك تناديك، لتنزل لهذا الحيوان المفترس، كما لا أدرى إلى أى مدى من الانحطاط وصل الناس الذين يتعاملون مع هذا الشيطان وفى خدمته، ولا تنس أن المدعو (عبد المريد) يعرف مدرستك وعنوان منزلك، ربما تغيير المكان يبعدهم عن التفكير بك أو نسيانك، سنتدبر أمرنا حتى تصل الشرطة إلى شىء، لقد أدلينا بمواصفات الرجل للشرطة على أنه متهم بخطف (ألين)، وربما عندما نصل له نعرف مكانها، وتكون بخير».

ضغط (وليد) على شفتيه فى حسرة عندما انصرف والده، وأغلق عليه حجرته، ثم دفن وجهه فى الوسادة.

❐❐❐

فى منتصف النهار، اقترب الملازم (خالد) ومعه زوج من المخبرين من البوابة الخارجية للمنزل الفخم الكبير، والذى كان يتوسط عدة منازل قديمة ومهترئة، فبدا كما لو كان فيلا صغيرة. كان مبالغا فى زخرفته وبه أعمدة كبيرة للزينة فى مقدمة الأرض التى تحوطه، وينبت على استحياء بها بعض الأعواد من النباتات المتسلقة، التى لا يبدو أنها تنال العناية اللازمة، وإنما غرست لزوم

الأبهة، كان البيت فى منطقة (السيدة عائشة) بالقرب من المنطقة الأثرية العتيقة. كان المكان مزدحماً وكأنه بيت العمدة. ارتبك الزوار عندما دخل الضابط والمخبران، لكن الرجل الذى يستقبل الناس فى الردهة، والذى يشبه التمرجى فى العيادات الخاصة، رحب بهم دون أدنى رهبة، وأجلسهم فى منطقة الاستقبال، مثلهم مثل كل الزبائن، الذين حضروا يلتمسون البركة والعلاج، بعد قليل أذن الرجل للضابط والمخبرين بالدخول. نهض (عبد المريد) من على الكرسى الفخم المطعم بالأرابسك، وكان يرتدى جلباباً أبيضاً، وعليه عباءة من الحرير البنى، وعلى رأسه طاقية مزينة بالخيوط الذهبية، وضع يديه اليسرى التى تفتقد إبهامها فى جيب عباءته، وأرخى مسبحته الخشبية من أصابع يده اليمنى لتدخل حول معصمه، ثم مد يده ليصافح الضابط فى ود، قابله الضابط بمصافحة صارمة، غير أن المخبرين بديا كما لو كانا يعرفانه جيدًا، وسلما عليه بود، جلسوا على الأريكة ذات الطابع العربى، فى الحجرة الفخمة التى تشبه المساجد المبالغ فى زينتها، قال له الضابط:

- «أنت (عبد المريد) أليس كذلك؟».

هز رأسه وقال:

- «الشهرة، الشهرة يا باشا، وهل هناك أحد لا يعرف (عبد المريد)؟ يبدو أن سيادتك جديد فى القسم».

قال الضابط باقتضاب:

- «تعرف فتاة تدعى (ألين) فى مدرسة المنار بالحلمية الجديدة؟».

قال بخبث واستهزاء:

- «ألم يتبق سوى الأطفال لنعرفهم، يا سيدى أنا يأتى لى أناس من كل الدنيا، هل كان عليها مس أو سحر؟ على كل حال لا أظن أن أحداً يخرج من عندى ولم ينل مراده».

قال الضابط:

- «هناك اتهام لك أنك اختطفتها، لقد ذهبت إلى مدرستها يومًا لتسأل عن كتاب يخص مدير المكتبة أليس كذلك؟»

مال عليه الرجل وقال هامسًا:

- «إنها غلطتى، لقد كان مدير المدرسة زبونًا عندى لمشاكل زوجية تخصه، واستعار منى كتاباً ولم يرده، هل محرم على أن أطلبه؟ من مات وفى رقبته دين علق على باب الجنة، ورغم أنه لم يعده أستعوضت الله فى الكتاب وسامحته، هو الآن فى ذمة الله ولا تجوز عليه سوى الرحمة، ولكن هل تعنى زيارتى للمدرسة أننى مسؤل عن أى حادث يحدث لأى طالبة فيها؟ اللهم استر على ولايانا، لو أعرف ذلك لعينت أحدًا من صبيانى فى حراسة الطلبة».

نظر الضابط فى غيظ إلى المخبرين، ونهض منصرفًا وهو يقول:

- «سنستكمل التحريات وسنرى».

كان المخبر قد فتح محضرًا فناوله لـ(عبد المريد) للتوقيع فوقع ثم قال:

- «لم نقم بالواجب يا سعادة الباشا، (عبد المريد) خادم الحكومة، ستعرف قيمتى يومًا».

انصرف الضابط فى اشمئزاز وقال للمخبرين:

- «كيف لم يقبض على هذا الرجل من قبل بتهمة الدجل؟».

قال أحد المخبرين:

- «يا باشا، إنه رجل مبروك، يأتيه الناس من كل مكان، ونستعين به أحياناً فى الكشف عن أماكن المسروقات، ونعده من رجالنا».

قال الضابط بحنق:

- «ما هذا الهراء، أبدلًا من تحرير قضية ممارسة الدجل والشعوذة، نشاركه فى الهراء».

قال المخبر الآخر:

- «إن بيته مفتوح للناس كى يشير عليهم فى قضايا الدين، ويتعامل بالقرآن، فلا تجد أى أمور تشير إلى الدجل كما شاهدت سيادتك، كما أنه لا يأخذ أموالاً، إنما هدايا من محبيه، ولا تجريم على تلقى الهدايا، أو رقى الناس بالقرآن».

نظر الضابط بيأس قبل أن يركب سيارة الشرطة ويبتعد.

❐❐❐

كان (وليد) يجلس فى المقعد الخلفى لسيارة والده، التى كانت تشق طريقها إلى مدينة السويس، وكان شارداً فى القرص الملتهب للشمس، وهو يغيب فى الأفق، ويتذكر (ألين)، التى لم يكد يلمح ابتسامتها هذا العام سوى فى تلك المرة التى ابتسمت فيها فى حياء، عندما لمح لها بمشاركة جنسيته المصرية معها، تلويحًا بالزواج منها، أخذ يتخيل ما قد يكون حدث لها إن تم سحبها إلى العالم السفلى، ربما هى الآن فى مكان يعج بالشياطين والشرور، اعتصر عينيه فى ألم، لم يكن رجلًا بما يكفى لها، هز رأسه فى غيظ، ولكن ذلك لم يمنع تدفق خيالاته، أخذ يتخيل قرص الشمس الذى ألهبه الغروب كما لو كان فجوة فى جدار السماء، ينسل منها الشياطين لاستباحة الناس والانتقام منهم، ترى هل هو المسئول عما جرى لها؟ ترى هل يحمل وزر ضياعها؟ ترى هل يحتمل عدم وجودها فى حياته؟

اعتمت السماء واختفى قرص الشمس وهو ما يزال على شروده، حتى أفاق على صوت حشرجة تعترى السيارة فى منتصف الطريق المقفر. استطاع الأب بكياسة توجيه السيارة إلى الحافة الرملية بعيدًا عن نهر الطريق، الذى تقطعه السيارات القليلة بسرعة كبيرة، نزل (مكرم) من السيارة متوجسًا ثم توجه إلى غطاء الموتور ليفتحه، نزل (وليد) بالتبعية يعرض المساعدة على والده، فتح (مكرم) غطاء الموتور، يتفقد البخار الذى عف بمجرد فتحه لسخونة المحرك، كان الطريق الجانبى الممتد لأرض رملية ،لا معالم فيها سوى لتبات الرمال الخشنة، وأبراج كهرباء الضغط العالى، وعلى حين غام المشهد فى الظلام، الذى بالكاد

تضيئه كشافات السيارات المسرعة، التى تنهب الطريق فى عجل، ودونما اكتراث -فلا أحد يجرؤ على عرض المساعدة لما قد يكون ربما فخ لاصطياد الضحايا وسرقة سياراتهم- طلب الأب من (وليد) إحضار زجاجة المياه من الحقيبة الخلفية للسيارة، توجه إلى كونتاكت السيارة، انتزع المفاتيح وذهب إلى مؤخرة السيارة لفتحها، ثم لمح فى الأفق المعتم خيالًا جعله يسقط المفاتيح من يده.

رفع الأب رأسه المنكفئ فى مقدمة السيارة ينتظر الماء لتزويد قربة تبريد الموتور، تأخر (وليد)، فتحرك (مكرم) نحو مؤخرة السيارة، فلم يجد سوى مفاتيح السيارة على الأرض، ولا أثر لـ (وليد). انتفض قلبه صارخًا مع نزول زوجته من السيارة منتفضة ومرتعبة، وأخذ يدور حول السيارة يناديه بلا أمل.

❐❐❐

ألقى القمر بظلاله الرمادية على المقابر الصامتة، إلا من هذه البقعة، التى لم تخل من الحركة، والتى كانت عبارة عن شارع صغير بين مجموعة من أحواش المقابر، فى نفس المكان الذى توجد به المقبرة التى اتخذها (عبد المريد) محلًا للشيطان (يغوث)، على بداية الطريق وقف (قناوى)، وعلى الطرف الآخر وقف (شعلان) لمراقبة الطريق، وفى داخل حوش المقبرة كان (عبد المريد) ومعه شخصان يرتدون العباءات الحمراء ذات غطاء الرأس، والتى بالكاد تظهر تكوينًا إنسانيًا، وكان الشخصان يتبطآن

ذراعى (وليد) فاقد الوعى، ويجرانه على التربة الناعمة للمقبرة، مما أثار زوبعة من الغبار الرقيق، كان ماثلًا أمامهم حجراً متزحزحًا عن درجات سلم تؤدى إلى الجبانة التى تحت الأرض، مستقر الموتى، نزل (عبد المريد) يتبعه الشخصان ذوى العباءات فإذا ما دون الدرجات غرفة كبيرة جدًا تشبه المعبد، كان بالأسفل نفس التكوين الجهنمى، من أعمدة حجرية دائرية ومذبح حجرى، ويضئ المكان زوج من الشعلات على جانبى الغرفة جعلا المكان يرتج بظلاله، وكان على الساقية التى تشكل النجمة الخماسية قد تم تقييد (ألين) بأربطة من الليف وكانت تنتحب، وجسدها النحيل يرتجف من الرعب، وأسفل قدميها وعاء من الحجر لتلقى الدم النازف، على مقدمة المذبح وقف (يغوث)، فتقدم منه (عبد المريد) وأخرج من طيات ملابسه اللفافة السوداء، التى تحتوى على الكتاب وناولها له، ثم اتخذ مكانًا فى خشوع، بعد أن توجه إلى مصطبة حجرية عليها نفس العباءة ولكن سوداء، ثم ارتداها فوق ملابسه وغطى وجهه، كان الرجلان الآخران المتشحان بالعباءات الحمراء يضعان (وليد) على المذبح، وأخذا ينتزعان ملابسه وألقيا بها على حجر جانبى، بطريقة كما لو كانا يتعاملان مع جثة على وشك الغسل، حتى انتزعا ضمادة يديه فبدا جرحه الذى لم يلتئم بعد، وكان (وليد) لا يزال فاقدًا الوعى، بين أيديهم التى بدت كيد ذئب منتفشة الفراء، وتمددت أصابعها لتشبه اصابع البشر، ولكن بثلاث أصابع فقط، كان بجوار المذبح لفافة كبيرة من الكتان فبدأ يغلفان بها خصره كمومياء يتم تحنيطها، ولكن تركا صدره عاريًا،

ربما لانتزاع قلبه، وبجواره لمع سكين قديم بمقبض مزخرف ونصل حاد مصقول، وأمامه بدأ (يغوث) الاستعداد لبدء طقوس القداس الأعظم، بدأ يتلو بعض الكلمات غير المفهومة فبدأت الأطياف الضبابية تبرز من أرضية التربة، التى تمتزج بين التراب الناعم والحصى، وبدأ المكان يعج بالأطياف التى شكلت ما يشبه التكوين البشرى، ظهر ارتجاف (عبد المريد) من تحت عباءته التى غطت ملامحه عندما أصبح المكان مزدحمًا بالأطياف التى تراصت فى أماكن محددة بنظام، وبدأت الأرض التى كانت تربته ندية من الدماء وكأن حصاها يتحرك، ليشكل نقوشًا طلسمية على الأرض، بدأ (وليد) يستعيد وعيه على صرخات (ألين) التى كانت ترج المكان ولكن كان صوتها قد بح، حتى وكأنها تفقد حنجرتها تدريجيًا، نظر حوله وتبين موقفه، وشعر كما لو كان عاجزًا عن الحركة، غير أن قلبه الذى كان يحتفظ بالقدرة على الحركة كان يريد أن يغادر صدره، قفزًا من المصير الذى ينتظر جسده، رفع رأسه قليلًا ولمح (ألين) المقيدة فى الساقية تحاول التملص لتخليص يديها، كان (يغوث) قد وضع اللفافة التى تحتوى على الكتاب بجوار المذبح على صخرة حجرية مربعة ومرتفعة، وما إن حان وقته حتى مد يديه وخمش اللفافة السوداء التى وكأنها احترقت من خمشته، وبدا الكتاب بغلافه المميز واضحًا، تناوله بيديه المعروقتين بتؤدة، وهو ما يزال يتفوه بكلمات غير مفهومة، وكان (وليد) أمامه على المذبح، يراقب عينيه المرعبة فى رجفة وعجز عن الحركة، فتح (يغوث) الكتاب ليستكمل آخر حلقات الطقس الذى

انتظره أعمارًا، وعلى حين كان (وليد) يراقب عينيه، وجدها تتحول من عيون تشبه البشر، إلى كتلتين من اللهب المستعر، وبدأ وجهه كأنه يمط طوليًا ويصرخ متحشرجًا، ثم ألقى الكتاب على طول ذراعه على الأرض، وقال صارخًا باللغة العربية:

- «إذا يسرق يمحى».

تذكر (وليد) أنه سرق الكتاب من والدته، وأبدله بكتاب آخر، بعدما أعطاه لها طواعية، فأصبحت حاملة له، فمحى الكتاب عندما سرقه منها، استجمع شجاعته وما تبقى من طاقة في جسده، فتدحرج من على المذبح، وسقط على الأرض بين الأطياف المزدحمة، التى بدأت تهتاج لهياج (يغوث)، وتتبخر فى عشوائية فى جنبات المكان، ثم أنفضت العباءتان اللتان كانتا تغلفان الرجلان إلى فراغ على الأرض، أما (عبد المريد) فقد بدأت ألسنة اللهب تنشب فى ملابسه أسفل العباءة، والتى كان من المفترض خلعها فى القداسات السوداء، حيث يحترق كل ما ليس صوفاً أو كتاناً، أخذ يصرخ وينتزع العباءة ويجرى بعشوائية فى المكان والنيران تلتهم جسده، ثم بدأت عباءة يغوث هى الاخرى تنفض على فراغ، بعدما تلاشى جسده إلى سقف الجبانة التى بباطن الأرض، توجه (وليد) إلى معطفه الذى تم خلعه ووضعه على حجر فى أحد الأركان، فارتداه، وارتدى سرواله فوق لفافات الكتان، وأخرج مطواته من جيب المعطف، وتوجه إلى الساقية حيث (ألين) التى فقدت الوعى من هول ما رأت، وأخذ يحررها ممزقًا قيودها، حتى نزلت بين ذراعيه، تأبط ذراعها

يساندها و يسحبها صاعدًا إلى السلم، متفاديًا جسد (عبد المريد) الذى سقط على الأرض كومة متفحمة تحترق، نظر إلى أعلى حيث كان حجر المقبرة يتزحزح ببطء ليغلقها، نظر إلى الكتاب الملقى على الأرض بجوار جثة (عبد المريد) بغيظ، وفكر فى التقاطه، خوفًا من أن يجده أحدهم دون سعى، فيعود بلعنته، ثم تراجع منطلقًا يجر (ألين) ليصعد من المقبرة، قبل أن يسجنه الحجر فيها مدفونًا حيًا، ألقى بجسد (ألين) التى بدأت تستعيد وعيها خارج الحفرة الجهنمية/ وكان الحجر يوشك على الإغلاق، فى آخر لحظة دفع جسده خارج الجبانة، بعد أن أغلقت على قماشة متدلية من ردائه الكتان تحت سرواله فى قبر الجحيم، مزقها ونهض نحو (ألين)، أخذ يجاهد لمساندتها حتى خرجا من حوش المقبرة، وبالخارج كان (قناوى) و(شعلان) يركضان، من هول ما ربما قد رأياه أثناء الطقوس، أخذ (وليد) وهو يسند (ألين) يدور فى الطرقات بين الأحواش فى تيه لوقت ليس بقليل، ثم سمع صوتًا يشبه سيارة تعبر الطريق، توجها إلى حيث الصوت، حتى لمح الطريق السريع. بدأت قواه تخور وهو يسند (الين) بكتفه، وكان الليل معتمًا والسيارات بالكاد تظهر على شكل مصابيح عابرة، ثم توقفت له سيارة خاصة، كان بها رجل وزوجته، تلقف الرجل (وليد) و(ألين)، قبل أن يسقطا معًا على الأرض فى إعياء.

□□□

فى المستشفى كانت ترقد (ألين) على السرير، وتجلس بجوارها والدتها واضعة ذراعها فوق رأسها، وتجفف بخمارها عينيها ولكن فمها مبتسمًا،

وكان أخوها الصغير بجوار والدته يداعب خصلات شعرها بطفولة، على الجانب الآخر كان يجلس على المقاعد الثلاثة (وليد) ووالده ووالدته، قالت والدة (وليد) لوالدة (ألين):

- «حمدًا لله على سلامة (ألين)».

قالت والدتها فى امتنان:

- «الحمد لله، البركة فى (وليد) حفظه الله، ولا أراكم به مكروهاً أبداً، لا أعرف من دونكم ماذا كنت فاعلة».

قال (مكرم) بحماس:

- «يا سيدتى نحن أهلك وأهلها، رجاء ألا تتوانى عن طلب أى شىء تحتاجونه».

كانت (ألين) رغم أنها أفاقت غير أن عيونها كانت شاردة فى الفراغ، تحدق فى لا نهائية وكأنها فى عالم آخر، وكان (وليد) ينظر إليها وهى تبدو كملاك نائم فى ثوب أبيض، وعلى حين كان الجميع يتحدثون، وكانت ترخى ذراعها بجوارها بالقرب من مقعده، تناول (وليد) أناملها الرقيقة التى تشبه عصفورًا جريحًا بين يديه، وطبع قبلة حانية على يدها.

❐❐❐

صمت (وليد) عن السرد وهو ما يزال يضم يديه أمام وجهه، وبدأت ألاحظ أن قطرات من الدمع تسقط من عينيه على منضدة المكتبة، لم

يكن يجلس على طاولة القراءة تلك سوانا، أخذت أدور برأسي مراقبًا رواد المكتبة من حولنا خشية أن يلمحوا دموعه، ومددت يدى ولمست يده الباردة وقلت:

- «خيرًا؟ أليس والحمد لله قد حل الكابوس وكلاكما بخير».

رفع (وليد) رأسه فبدت الأوردة الحمراء فى عينيه وقال:

- «ربما كان لشياطين الجن أذاهم، ولكن شياطين البشر أشد قسوة وظلمًا، لقد تم ترحيل (ألين) وعائلتها من مصر، استقبلتهم العراق فسافروا إليها، ولم أسمع عنهم خبرًا من يومها».

ضغط فكى فى صدمة ولم أجد ما أقول لا تعقيبًا على القصة ولا مواساة فى فقد (ألين) فقلت:

- «لا أعرف ماذا أقول، ولكن على الأقل أنت مطمئن أنها بخير بعيدًا عن الشياطين، ولعل الله يجمع بينكما يومًا، هى على الأقل تعرف عنوانك».

قال بأسى وقد عاودت دموعه الجريان:

- «إذا كانت العراق كلها ليست بخير، وغامت فى ظلمات الحرب ما بين إيران والولايات المتحدة [1]، لا تكل الحروب أبدًا عن حصد الأرواح والآمال، ويبدو أن لعنة الحروب تلاحق هذه العائلة أينما ذهبت».

(١) حتى زمن القصة كانت العراق قد مرت خلال حرب الخليج الأولى ونشبت بين العراق وإيران من سبتمبر ١٩٨٠ حتى أغسطس ١٩٨٨، خلفت الحرب نحو مليون=

نهض من مكانه فجأة فقمت بالتبعية، فقال:

- «أعذرنى إن كنت أصبتك بالنكد».

انصرف مغادراً بين أروقة المكتبة وأنا قد علق لسانى أراقبه فى أسى.

ارتميت على مقعدى وظللت شاردًا حوالى نصف ساعة قبل أن ينادى عليّ لحضور والدى.

نهضت منصرفًا، حتى كنت على عتبة المكتبة مغادرًا ففكرت أن آخذ رقم هاتفة من استقبال المكتبة، خشية ألا يأتى مرة أخرى، توجهت إلى موظف الاستقبال وسألته لطفًا أن يعطينى رقم هاتف الزائر (وليد مكرم)، رفض فى البداية لخصوصية البيانات، ثم وبعد إلحاح عاد إلى دفتر الحضور وأخذ يفر فى الاسماء وقال:

- «لا يوجد زائر اسمه (وليد مكرم)».

=قتيل وخسائر مالية بلغت ٤٠٠ مليار دولار أمريكي، دامت الحرب ثماني سنوات لتكون بذلك أطول نزاع عسكري في القرن العشرين وواحدة من أكثر الصراعات العسكرية دموية، وعملية ثعلب الصحراء؛ (١٦ ديسمبر - ١٩ ديسمبر ١٩٩٨)، وهي ضربة عسكرية جوية قامت بها كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة على العراق، لمدة أربعة أيام. وقد جرت العملية بسبب ما وصفته الدولتان بعدم تعاون العراق مع مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية الباحثين عن أسلحة الدمار الشامل العراقية، ثم حرب الخليج الثانية، تسمى كذلك عملية عاصفة الصحراء أو حرب تحرير الكويت (١٧ يناير إلى ٢٨ فبراير ١٩٩١)، وهي حرب شنتها قوات التحالف المكونة من ٣٤ دولة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضد العراق بعد أخذ الإذن من الأمم المتحدة لتحرير الكويت من الاحتلال العراقي.

قلت متعجبًا:

- «لقد انصرف من نصف ساعة، وقد حضر فى أول ساعات النهار، ربما نسى أن يقيد اسمه، هل من الممكن أن تراجع الكشف أول أمس؟ رجاء».

عاد الموظف إلى الدفتر القديم، وأخذ يفر الاسماء، ثم هز رأسه فى خيبة وقال:

- «لا يوجد (وليد مكرم)».

انصرفت إلى والدى وأنا أتحسس دفترى الذى كتبت فيه الحكاية لأتأكد أنه ليس فارغًا، فاطمأننت على وديعتى، ارتميت على المقعد بجوار والدى فى التاكسى، وتوجه والدى على الفور بيده ليشغل الكاسيت بصوت عبد الحليم

«ضى القناديل، والشارع الطويل

فكرنى يا حبيبى، بالموعد الجميل

وليالى سهرناها، وسهروا القناديل».

فهرس

الموضوع	صفحة
مقدمة	٧
ما قبل الفصل الأول	١١
الفصل الأول: حلم اجازة صيف	١٧
الفصل الثانى: كتاب ولعنة	٣١
الفصل الثالث: عبث شيطانى	٦٥
الفصل الرابع: فى عمق اللعنات	٩٣
الفصل الخامس: مذكرات أستاذ سعيد	١٣١
الفصل السادس: بين يدى ملعون	٢٢٣